

الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 7 — جمادى الأولى 1411 — دجنبر 1990





الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 7 ـــ جمادى الأولى 1411 ـــ دجنبر 1990

رقم الايداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1982/29

أكاديمية المملكة المغربية

كلم 6,4 شارع الإمام مالك ــ السويسي. ص. ب. 1380

الرباط ــ المملكة المغربية



الرباط ــ 21. زنقة ديكارت حي الليمون

تلفون : 99-60-76 فاكس : 05-77-76

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

I ــ سلسلة «الدورات» :

- «القدس تاريخيا وفكريا»، مارس 1981.
- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر» ، نونبر 1981.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، أبريل 1982.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الثاني، نونبر 1982.
- «الامكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، أبريل 1983.
- «الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، مارس 1984.
- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، أكتوبر 1984.
- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية»، أبريل 1985.
- «حلقة وصل بين الشرق والغرب : أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، نونبر 1985.
- «القرصنة والقانون الأممي»، أبريل 1986.
- «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الانجاب»، نونبر 1986.
- «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»، يونيه 1987.
- «خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال : تشخيص وعلاج»، أبريل 1988
- «الكوارث الطبيعية وآفة الجراد» : نونبر 1988
- «الجامعة والبحث العلمي والتنمية» : يونيه 1989.
- «أوجه التشابه الواجب توافرها لتأسيس مجموعات إقليمية»، دجنبر 1989

II ــ سلسلة «التراث» :

- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة عضو الأكاديمية، الرباط 1984.
- «الماء وما ورد في شربه من الآداب» تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.

• «معلمة الملحون» محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.
• «ديوان ابن فركون» تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.
• «عين الحياة في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1989/1409.
• «معلمة الملحون»، الجزء الثالث، روائع الملحون، محمد الفاسي، 1990.

III — «سلسلة معاجم»

• «المعجم العربي — الأمازيغي» محمد شفيق، 1990/1410.

IV — سلسلة «ندوات ومحاضرات» :

• «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.
• «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد» (من 1401 / 1980 إلى 1407 / 1986)، دجنبر 1987.
• «محاضرات الأكاديمية» (من 1403 / 1983 إلى 1407 / 1987)، 1988.
• «الحرف العربي والتكنولوجيا» الندوة الأولى للجنة اللغة العربية فبراير 1988/1408.
• «الشريعة والفقه والقانون» الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.
• «أسس العلاقات الدولية في الإسلام» الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.
• «نظام الحقوق في الاسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1990/1410.

V — سلسلة «المجلة» :

• «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الافتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
• «الأكاديمية» (مجلة أكاديمية المملكة المغربية)، العدد الأول، فبراير 1984.
• «الأكاديمية» العدد الثاني، فبراير 1985.
• «الأكاديمية» العدد الثالث، نونبر 1986.
• «الأكاديمية» العدد الرابع، نونبر 1987.
• «الأكاديمية» العدد الخامس، دجنبر 1988.
• «الأكاديمية»، العدد السادس، دجنبر 1989.

الفهرس

النصوص الواردة في هذا الكتاب أصلية، فينبغي الاشارة إلى هذا الكتاب عند نشرها أو الاستشهاد بها.

ترجمت ملخَّصات النصوص العربية إلى الفرنسية والإنجليزية والاسبانية، وترجمت ملخَّصات النصوص غير العربية إلى اللغة العربية وحدها.

الآراء والمصطلحات الواردة في هذا الكتاب تُلزم أصحابها وحدهم.

القسم الأول : البحوث

أحاديث الخميس

القسم الثاني : الملخصات

القسم الثالث : أنشطة الأكاديمية

الذكرى العاشرة لتأسيس أكاديمية المملكة المغربية

وقائع الجلسة العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء المشاركين الجدد

القسم الأول

البحوث

أبو شعيب الدكالي
رائد الاصلاح الفكري في المغرب الحديث

عباس الجراري

لكي نفهم الدور الكبير الذي قام به أبو شعيب الدكالي، لابد أن نعرف الظروف العامة التي ظهر فيها، حتى نتمكن من تحديد مكانة هذا الدور وأهميته. وأول ما تجدر الاشارة إليه أن المرحلة التي نسميها المرحلة الحديثة في تاريخ المغرب نحددها في الدرس الأدبي — اتفاقا — ببداية عهد يؤرخ له باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830.

ابتداء من هذا التاريخ، تعرض الفكر المغربي، بل تعرض المغرب كله لاختبار شديد سواء على الصعيد العسكري أو الفكري، وكذا على مختلف المستويات التي سنمتحن فيها هذا الفكر، بل ستختبر فيها جميع بنيات المغرب وهياكله السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

حين احتلت فرنسا بلاد الجزائر، وقف المغرب — بحكم روحه الاسلامي ومواقفه المعروفة وشجاعته المعهودة ومساندته الدائمة لاخوانه — إلى جانب الجزائر. ولكن هذا الموقف المشرف جعل فرنسا تضيق به، واعتبرت أن المغرب باتخاذه، خرج عن الاتفاقيات التي كانت تربط بين البلدين بأواصر الود والتعاون. ومن ثم أعطت لنفسها الحق والحرية في أن تخرق هذه العلاقات وتتدخل بواسطة الجيش. وبالفعل في عام 1844 كانت حرب ايسلي التي هزم فيها المغرب. وبعد سنوات قليلة وبالضبط عام 1859، حاولت اسبانيا أن تجرب حظها لتضرب المغرب، مما جعله يواجه تحديا ثانيا كانت نتيجته احتلال مدينة تطوان لمدة سنتين.

كانت هذه الأحداث بمثابة اختيار عسكري كشف — في الداخل — عن ضعف البنيات التي لم تستطع أن تواجه دولتين كبيرتين : فرنسا من جهة واسبانيا من جهة

أخرى. وكانت تلكم بداية تلتها أزمات متعددة أفرزت مشاكل كثيرة عاناها المغرب، كمشكل الحمايات الأجنبية والديون وما اليها من ظروف صعبة تخبط فيها طوال النصف الثاني من القرن الماضي وأول القرن العشرين.

ومن حسن حظ المغرب أن الملوك الذين تعاقبوا في هذه المرحلة ــ ابتداء من المولى عبد الرحمٰن إلى سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فالمولى الحسن الأول ــ كانوا ملوكا كبارا. ولهذا استطاعوا أن يواجهوا الأزمة الشديدة الخانقة التي كانت تهدد المغرب في سيادته، وحاولوا أن يقوموا بعمليات اصلاحية. والمفكرون المغاربة كانوا يكتبون ويساعدون في تصور الاصلاح الذي يمكن أن ينقذ المغرب من الظروف الصعبة التي يتخبط فيها. ومن ثم وجد من العلماء من كتب في اصلاح الجيش ومن تناول اصلاح الادارة، ومن بحث في موضوع الحمايات الأجنبية التي كانت منتشرة، إلا أن الأزمة كانت أقوى من كل هذه المحاولات. ومع ذلك، استطاع المغرب بفضل هؤلاء الملوك ــ ولا سيما الحسن الأول ــ أن يرد الخطر أو أن يؤجل حدوث كوارثه. ولهذا، وعلى الرغم من كل التحديات، ظل المغرب محافظا على سيادته إلى سنة 1912 حين عقدت الحماية. والحقيقة أن المغرب بهذه الوثيقة لم يفقد سيادته، ولكن قَبِل أن يكون محميا لدولة أخرى تساعده على تنظيم نفسه، وخاصة في المجالات الأمنية والمالية.

هذا هو الظرف الذي ظهر فيه الشيخ أبو شعيب الدكالي، وهو ظرف صعب ومتأزم. لست أود هنا الحديث عن حياته فالجميع يعرف قليلا أو كثيرا عن هذه الحياة ولكني أريد فقط أن أطرح بعض الملامح التي تساعدنا على أن نتصور دوره باعتباره رائدا لاصلاح، وهو دور ثقافي فكري كان الرجل مؤهلا للقيام به. كيف كان مؤهلا ؟ هناك جملة ملامح يمكن أن أطرحها عليكم، كلها تبرز هذه الأهلية التي كانت للدكالي.

أبو شعيب ــ كما تخبر ترجمته ــ ولد سنة 1295 هـ أي في الأزمة المذكورة، ولكنه ظهر بنبوغٍ مبكر، وهو نبوغ يكفي أن أشير إليه من خلال حادثة بسيطة ــ حادثة علمية ــ وقعت له وهو طفل صغير وعمره يومئذ لا يتجاوز الثلاثة عشر عاما اذ وقعت بالضبط سنة 1308 هـ. وتتلخص في أن القصر الملكي ــ بأمر من الحسن الأول ــ أعلن عن مباراة في حفظ «مختصر الشيخ خليل» المعروف في الفقه المالكي والمتداول في حلقات الدرس اذ ذاك، وأنها ستجري بقصر مراكش.

تقدم عدد من المرشحين كان من بينهم الطفل الصغير أبو شعيب الدكالي، ونجح في المباراة، اذ تبين أنه يحفظ المختصر، إلا أن بعض أعضاء لجنة هذه المباراة أراد أن

يختبره اختبارا آخر، فسأله، «هل تحفظ القرآن الكريم». «أجاب» : «نعم وأحفظه بالروايات السبع». قال له : «اقرأ ؟ فقرأ سورة الرحمٰن بجميع هذه الروايات. وصل الخبر على الفور إلى الحسن الأول الذي أمر بادخاله عليه، فأخذ بنظراته ونباهته وبداهته، وبعلمه الذي تجلى في قوة الاستظهار والحفظ. وأراد مداعبته والزيادة في اختباره، فقدم له سؤالا في النحو، اذ طلب منه أن يعرب جملة هي «الرمان حلو حامض» قصده أن يطرح معه قضية معروفة في النحو تتعلق بالخبر حين يتعدد بالنسبة لمبتدأ واحد. أجابه الشيخ ــ بل الطفل ــ أبو شعيب الدكالي، بما أكد للسلطان معرفته ونبوغه. ثم أن الحسن الأول أراد أن يمازحه ويثيره فقال له : «أنت فقيه ولست بنحوي» «فأجابه : «أنا أعلم بالنحو مني بالفقه، ولكني أنشد لمولانا قول الشاعر :». وأنشد له بيتا فيه تلميح لما شعر به. يقول هذا البيت :

يداك يد للورى خيرها وأخرى لاعدائها غائرة

هنا تدخل بعض من كان حاضرا في المجلس وقال له : «أفصح ؟ ماذا تريد أن تقول لمولانا ؟» أجاب : «يكفيني أن أتلو قول الله تعالى : والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات». أعجب به السلطان أيما اعجاب، وضحك كثيرا، وأمر له بصلتين وكسوتين، وكتب له في توقيع ذكر الشيخ أنه يحتفظ به ويعتز : «يضاعف لأبي شعيب، لصغر سنه وكبر فنه».

اذن كان للدكالي نبوغ مبكر في سن الطفولة قبل أن يتاح له أن يرحل إلى الخارج. ذلكم أنه سافر إلى مصر وأخذ عن علماء الأزهر، وزاد فذهب إلى الحجاز وخاصة إلى مكة فأخذ عن علماء الحرم، واستطاع أن يبرز فقيها وعالما مشاركا مؤهلا لأعلى المناصب الدينية ، وبالفعل عينه الأمير عون أمير مكة خطيباً في الحرم المكي، وعينه كذلك مفتيا للمذاهب الأربعة.

بهذا وغيره اكتملت شخصية الدكالي وقدراته العلمية، وعاد إلى المغرب، وتمت هذه العودة عام 1907 قبيل تولية السلطان المولى عبد الحفيظ. وحين أعتلى العرش في السنة الموالية، وكان عالما كبيرا كما كان ملكا كبيرا وان كانت الظروف يومئذ أقوى منه، قرب أبا شعيب وعينه في القضاء بمراكش، وأذن له أن يلقي الدروس في مدن متعددة، وخاصة في الرباط وفاس ومراكش، لأنه كان يدرك قيمته العلمية وقدراته الفكرية، ولأنه كان لاشك متجاوبا معه في النزعة الاصلاحية.

وقد تسنى للرجل أن يحتفظ بهذه المكانة في عهد المولى يوسف، وكذا في أوائل عهد الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه. وبعد القضاء أصبح وزيرا للعدلية،

وهو المنصب الذي به تسنت له الاقامة في الرباط. ومع هذه الوزارة كلف برئاسة الاستيناف الشرعي، بالاضافة إلى الدروس.

يتضح من هذا أن هناك جملة عوامل : النبوغ المبكر، والرحلة إلى الخارج للاستزادة مما في العالم الاسلامي واكتساب خبرات جديدة، ثم المناصب التي تولاها، كل هذه العوامل جعلته شخصية مهيأة للقيام بدور المفكر المصلح.

هنا نتساءل : أين يتمثل هذا الدور الذي قام به شعيب الدكالي ؟ وكيف نهض به ؟ ونجيب على الفور بأنه دور فكري بالدرجة الأولى. ولو أردنا أن نعبر عنه في جملة تلخص ماهيته من خلال العمل الفكري الذي قام به الرجل وما يميزه لقلنا في كلمة إنه الاصلاح و السلفية.

ولكن كيف أبرز دوره باعتباره رائد الاصلاح ورائد السلفية ؟ وكيف قام به ؟ الاجابة غير صعبة، لأن الأمر تم له عن طريق التدريس. هنا تطرح العلاقة بين تدريس الدكالي ودوره باعتباره زعيما سلفيا ومفكرا اصلاحيا، ومعها يطرح التساؤل الآتي : كيف استطاع النهوض بهذا الدور عن طريق التدريس ؟

أبو شعيب الدكالي درس علوما كثيرة، ابتداء من النحو إلى الفقه فالقرآت، ولكن هناك بعض العلوم التي ارتبطت بتلكم الرسالة الاصلاحية، وقلما ينتبه الناس إليها. درس التفسير، والذين تلمذوا عليه وعاشوا في هذه الفترة يعرفون أن التفسير لم يكن يدرس في المغرب. لماذا لم يكن يدرس ؟ يبدو أن دراسته توقفت في عهد مولاي سليمان الذي نعرف جميعا أنه كان معجبا بالشيخ أحمد التيجاني. ومرة كان هذا الشيخ في فاس ودخل إلى بعض المساجد، فوجد أحد العلماء ــ هو الشيخ الطيب بن كيران ــ يدرس التفسير. فقال للمولى سليمان مستغربا ومستنكرا :

«مثل هذا العالم يدرس التفسير ؟ سيكون ذلك وبالا وخرابا على الأمة والسلطان».

توقف التفسير منذ ذلكم الوقت، وأصبح يقرأ تلاوة وسرداً وليس دراسة علمية. جاء أبو شعيب فأحيى دراسته، وكان يدرسه بتفسير النسفي، وهو معروف. ومن خلال التمعن في القرآن الكريم وآيات الكتاب المنزل بعث وعيا فكريا جديدا، باعتبار الوحي القرآني أول مصدر في مسيرة التصحيح والتقويم، للعودة بالأمة إلى الطريق السليم، بعيدا عن الخرافات ومظاهر الشعوذة التي كانت شائعة يومئذ.

ومن ثم كان احياء دراسة التفسير لبنة أولى في عملية الاصلاح التي نهض بها أبو شعيب الدكالي، قواها بلبنة أخرى هي بعث الاهتمام بالسنة فأخذ يدرس الحديث. المغاربة في هذه الفترات المتأخرة لم يكونوا يتعاملون علميا مع الحديث النبوي، وانما كانوا يقرأونه كأن يسردوا صحيح البخاري أو مسلم مثلا، دون اجراء الدرس المتمعن في اللفظ والسند وتناول الأحكام وغيرها. وهذا يعني أنهم كانوا يقرأون الحديث كما يقرأوون القرآن، أي يتعبدون به فحسب، في حين أن الذي يُتعبد به هو القرآن الكريم، وما سواه فإنه قابل للبحث والتحليل. جاء أبو شعيب الدكالي وأدخل دراسة علم الحديث، ودرس كتبه الستة غير مقتصر على الصحيحين. وعن طريق دروسه الحديثية التي كانت موزعة في كل مكان، وضع لبنة أخرى استطاع بها أن يفتح الأذهان وأن يبعث وعيا جديدا في الأمة.

لماذ أركز على دراسة التفسير والحديث ؟ هنا لابد من كلمة حول مفهوم السلفية. هذا المصطلح ينبغي الانتباه إليه، لأنه يستعمل في معنيين اثنين : يستعمل في معنى ايجابي كما هو السياق الآن ونحن نتحدث عن أبي شعيب الدكالي زعيم السلفية أو رائد السلفية. ويستعمل بمعنى قَدْحِي عند الذين يرفضون الرجوع إلى الماضي وإلى التراث، فكل ما هو رجعي أو مرتبط بالماضي يقولون عنه انه سلفي.

إذن ما معنى السلفية ؟ هي الرجوع إلى الأصول. ما هي الأصول ؟ بالنسبة للاسلام، وبالنسبة للفكر الاسلامي، الأصول هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ولهذا كان الدكالي يركز على تدريسهما، ملحا على حك الفكر المغربي من خلال تفسير آية أو شرح حديث. وبذلك استطاع أن يبث الرأي السلفي في أبعاده الجديدة المتفتحة، بواسطة الرجوع إلى الأصل للتغلب على كل السلبيات الذائعة، وعلى كل الشوائب التي تفشت، وعلى كل البدع المنتشرة، وهو تطلب يقتضي الرجوع إلى الاسلام في نبعه الصافي وأصله الحق. ولهذا كان أبو شعيب الدكالي يركز على هذين المصدرين.

ثم إن أبا شعيب، وهو صاحب رسالة تهدف إلى التوعية وإلى بث روح جديد في المغاربة، لم يقتصر على دراسة العلوم الاسلامية مع التركيز على التفسير والحديث، ولكنه كان يدرس الأدب كذلك، إذ درس «أمالي أبي علي القالي» وهو كتاب في الأدب واللغة. سوف تقولون ان الأدب ليس شيئا كبيرا. اليوم توجد احدى عشرة كلية للآداب في المغرب. نعم، ولكن في بداية القرن حين كان الدكالي يلقي دروسه في الأدب، كان هذا الفن لا يدرس في حلقات المساجد، وفي أحسن الأحوال، كانت

تستغل مناسبات كالمولد النبوي فتقرأ «البردة» و«الهمزية» و«بانت سعاد» وقد يشرحها بعض العلماء شرحا خفيفا. لهذا يعتبر حدثا كبيرا أن يأتي أبو شعيب الدكالي في أوائل القرن ويلقي، درسا في المسجد من هذا القبيل يستمر في إلقائه غير مقيد بموسم أو مناسبة.

بذلك يتضح أن فكر الرجل كان فكرا سلفيا اقتضاه الرجوع إلى الأصول، واقتضاه كذلك أن يلجأ فيه إلى التدريس، أي أن يتخذ التدريس وسيلة، لأنه لم يكن كاتبا. وحتى لو أنه أراد أن يكتب لأعوزته وسائل النشر، لأن المغرب في هذه المرحلة التي نحن بصددها لم تكن متوافرة فيه الصحف والمجلات، ولم تكن المطبعة فيه نشيطة. ولهذا، وهو واع بالواقع، لجأ إلى التدريس باعتباره خير وسيلة للتبليغ. حين نقول التدريس ينبغي أن نفهم شيئا، ذلكم أن التدريس لم يكن كما هو حادث الآن في صيغة تقتضي من فلان يشتغل معلما في مدرسة ابتدائية أو مدرسا في ثانوية أو أستاذا في جامعة أن يكون له عدد معين من الحصص مضبوطة بساعات تشكل مجموع عمله الذي يتقاضى الأجر عليه. أبو شعيب كان وزيرا للعدلية، ولكن كانت عنده دروس تمتد من الصباح إلى المساء. وإذا سافر إلى مدينة أخرى، فإنه يلقي فيها دروسه.

في الرباط كانت له دروس رسمية، في الزاوية الناصرية، وفي جامع القبة، وفي سيدي العربي بن السايح، وفي مساجد وزوايا أخرى، مما يتعبر عملية جهاد علمي مستمر كان يقوم به الشيخ الدكالي. ولكن قد يقال : كان هناك علماء آخرون يشغلون أيضا مناصب ويقومون كذلك بالتدريس، ولم يكن لهم نفس الدور الذي كان لأبي شعيب. هذا صحيح، ولكن هناك عوامل ساعدت الدكالي على أن يقوم برسالته الاصلاحية. هذه العوامل المساعدة كثيرة، يمكن أن نذكر منها مثلا : التفتح الذي تميز به. كان يوجد علماء كبار في ذلكم الوقت يدرسون، ولكنهم لم يكونوا متفتحين، علما بأنه كان في الرباط يومئذ علماء متخصصون كبار متميزون في نفس الوقت بالمشاركة في شتى المجالات العلمية الأدبية كأبي حامد البيطاوري ومحمد المدني ابن الحسني. كان التزمت يطغى بصفة عامة على الفكر المغربي وعلى العلماء، ليس في فاس فحسب حيث جامع القرويين ولكن في مختلف المدن على الرغم من وجود بعض الاستثناآت كما ذكرت.

وقد اكتسب أبو شعيب تفتحه من عناصر متعددة : أولا بحكم ثقافته الواسعة، لأن الثقافة حين تتسع تساعد على تفتح الذهن. فالرجل لم يكن مجرد فقيه ولا مجرد محدث ولا مجرد مفسر للقرآن ولا مجرد قاريء أو مقريء لكتاب الله، ولا مجرد نحوي...

ولكن كان ذا ثقافة تتسم بعمق التخصص واتساع المشاركة. وزادت في هذه الظاهرة تلكم الفترة التي قضاها في الخارج، ولا سيما في مصر والحجاز. ولا ننسى بأن مصر في هذه المرحلة كانت تعيش حركة اصلاحية كبيرة، وهي الحركة التي برز فيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رضا. وقد استطاع الدكالي وهو يحتك بهذه الحركة أن يتأثر بها. خاصة وهو في عنفوان الشباب. وفي الحجاز حدث له نفس التأثر، اذ من المعروف أن الحجاز في هذه الفترة ومنذ عهد محمد بن عبد الوهاب المعاصر للمولى سليمان كانت تسير على المذهب الذي يسمى بالمذهب الوهابي. صحيح أنه وقعت فيه بعض الأشياء التي تتسم بالتطرف، ولكن بصفة عامة، محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى السنة وإلى العودة للأصول. وهذا ما جعل أبا شعيب الدكالي يستفيد كذلك من اقامته في الحجاز ومن احتكاكه بعلمائه.

ثم أن هناك عناصر أخرى ساعدت بدورها على قيام أبي شعيب برسالته الاصلاحية. فعلى الرغم من أنه كان وزيراً للعدلية، وعلى الرغم من أنه كان في عهد الحماية يتولى المسؤولية، فقد كان وطنيا. وهذا جانب قلما يتحدث عنه الدارسون. بطبيعة الحال، في هذه الفترة التي نبحثها، الوطنية ما زالت لم تولد بالمفهوم الحديث، أي بالمفهوم الذي ربطها بالعمل السياسي. ذلكم مفهوم لم يتبلور إلا في سنوات الثلاثين، وربما جاز التأريخ لبدايته بأحداث الظهير البربري. ولكن الوطنية التي نتحدث عنها كانت كامنة في الروح وفي العمق وفي الرسالة التي يقوم بها الشخص. ومع ذلك توجد مواقف تسجل لأبي شعيب تدل على وطنيته وعلى صرامته فيها. يذكر مرة أنه كان — وهو وزير — حاضرا في مأدبة إلى جانب المارشال ليوطي وهو أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب. ووضع على المائدة شواء أي كبش مشوي. فالتفت المارشال إلى الدكالي وقال له : «هذا النوع من الطعام لم يعد موجودا إلا في المغرب، أما في الجزائر فانهم لم يعودوا يعرفون ما هو الكبش المشوي» أجابه على الفور : «ياسعادة المارشال، ان بقيت فرنسا في المغرب، نحن كذلك سنفقد الكبش المشوي». فغضب ليوطي من كون هذا الفقيه الوزير يجيبه ويرد عليه بكلام فيه مس بفرنسا، يعني أنها ان استمرت فستجعل الأمة تفقد ملامح أصالتها. ومن مظاهر وطنيته كذلك نسوق هنا ما يقال من أنه طلب الاعفاء من الوزارة أو أقيل منها لأنه رفض أن يوقع قرارا بانشاء دار للبغاء في مدينة القنيطرة. رفض وأخذته الغيرة الاسلامية وامتنع ولزم بيته. الرجل إذن كان وطنيا بكل ما يفهم في الوطنية من حماس وروح وثبات على المبدأ وقول الحق وعدم الخوف من قوله.

ثم أن مما قرب الدكالي إلى الناس ـــ وخاصة في بعض المدن، لا سيما الرباط التي أقام بها مدة طويلة ـــ تلكم اللهجة التي كان بها يخاطب الناس ويؤدي دروسه، لان هذه الدروس كان يحضرها العلماء والطلبة ويحضرها كذلك العوام. والذين عاشوا في هذه الفترة يقولون انه حين كان يقترب وقت دروس أبي شعيب، تمتلىء الزاوية الناصرية عن آخرها، ويقفل الناس، دكاكينهم ليتمكنوا من الحضور. وهذا يعني أن الرجل كان له جمهور واسع، وأن هذا الجمهور كان مشدودا اليه. بطبيعة الحال كان هناك العلماء والطلبة الذين كانوا مأخوذين بعلمه ويستفيدون من هذا العلم، ولكن كان هناك كذلك الذين يعجبون به لأشياء أخرى تجذبهم فيه. من ذلك أن أبا شعيب كانت له نبرة صوتية خاصة، وكانت له لهجة متميزة، وكانت له صرامة في التعبير، بل كانت له تعابير ينزل فيها أحياناً إلى المستوى العامي لكي يبسط فكرة ما أو يقرب شرحا معينا للأذهان. في اعتقادي أن هذه المجموعة من العوامل ـــ علمية وذاتية ووطنية وغيرها ـــ جعلت من أبي شعيب الدكالي الشخص القادر على أن يبلغ رسالة اصلاحية، وأن يتوسل في تبليغها بطرق العلم والفكر.

بعد هذا يبقى سؤال : ما هو تأثير أبي شعيب الدكالي طالما أنه لم يحرر ولم يخلف لنا تراثا مكتوبا، وان كان ما قام به يتمثل في دروس ألقاها على امتداد سنوات عمره ؟ مامدى تأثيره إذن ؟ ولماذا نصفه بأنه رائد الاصلاح الفكري ؟

يمكن القول بأن تأثيره تم على صعيدين اثنين :

أولا على صعيد الرأي العام، لأنه كان عالما متصلا بالجماهير التي كانت تقبل على دروسه، أي أنه كان على التحام بها واحتكاك مباشرة. وهذا مهم بالنسبة للقيادة الفكرية بل بالنسبة للزعامة كيفما كانت، سياسية أو فكرية.

فأبو شعيب بطريقة تلقائية لا افتعال فيها ولا اصطناع، وبعلمه ولاخلاصه فيه وصدقه في أدائه، استطاع أن يجلب الجماهير لتلتف حوله، واستطاع عن طريق اتصاله بالجماهير أن يلقح الأفكار. هذا العنصر قد نستهين به اليوم، ولكن ينبغي أن نتصور المغرب في أوائل عهد الحماية كيف كان ؟ ليست هناك لا اذاعة ولا تلفزة ولا صحف وطنية، باستثناء جريدة «السعادة» التي كانت لسان حال حكومة الحماية والتعليم كان محصورا في الكتاتيب القرآنية وحلقات المساجد والزوايا، والعلماء يغلب عليهم التزمت ؟ والعوام غارقون في الشعوذة والانحراف، والحالة متأزمة على وجه العموم. وقد تعمدت أن أبدا محاضرتي بالحديث عن بعض جوانب هذا التأزم العام : عسكرية وسياسية

واقتصادية واجتماعية وثقافية. ولهذا كون أبي شعيب كان يخاطب مباشرة ولسنوات طويلة جماهير الأمة وينبه إلى ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة وضرورة الرجوع إلى الاسلام الصحيح، والابتعاد عن الخزعبلات والخرافات التي كانت منتشرة، كل ذلك يدخل في نطاق التوعية بفكر جديد لم يكن المغاربة يعهدونه من قبل، علما بأن التاريخ القريب يحمل بذورا سلفية غرسها ملوك مصلحون كسيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان.

هذا على صعيد الرأي العام، أما على صعيد الطلبة والعلماء، فقد خلف أبو شعيب الدكالي تأثيرا كبيرا تجلى في تلاميذه، أولئك التلاميذ الذين نهضوا بالرسالة الاصلاحية وحملوا أعباءها، سواء في مدينة الرباط التي استقر فيها واتخذ بها اقامته، أو في مدن أخرى كفاس ومراكش حيث وجد جيل من الطلبة الذين أخذوا عنه وتأثروا به، وربما ذكر بعضهم ونسي هو.

أما في الرباط فقد قام تلاميذه ــــ وهم كثيرون ــــ بنهضة فكرية متشعبة، هي في الحقيقة من غرس يده، وكان ذلك في وقت مبكر، أقصد في سنوات العشرين. حين نقول سنوات العشرين ينبغي أن نتمثل حال المغرب وفق ما سبقت الاشارة إليه. وغير خاف أنه منذ عقدت الحماية، والمغاربة يقاومون في البوادي والجبال وفي كل مكان. واستمرت المقاومة إلى سنة 1935. وحين وضعوا السلاح تحرك الفكر يحمل مشعل الكفاح في واجهات متعددة تصدى لها تلاميذ المدرسة السلفية، مما خلق نهضة كانت أساس كل ما عرفه المغرب بعد.

ما هي هذه النهضة ؟ وما هي مظاهرها التي تجلت على يد تلاميذ أبي شعيب ؟ أولا في مجال التعليم : الذين قاموا بإنشاء مؤسسات تعليمية عصرية أوائل سنوات العشرين كانوا من تلاميذه الذين تخرجوا من مدرسته مشبعين بفكره وبالوعي الجديد الذي بثه فيهم وتحملوا هم مسؤولية توسيع نطاقه. من مجموع تلكم المدارس الحرة، يكفي أن أشير في الرباط إلى مدرسة درب الزهراء والمدرسة المباركية والمدرسة العباسية.

المظهر الثاني كان كذلك في هذه الفترة المبكرة، ويتمثل في الكتابات السلفية ذلكم أنه وجدت نخبة من تلاميذ أبي شعيب تصدوا لاظهار السلفية والدفاع عن فكرها، ومحاربة الشعوذة والخرافات، وهو ما يسمى عادة بالحركة السلفية أو الصراع بين القديم والجديد، أو الصراع بين الطرقية والسلفية، أو المعركة بين الشيوخ والشباب.

على أنه لا ينبغي أن يفهم من طبيعة هذا الخلاف أن السلفيين كانوا ضد التصوف، بل أنهم كانوا متصوفة كذلك، وأبو شعيب الدكالي كان يحمل سبحة الذكر باستمرار. ولكن هناك فرق بين أن يكون الانسان متصوفا وأن يكون مشعوذا. ففي هذه الفترة من سنوات العشرين، كانت الشعوذة طاغية، والاستعمار كان يساعد على انتشارها. ولذلك تصدى العلماء السلفيون لتنقية الأفكار ولابعاد المظاهر الخرافية عن الدين الاسلامي. ومن ثم، فان الشبان الذين دخلوا معركة السلفية ضد الطُّرقية لم يكونوا ضد التصوف، ولكن كان لهم موقف ضد المظاهر الخارجة عن الاسلام. وهذا يعرفه من عاشوا في تلك الفترة. من ذلك ما كانت تقوم به بعض الطوائف كحمادشة وعيساوة وما لها من الممارسات التي كانت شائعة يومئذ، والتي وقف العلماء الشبان ضدها على اعتبار أنها ليست من الاسلام ولا التصوف في شيء. ولعلي في غنى عن الاشارة إلى كثرة عدد هؤلاء الذين وقفوا يناهضون الطرقية ويقاومون الخرافات ويدعون إلى العودة بالاسلام إلى أصله.

ويكفي أن أذكر من بين أبرز التلاميذ الذين قاموا بالحركة السلفية في الرباط المرحوم محمد بن اليمني الناصري وأخاه محمد المكي ووالدنا المرحوم عبد الله الجراري. هؤلاء تصدوا في تيار السلفية وفي تيار التجديد لمواجهة الذين كانوا يمثلون الاتجاه الطرقي. وقد كانوا — كما قلنا — تلاميذ ملازمين ومخلصين ينقلون الأفكار التي تلقوها عن أبي شعيب الدكالي، ويطورونها لتكيف مع المعطيات الطارئة في تلكم المرحلة الحاسمة. هذه المعركة — وهي معركة كبيرة في تاريخ الفكر المغربي الحديث بحكم الواقع الذي كان يعانيه هذا الفكر كما سبق القول — كانت تجد لها مجالا في الجزائر حيث كانت الحركة الاصلاحية قوية كذلك، فكان كتاب السلفية ينشرون في مجلة «الشهاب» مثلا، وكتاب الاتجاه الآخر ينشرون في مجلة «البلاغ».

إننا اليوم قد نستهين بهذا الدور الذي اضطلع به تلاميذ المدرسة السلفية، ومع ذلك تبقى قيمته الحقيقية، وهي قيمة كامنة ليس في الصراع الذي كان بين فئة تدعو إلى الرجوع للأصول، وفئة أخرى تدعو إلى التشبث بما هو سائد، ولكن في الروح الجديد الذي بعثته في العقل المغربي، هذا الروح الذي سوف يخرج من حيز الصراع بين فئتين تتناقشان حول حقيقة الاسلام إلى صراع من نوع آخر يتلاءم مع الظروف الجديدة التي أصبح يعيشها المغرب.

وكان أول اختبار للمدرسة السلفية — أي أول اختبار للمدرسة الشعبية — وتلاميذها على الساحة الوطنية هو حادث الظهير البربري الصادر في 16 مايو

عام 1930. ذلكم أن الذي تصدى له في بداية الأمر، ووقف يخطب في الناس ويوعيهم بخطر القضية، كان من تلاميذ الشيخ، هو الذي نادى بعبارة «اللطيف» التي غدت مشهورة، بل غدت سلاح المغاربة في كل أحداث المقاومة. وفيها يقول والدنا رحمه الله، «اللهم يالطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر».

على أن أهمية أحداث الظهير البربري تكمن في أنه استطاع أن يخرج بالعمل الفكري الصرف إلى مجال العمل الوطني السياسي. من هنا فإن الظهير البربري يعتبر في الحقيقة نقطة تحول من العمل الثقافي الذي كان يقوم به العلماء في المساجد عن طريق بث الأفكار والتوعية إلى عمل له صبغة وطنية سياسية تتلاءم مع متطلبات المرحلة الجديدة وما أفضت إليه وضعية الاستعمار بعد أن أوشكت المقاومة المسلحة على أن تتوقف.

لم يقتصر الدور الذي قام به تلاميذ مدرسة أبي شعيب الدكالي على خوض المعركة السلفية وعلى البروز في الظهير البربري وعلى إحداث المدارس، ولكن تعدى ذلك إلى فتح آفاق جديدة أمام الفكر والابداع في المغرب، على الرغم من طغيان الجمود يومئذ، أقصد في سنوات العشرين. والمستغرب أن بعض تلاميذ الدكالي استطاعوا أن ينشئوا فرقا مسرحية، وأن يؤلفوا مسرحيات، وأن يتصلوا بالجمهور عن طريق المسرح.

فالمسرح الذي نعتز اليوم بوجوده لم يكن موجودا ولم يكن الناس يعرفونه في تلكم الحقبة، فأن يأتي بعض تلاميذ هذه المدرسة ويكتبوا مسرحيات فيها قصص وطنية، وفيها توجيه للفضائل والأخلاق وحث على العلم، وفيها نتيجة ذلك مواجهة الاستعمار، كل ذلك كان شيئا مهما إلى حد بعيد.

ذلكم هو الدور الذي قام به أبو شعيب الدكالي، انطلاقا من ثقافته المتفتحة المتسعة، من تشبعه بالفكر الاصلاحي الجديد الذي أخذه مباشرة من منابعه. لكن حين نقول إنه أخذه من منابعه ــ أي من الحجاز ومصر ــ ينبغي أيضا أن نعرف أن المغرب كانت له مبادرات في مجال الفكر السلفي. إلا أنها مبادرات لم تتح لها فرصة الانطلاق. وقد سبق أن أشرت إلى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان سلفيا، وأن السلطان المولى سليمان كان سلفيا كذلك، وهو صاحب رسالة كتبها ضد البدع ينتصر فيها للسنة، إلا أن ظروف المغرب التي كانت تتأزم يوما بعد يوم حالت دون أن تثمر هذه البذور لتنتج فكرا جديدا تتولد عنه مدرسة أو اتجاه حتى يكون فعالا.

ولهذا فان أبا شعيب الدكالي ـــ بعلمه وتجربته وتفتحه وما اكتسبه من خبرة، وكذلك بالمدرسة التي أنشأها، وبالتلاميذ، وبالوعي الذي خلفه في الأمة ـــ بهذا كله استطاع أن يكون بحق وجدارة رائد الاصلاح الفكري أو الفكر الاصلاحي في المغرب.

طه حسين : أدب تنويري

محمد علال سيناصر

طه حسين، دون ريب، أبعد الأدباء المعاصرين أثرا على اللغة العربية وعلى العلاقة الحديثة بين الأدب والمجتمع. ولا يغني الحديث عنه، عن لقاء مباشر مع أدبه، بعيدا عن مجالات الدرس والتدريس للأدب. فللتجربة الشخصية، في هذا المضمار، قيمة لا يبلغها النظر ولا ينفذ إليها التحليل. وتجربتي مع طه حسين كانت نتيجة مصادفة لا أزال أدين لها بكل ما يربطني بالعربية من أسباب. كان ذلك أيام الحماية التي كابدها المغرب، وكنا نتعلم ــ مع كثير الاعتناء بالفرنسية والعلوم المختلفة الملقاة إلينا في هذه اللغة ــ قليلا من مباديء النحو، وأوليات الفقه، وأطرافا من نصوص جمعها مستشرق عرف بتخصيصه عاما جامعيا كاملا لموضوع كتابة الوصلة وقواعدها! فكان من الواجب أن أجد إلى العربية سبيلا يجعلها محببة إلي. وتم ذلك على يد رفيق في الدراسة ألح علي في أن نقرأ معا فصولا من نقد طه حسين يصف فيها كتبا من الأدب الفرنسي كنت أحبها حبا جما. منها **يوميات** جيد التي يعتبرها عميد الأدب العربي ملخصا للأدب الفرنسي في النصف الأول من هذا القرن، ملخصا لا كالملخصات المدرسية، بل مرآة حية للحياة الأدبية الحية. إلى جانب اليوميات علّق طه حسين على **المقبرة البحرية** لڤاليري وما أثارته من نقد وتقريظ، وتفسير وتأويل ومناقشات. وكان ما قرأته في كتب طه حسين حول هذه الخصومات الأدبية من أشد ما أثر في توجيهاتي نحو الأدب وفي مقاييسي لتذوق الآداب الغربية نفسها، إعجابا بالصورة التي يرسمها **طه حسين** الشخص الذي يتمنى إلا أن يرضي نفسه، أي أصعب القضاة وأصلبهم وأبعدهم عن التحيز، كما قال عن دوڭاس ناقلا عن ڤاليري. وظلت هذه المصادفة ــ وهل حياة الانسان آخر الأمر إلا مصادفات ــ لقاء باقي الأثر، استدرجني إلى لقاءات أخرى، وإلى لقاءات لا تزال مستمرة ولا تزال تعمل عملها.

إن الذي أخذ بيدي وأنا مراهق أشرف على مدرسة الحياة، وتلميذ كان ذوقه يشكل سببا بعد أن نحتت اهتمامه مدرسة الحماية والتدريس العصريان، جعل من حداثتي الغربية جسرا إلى الولوع بعربية زاوجت بين الأصالة والمعاصرة. فتلخصت أهمية **طه حسين** عندي، إذ كان لابد من تفصيلها وترتيب عناصرها، في أربع نقط سأذكرها على التوالي.

1 – إنه طوع العربية وروضها على التعبير الحديث،

2 – وأنزلها من محلها الأرفع إلى الصحافة السيارة متواضعة معتدلة،

3 – ثم جعلها ــ بصفتها ممراً للقديم عبر الحديث ــ أداة لإنسية جديدة،

4 – انتهت به إلى التأليف بعين العامة والخاصة وتكليف الخاصة مغريا، كما قال، رحمه الله، العلم بالأدب فاتبع الجاحظ في قسمه أقدار الكلام على أقدار المعاني دون أن يوافقه في قسم المعاني على أقدار الناس.

أجل إن أثر طه حسين، وفضله الباقي، لا يكمن في ما قدمه من أفكار أو نهجه من سبل في عرض القضايا الأدبية والتعرض لأعمال الكتّاب القدماء أو المحدثين، فنحن نقرأ طه حسين معجبين بخفة أسلوبه واطراده وأقل إعجابا واهتماما بآرائه وأحكامه ومذهبه. وقد لا نتفق معه في الرأي إذا خاصم هذا الأديب أو ذاك من معاصريه، ولا نرى ضرورة في اعتناق أطروحاته وترجيح نظرياته، ومع ذلك، فإننا نشهد أن كلامه أمتع وآنق وألذ، ونتتفع بسلامة عقله وجودة بيانه وهو يرد على الرافعي رأيه في تسوية الفهم والذوق، فيجيب **طه** صاحبه مداعبا أننا نفهم الكثير من كلام الرافعي، دون أن نتذوقه ونستمع بجدية منعتها حدتها من التمتع بما أينع في جنات الآداب من أزهار أذهب ريحها التحليل المفصل الطويل الذي ينسي الموضوع ومقاصده. ولذلك نرى طه حسين لا يعبأ بالأعراض الطارئة التي لا علاقة لها بأدب الأديب. وما توقفك عند حياة رجل من الناس، عند ظروف مولده، وثنايا مغامراته، و حظه وشقائه، وموضوع الامتاع أيسر وضوحا، وبه لا بغيره، تتجلى قيمة ما يهمنا فيما نقرأ، ويمتعنا فيما نتذوق، وشتان بين ما يهمنا وما يمتعنا ؟

ما تبقى لنا من كاتبنا، هو سره، وهو كل سره، في أسلوبه المقنع الممتع، وفي قدرة هذا الأسلوب، السالم من أفكار التفاوت بين العقول والتفاضل بين أصناف الكلام، على جعل كل من عرف ما تيسّر من نحو وصرف مدفوعا إلى التخيل بأنه يستطيع أن يحاكي ما كتبه **طه** من نقد وأن يقلد ما ذهب إليه طه من رأي في دراسته للمتنبي، أو أبي العلاء، أو في تقريبه المعلقات إلى فهم من لم يتعود سماعا غير سماع

ما يذيعه المذياع أو قراءة غير ما تنشره الصحف اليومية والمجلات المصورة. وبقطع النظر عمّن جرب نفسه في تقليد **طه حسين**، فانتهى إلى شيء أم لم ينته إلى نتيجة ذات غناء، بحثا كان ذلك أم نقدا، دراسة أو مجرد لغوٍ من لغو الوقت، فلا جرم أن **طه** بعث الكثير على استطابة الكتابة واستملاحها وسواء أراد ذلك أم لم يرد، فلقد عمل بطبيعة أسلوبه عمل مربّ موهوب يدفع إلى اكتساب ملكة الكتابة والأدب. فكيف الأمر إذا كان، علاوة على هذا التأثير اللاشعوري، داعية إليه.

طه حسين عندي كاتب قدوة، كاتب في خفة «**فولتير**» ودعابة الجاحظ. تسمع كل كلمة من كلامه وكأنها تذكرك بالقاعدة الذهبية : «**إياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك**» وهو بميزته هذه مربّ للأجيال الحديثة، أقرت بذلك أم لم تقر، ورضيت أو لم ترض. أو إذ أنها، وان اكتشفت بعث **طه حسين** طرقا جديدة للتعبير، فإنها اكتشفتها بعد **طه حسين**، بعد الحداثة التي أصلها في العربية تأصيلا مقبولا قصدا، لذلك فتح للعربية آفاقا جديدة بأن واصل ذوقها وتطلعها وشغفها بالبيان بعد أن تقطعت بينها وبين عبقريتها الأصيلة الأسباب. فنرى الكاتب المجيد يكتب في بداية هذا القرن كتابة ترجع أنماطها إلى أساليب القرن الرابع، حتى أصبحت العربية ــ وهذا في خير الحالات وأحسن الافتراضات ــ سجينة عبارات ثابتة الصورة والخيال. فكأن التاريخ اللغوي وقف مع «البيان والتبيين».

فطه حسين، في أسلوبه، في تطويعه للغة، عالج ما ترتب عن عصور الانحطاط من فصل اللغة عن الدهر، فاهتدى إلى سبل ربطها بعجلة التاريخ، أي تاريخ الانسان الثقافي، بتهذيب وسائل التعبير العربي وتحبير الأساليب الجديدة للبيان. فمن ناحية، تُذكر كتابة **طه حسين** بتآليف نقاد القرن التاسع عشر الفرنسي، وخاصة منهم النقاد والكتاب، كسانت بوف وغيره، ومن ناحية أخرى، يمتاز **طه حسين**، قياسا إلى هؤلاء، بميزة رائعة : فإذا كان قد حلل الأدب كما حللوه، وصدر عن مفهوم ذاتي للذوق مثلهم، فلقد وفق في عمله هذا، إلى اجتراح عربية سلسة، سهّل تعبيرها تسهيلا جعل كاتبنا يضطلع في العربية بما اضطلع به **كوته** في لسان الألمان، بيد أن طه لم يكتب **فاوست** ولا أغنى الأدب العربي **بالديوان الشرقي**. إلا أن العربية قبل **طه حسين** هي غيرها بعده : كانت حبيسة الأغلال الأزهرية والرطانة التركية حتى لدى دعاة الحداثة والتحديث فغدت بعده عربية حديثة غير منبتة الجذور من أصلها القديم، تغرينا من منبر حداثتها بالتعلق بالأدب القديم واستخراج ما فيه من كنوز. ولهذا الجانب من التأثير

الباقي **لطه حسين**، حسنة على العربية أنقذتها من عثرات المجددين الذي سرعان ما يتحول تجديدهم إلى تقليد، لاجتراره العبارة والأساليب القديمة، التي أصبحت ثوابت تحولاتنا وعائقا من جملة العوائق التي تحجب عنا الكلام الصادق المطابق لمواضيعه، عن حقيقة الأشياء، نفسها. زج **طه حسين** بهذه اللغة في معمعان الحياة الأدبية زجا، مع الوفاء لقواعد اللغة وعبقريتها، واحترام ميدانه، أي ميدان الأدب ونقده، وتاريخه. وكفاه توفيقا وتفوقا أنه أخرج لغة الأدب من سيطرة الطرق المعادة، والأساليب المعتادة والكليشهات التي لاكتْها الألسن حتى الملل. ليس **طه حسين** مجرد دارس ناقد، في مرحلة من مراحل الأدب عبر تطوراته منذ من شهد لهم **ابن خلدون** بالمشيخة إلى من قرأ عليهم **طه حسين** في الأزهر الشريف، مع من سبقوه إلى الكتابة الحديثة مستلهمين مناهج المستشرقين أو مقلدين لجهود جرجي زيدان أو الرافعي أو الزيات أو العقاد أو غيرهم، كلا ! بل هو من بين هذه التطورات نسيج وحده، وإن اتبع غيره في الأفكار والمناهج فهو مستقل السر في تجانس أسلوبه واتساقه وموسيقاه ! ولقد أبدع في الكتابة إبداعا، واخترع للعربية سبلا، لم يكن للغة الضاد عهد بسهولتها. فكان، بفضله هذا، أستاذ الأجيال التي بعده، على اختلاف اهتماماتها. ومدرسته الأسلوبية تتسع سعة الكتابة العربية الحديثة، رغم تشعب مواضيعها واختلافها الشديد. هي لغة واحدة، متجانسة لا تصنفها طبقات الكلام القديمة كما لا تعنى بطبقات الناس، مثلما رآه الجاحظ وغيره من أنماط الماضي البعيد والقريب.

— 2 —

لقد حظي أسلوب **طه حسين** بالشيوع والذيوع، لسهولته التي ذكرنا، ولقدرته على تكييف وتشكيل الملكات، ثم للسبب الذي نتطرق إليه الآن، لاتصاله بالحياة الاعلامية كما نسميها اليوم. نعم، كان **طه حسين**، بأسلوبه، مشجعا على الكتابة، منهضا للعزائم والقرائح والمجهودات. أثره، وهو الأديب الدارس، الأكاديمي الجامعي، أثر رجل الصحافة المشهور، والصحيفة ذات الفعالية والصدى، والاتصال بجمهور من القراء ليسوا بالضرورة مختصين وإخصائيين، والتأثير على النشإ الناهض الجديد، مع طه حسين هو الانعتاق من جمهور لا يرضى بالجديد إلا مكبلا في عباءة العبارة القديمة المكررة تكرارا، وقد نسوا، في سباتهم العميق، أو تناسوا أن اللحن المبدع خير من السليم الميت أو كما قيل :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

واللحن بالتحريك اللغة، فقيل : القرآن نزل بلحن قريش وقيل تعلموا اللحن بالتسكين والمراد اللغة، وقيل عن أبي زياد إنه ظريف على أنه يلحن، فكان الجواب أو ليس ذلك أظرف له. بيد أن **طه حسين** لم ينزع أبدا منزع من يريد ترقية اللهجات واللغات إلى لغات وطنية. فهو يقف مساندا للعربية الأصيلة، معالجة من الورم الذي أصابها : مجددة منعشة مختبرة على محك الواقع المتغير. فاهتدى **طه حسين** عبر الصحف والمجلات إلى جمهور يرضى بالقديم، في العبارات المجزأة التي تاتيه اطرادا في كتابه متناهية فيها إبداع الهذر الخلاق، رغم لحنه لاتصاله دوما بالشارع والمعمل والأرياف، وفيها جزالة الكتابة الفنية، التي تختلف عن حيوية حديث العادة وتمتاز بعبقرية الأسلوب العالي الذي يوثر الأدباء بالعبادة. تلك حقيقة تركبت من متطلبين متباينين ووفقت بينهما. وهذا التوفيق والتجانس المتلائم هو عمل **طه حسين** الغني، وهو عمل لم يقم به قبله أحد غيره من كتاب النهضة، فبفضله أصبح طه حسين عميد الأدب العربي حقا، مادام لهذه اللغة ذكر يذكر، وعميدا لا في معنى العمادة المؤسسية الأكاديمية، بل في مقصد رمزي متعال يصف عهدا جديدا في لغة العرب، عهد أدب العامة والاعلام والصحافة، عهدا كان معنى العمادة فيه، معنى نحن مبتدئين في فهمه، هو فتح صدور الجمهور للأدب الرفيع، أدب جديد أفكاره ظاهرة مكشوفة، وقريبة معروفة، وميزته خفة العبارة ورشاقة التركيب، وأناقة المعاني، وسهولة المباني. واحتفظ **طه حسين،** في تعميم الأدب الذي عرفه عصر الاعلام، برفعة الأدب والشرف الذي احتفظ له به فمداره على موافقة القصد وإصابة الغرض الذي هو تثقيف العوام. فلو أن التعبير العربي الذي بوأه أسلوب **طه حسين** في الأدب والتاريخ، درجة عليا، بلغ ذلك في غير هذه الميادين من حقول الحياة الثقافية والعلمية، لكانت البلاد العربية حققت فوزا بعيد العواقب في مجالات التجديد والتطوير والتنوير. ومهما يكن، فطه حسين حرر العربية من سيطرة قرون حصرت التعبير على الفقهيات حتى أصبحت متونها المتأخرة نموذجا لما كان يكتب، فألفيت العالم، وهو يحفظ الأجرومية والألفية وشروحها، ويعجز عن كتابة رسالة أو أي كتابة مسترسلة، وهو ينتمي للغة القرآن، عقر الاعجاز البياني، طه فك الأغلال فكا، وأخرج العربية من تعمية المراد، لمجرد اختبار الاذهان ومن أجل مفاطنات عقيمة، ومحاجاة غريبة إلى وضوح لغة أساسها التعبير والتبليغ والبيان من أجل الاتصال والفهم والمعرفة المنيرة. وتوظيف البيان لهذه الرسالة الأساسية هو ما تسنى لطه حسين، لطبيعته التي تأبى الانغلاق في ذات النفس، فكان، كما قال في شبابه :

أنـــا لا أعطـــي غرامـــي أبـــــــــــدا كل شؤوني

متفتحا، لا يعطي العبارة كل همه، لأنها، رغم أهميتها الفنية، ليست كل شيء. لذلك لم يزدر الصحف والمجلات، ووسائل الاعلام، بل آثر الحديث إلى الناس الشباب والجمهور قائلا عن حديث الأربعاء إنما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعا فينتفع بها من ينتفع، ويتفكه بقراءتها من يتفكه، فلم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعمق في البحث والالحاح في التحقيق العلمي، لأن الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا «ولا سبيل إلى اعتذار عما في هذه الفصول بالنقص، لأن الأيام تمضي، والظروف تتعاقب، ولا جدوى في شكوى قلة الفراغ، وقد لقيت هذه الفصول من نفوس القراء هوى، كما لا فائدة في النقد «العلمي» حيث حُكِّم القاريء فحكمت رغبته وذوق القارىء معيار ما يقرأ ومقياسه». ويذكر موقف **طه حسين** من النقد العلمي الذي لا يعرف حيث يجب عليه أن يقف وحيث يضطر لاستئناف العناية بما ينوي عرضه على القراء، بموقف الخليفة الرشيد من الأصمعي وهو يقول لراوية العرب : أنت أعلم منا ونحن أعقل منك، فنوشك أن نتصور **طه حسين**، في تواطئه مع الاعلام السليط، وأخذه برأي القاريء ورغبة جمهور القراء، وهو يسخر بالقاريء العالم ويقول له : أنت أعلم منا ونحن أكتب منك، وأمتع للجمهور، وأنفع له وأنجع. لهذا كله ولغيره مما قلناه، أصبح من الضحالة المزمنة اتهام **طه حسين** بالسطحية، لأنه يتجنب العمق تجنب الذوق السليم للتقصير وتبرير الصعب بأصعب منه أو بصعوبة الموضوع كما لو كان الكاتب صورة مطابقة لاصل ما يكتب عنه. فلقد كان في رأيه مصيبا جد مصيب، وكان في مذهبه سواء وعى ذلك أم لم يعه، كاتبا متجاوبا مع متطلبات عصر الاعلام، مستجيبا لمنطقه العميق، مدركا لمقتضيات الوقت، أو كما يقال، لاتجاه التاريخ.

— 3 —

بقي الأدب مع ذلك ومن أجل ذلك رأس اهتمام طه حسين في كل كتاباته. فمهما سلست لغته وسهلت ومهما تواضعت لمنطق الاعلام السيار معتمدا اعتمادا شديدا على الصحافة التي أصبحت الوسيلة الوحيدة، بعد تحديث التعليم للمحافظة على اللغة العربية وحفظ ثقافتها من أن تذوب في اللغات الأجنبية واللهجات، فما كان الكاتب بمُضيع رسالة تبليغ الأدب كأديب يحمل الأمانة بإخلاص ويؤديها بإيمان لصدق اعتقاده في دور الأدب وقدرته على تهذيب النفوس المتمعنة فيه وعلى إقامة الأمور في الحياة الحديثة، لأنه نمط الملاءمة بين القيم والاغراض ملاءمة مجسدة في ملاءمة بين المعاني والألفاظ والأساليب. لا يفهم مجهود **طه حسين** ككاتب خلاق دون اجلاء غرضه وحرصه على ايجاد لغة موحدة وموحِّدة تفرض إطارا تتحول فيه التناقضات والخصومات إلى ظاهرة عادية قابلة للنقاش دائما ودون انقطاع.

آية ذلك أنه أدنى الأسباب بين الشباب الناشيء وبين الأدب القديم لأنه أعطى القديم لسانا حديثا وقدمه، شعرا ونثرا، في أسلوب خاص هو أشد حافز على الاهتمام به، حتى أصبحت دراسة الأدب القديم وسيلة من وسائل إغناء الأدب الحديث، والفكر الحديث، والتعبير الحديث. وتصدى طه حسين لمحاربة القديم وكأنه يحارب التقليد والتغريب في آن واحد، مدافعا عن القديم كمقومة حية، مفسرا له تفسيرا خاصا هدفه درس الأدب القديم وعرضه لغير الاخصائيين والمختصين. وعلى من آخذوه على هذا قائلين : «ما ينبغي لأحد أن يلوم رجلا في العناية بالشعر الجاهلي... مادام في الناس من ينفق الوقت والجهد والمال في جمع طوابع البريد وما يشبهها...» يرد طه حسين، بعد تحليل أسباب اليأس من الأدب العربي القديم، أننا «نحب لأدبنا القديم أن يظل في هذا العصر الحديث كما كان من قبل، ضرورة من ضرورات الحياة العقلية، وأساسا من أسس الثقافة، وغذاء للعقول والقلوب». ويضيف إلى ذلك تعليقا عن موقعه : «إننا لا نحب القديم من حيث هو قديم، بل نحن نحب لأدبنا القديم أن يظل قواما للثقافة، وغذاء للعقول، لأنه أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقوم لشخصيتنا، محقق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على أن نعرف نفسنا». ومن هنا نفهم عمق **طه حسين** في نضاله من أجل أدب حي، شفاف، موصول الصلة بين حديثه وقديمه، لأن تلك الصلة حيوية، مصيرية، ولا يغني خصام القديم للحديث أو مصارعته، أو مقارعته، لأن القديم لا حجة له على الحديث ولا قوة ولا عدة، بل له أن يحتال ويحتاط ويعلم علم اليقين أن التجديد ليس إهمالا للتراث بل إحياء له وبعث في أسلوب سديد. يقول **طه حسين** : «إني أكاد اتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الغربية الحديثة أو لم ينتفعوا بها، فقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أقل ولا أكثر». وهكذا وضع عميد الأدب العربي ما نسميه اليوم «إشكالية» الحداثة في إطار واضح المقصد، وهو أن القديم لا يناقش إلا في إطار الحديث ومشروع التحديث وفهمه فهما لا يقتصر على ملهيات الحضارة ومغرياتها، بل ينفذ إلى مكوناتها الثقافية والعقلية وينتفع بها، وبقدراتها الخلاقة. وبالتالي كان المشكل الأساسي بالنسبة لطه حسين مشكل فهم ومنهاج، لأن أمر الأدب القديم، في رأيه، أشبه بأمر حديقة طال عليها الزمن وعاث فيها نظام الطبيعة فسادا، فغدت تنمو وتختلط وهي في حاجة إلى بستاني يتعهدها، وينسقها وينظمها، حتى تصبح مصدر إمتاع الناظرين بروعتها وجمالها.

— 4 —

زج هذا الاعداد الميسر للأدب بالقديم نفسه خارج محيط العلماء الذين آثروا أنفسهم بعلمهم واحتكروا معارفهم لانفسهم. مع أن رسالتهم تكمن في العمل من أجل

تثقيف العامة والجمهور، والكل في سبيل راحتها وإسعادها، باستخراج زهرات ليست في متناول الجميع، من حدائق قديمة مهملة قادرة على استقبال الجميع والاحتفاء بالجمهور. فالأديب العارف بالأدب الذي طال عليه الزمن وبعد به العهد، فنان، يحكم عليه، ويقوّم عمله كما يحكم على كاتب المسرح ويقوم فن الممثلين في المسرحيات : عبر تحقيق هدفها في امتاع النظارة وتطريب الجمهور وتوفير أسباب الايناس واللذة له. والعالم المحقق، فيما هو يجود بمجهود ييسر ويسهل لعامة القراء ما يكلفه، كباحث مختص، بحثا طويلا بين الكتب والمعاجم، وتنقيبا في المصادر يؤدي رسالته الثقافية فيكشف عن الجمال الكامن فيما كساه الاهمال مظهرا غريبا ويوحي أن المتعة الأدبية شيء يستوجب الامعان والنظر وإعمال الروية ويقتضي عملا عقليا جبارا، تهوينا على القاريء المتنزه وتنبيها إلى أن ما يراه الناس صحراء يراه العالم «حديقة من أجمل الحدائق وأروعها» وشتان ما بين رجل مثل محمود أحمد شاكر، رغم نظراته الثاقبة في عمل المتنبي شاعرا وشخصا، وهو يتحدث عن اخلاط الأمم الذي لا أصل لهم يرجعون إليه ... فطلبت موازين الرجال التي يزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرجولة وكرم العنصر «ثم يتهم **طه حسين**» باستمالة الدهماء إلى فاسد الاراء» أقول شتان ما بينه وبين كاتب يرى في الجمهور مصدر حكم آخر. موقف **طه حسين** في معناه التاريخي ومغزاه، أول مراجعة فعلية لموقف أدباء العرب وعلماء المسلمين في قضية الخاصة والعامة. طرح **طه حسين** هذه القضية طرحا جديدا. يقول الغزالي، وقوله تلخيص لموقف عام شاركه فيه سابقوه ولاحقوه وعبروا عنه بشتى الأساليب والوجوه : إن على المعلمين أن يقتصروا بالمتعلمين على قدر أفهامهم فلا يرقوهم إلى الدقيق من الجلي، وإلى الخفي من الظاهر، ولا يحملوا المتعلم القاصر إلا على ما يحتمله فهمه بدون الاشارة إلى ما وراء الظاهر من أفكار جديرة بالتحقيق وإحالات قمينة بالتدقيق. بالنسبة لطه حسين، حدود التعليم تصنعها القدرة على التيسير، ولا فائدة في علم لم ييسره الوضوح. ولا معنى لمفهوم عدم القدرة عند الصغير، أو عند من هم دون الرشد من عوام الناس. فالعقل رشيد حيثما حل وارتحل. وهنا يبدوا عمق **طه حسين** في مقصده ومرماه، في تبني حداثة ترفض التغريب المتضعضع وتعلو عن التقليد الفاسد. مفهومه للحداثة مفهوم هو الحداثة نفسها، هو مثال الحداثة وقطبها، وأساسها ومركزها : المساواة بين العقول التي لا تختلف، في ترقيها إلى المعارف، إلا بنشاطها في استعمال إمكانياتها الفطرية الحدسية التي يعبر عنها الأدب عبر مفاهيم البيان والوضوح والسهولة. وهو في هذا أشد إخلاصا للروح العقلانية والمناهج الديكارتية منه لما دافع عن مبدإ الشك المنهجي، إذ أن الشك، في ميدان المباحث العلمية والمباشرات المنهجية للمواضيع المختلفة، يجد

أساسه ومشروعيته في إمكان الفهم، وهو التمييز بين الصواب وغيره، وفي إمكانه متساو لدى الجميع، وهذا كله من تعاليم الفلاسفة المحدثين، ومن تعليم بعض القدماء **كابن سينا** الذي يقول إن الله تعالى :

يفـــيض نــــوره على عقولنــــا	**حتى بدا الخفي من معقولنــا**
قــد خلــق بفضلــه الانسانــا	**فضلـــه بالنطـــق واللسانــــا**
وقسم العقـــــل على البريــــة	**والحس والحيـــــاة بالسويـــــة**

الخاتمة

في ضوء هذه الرسالة التنويرية المتفائلة، رسالة التوضيح وتعميم الثقافة، والتسهيل وتيسير المعارف، يكمن سر **طه حسين،** فسره الباقي هو في علاقتنا بالأدب العربي، وعلاقة هذا الأدب بالأبد العربي. في ضوء هذه الرسالة، رسالة ترقية العوام إلى معارف الخواص، نفهم نثره، وفضل هذا النثر في بعث التفكير والتحرير في أسلوب نراه، على خلاف تبلورات صور الشعر، ينطلق حسب تصورات خطية، لا تهدف إلى الفكرة القوية، مع تجنب التعمق والالحاح، تجنب مختار يسرت له مواهبه ما امتنع على غيره من سبل التسهيل الفني، فشق طريقه بعزم وحزم ليقاسم قراءه لذة النص، ويشاطر عامة الناس ما استمتعت به نفسه وطاب لذوقه من جمال. وهو في هذا كله، لا يعنيه الأدب القديم لقدمه وإنما يهمه الأدب القديم لأدبه، مع العلم أن مقياس الأدب الحديث البيان دائما. مذهبه في الأدب مذهب الفنان في فنه، ومذهب الفيلسوف في الحقيقة. الضمير الأدبي الصحيح عنده صلب لا يعرف المرونة، ماض لا يعرف التردد. والأديب وإن تلون في أشياء كثيرة، فهو لا يتلون في الأدب، لأن الأدب غايته، أخلاقه، حقيقته التي من أجلها يموت، ولاجلها يحيا. يحيا في حرية مطلقة لا تعرف حدا ولا قيدا، ولا ترضى عبودية ولا ضيما.

البريسترويكا والامتدادات الآسيوية للاتحاد السوفياتي

عبد العزيز بنعبد الله

بدأت قصة البريسترويكا في أوروبا الشرقية بانبثاق زعيم سوفياتي جريء هو (ميكاييل كورباتشوف) الذي أحرز انتصاراً نادراً في جولته العارمة أدت به في أمد قصير إلى اعتلاء كرسي الرياسة في نظام جديد فقد فيه الحزب الشيوعي هيمنته الاحتكارية. وقد بدأ (گورباتشوف) حملته الهادئة بالسعي في حمل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على تعديل (البند السادس) من (الدستور السوفياتي) الذي يعترف لهذا الحزب الوحيد بالدور القيادي في البلاد، وفي هذا السياق الطريف انطلقت بوادر التعددية الحزبية في الدول التابعة بأوروبا الشرقية وفي الجمهوريات الاتحادية المنضمة إلى الكتلة السوفياتية، والواقع أن الجماهير الشعبية شعرت هنا وهناك بالتحرر من قيود خانقة سمح لها بالتخلص من الكبت والتعبير ـــ في مظاهرات جماعية ـــ عن إرادتها الانفصالية التي تكلل لا محالة بالاستقلال ؛ فلننظر إذن كيف تعمل الجمهوريات السوفياتية الخمس عشرة للاستفادة من «فك الوصلة» هذه لتحقيق طموحها إلى استقلال طبع دوما مسارها التاريخي ؟ وكيف تواجه ما اختلف من تداخل بين القوميات ومن بؤر مفتعلة للتوتر ؟

إن انصباب آثار التحولات التي عرفتها أوروبا الشرقية على آسيا تمس قبل كل شيء مشكل الأقليات القومية والدينية، ففي أوروبا نفسها تشكل الأحداث الدامية الناتجة عن هذا المشكل في (رومانيا) خطراً جوهريا على مجموع أوروبا الشرقية في عهد ما بعد النظام الشيوعي، وانبعاث المشاكل القومية في (البلقان) سيزداد استفحالا بسبب اشتداد الأزمة الاقتصادية. فهنالك نزاعات عنيفة بين (هنغاريا) و(رومانيا) حول مصير وحقوق مليونين من (الرومانيين) من أصل (مجري) يعيشون في (طرانسيلفانيا) التي ضمها الاستعمار قسراً لرومانيا بعد الحرب العالمية الأولى. ويوجد في (بلغاريا) ما يناهز

المليون نسمة من أصل (تركي) كلهم مسلمون أدت ضغوط (بلغارية) على عدد منهم للهجرة إلى (تركيا) بسبب منعهم من حمل أسماء إسلامية واستعمال لغتهم القومية وأداء شعائرهم الدينية. ولعل (بلغاريا) تتذكر القرون الخمسة التي قضتها تحت الحكم العثماني. وهنالك مراكز توتر أخرى مثل (يوغوسلافيا) التي يحتدم فيها الصراع القومي بين (السربيين) و(الألبانيين) في مقاطعة (كوضوفو) وكذلك مقاطعة (سيليزيا) في (بولونيا) التي كانت خاضعة لألمانيا إلى عام **1945** حيث يعيش حوالي أربعمائة ألف نسمة من أصل (جرماني).

وهذا الوضع يثير اليوم صراعاً حادا بين القوميات في القارة الآسيوية :

إن (القوقاز) الذي ينتمي إليه (ڤوورباتشوف) يتكون من سلسلة جبال تمتد بين (البحر الأسود) و(بحر قزوين) حيث يرتفع مستوى الأرض عن سطح البحر بأقل من ألفي متر وحيث تتفجر براكين تعيش حولها شعوب تشكل فسيفساء من الجنسيات والسلالات في نطاق جمهوريات (أرمينيا) و(أزربيدجان) و(جيوركا). وقد قطعت بكيفية عشوائية أوصال الجمهوريتين الأوليين منذ عام **1920**، الأمر الذي أثار موجات من الاحتكاكات أو الحروب السلالية بين الأرمينيين والأزربيذجيين الذين كانوا يعيشون قبل الثورة السوفياتية في ظل جوار وديع يحتفظ لكل سلالة بميزاتها.

والجمهورية الأرمينية التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف نسمة هي أصغر الجمهوريات الثلاث، وعاصمتها هي (أيروفان) سكانها مليون وثلاثمائة ألف نسمة، في حين يبلغ عدد سكان (أزربيدجان) ضعف ذلك (ستة ملايين وثمانمائة ألف نسمة) في مساحة تقدّر بثلاثة أضعاف : **86.600** كلم² وكلهم مسلمون شيعة يتكاثف ويتزاحم زهاء ثلثهم في عاصمة (باكو). وقد أدى التقطيع الاعتباطي لهاتين الجمهوريتين إلى تسميم الأجواء التي ظلت صافية طوال قرون بسبب إقحام مقاطعة (ناكورني كاراياخ) عام **1223** داخل التراب الأزربيدجاني وأغلبها أرمينيون، في حين أقحمت مقاطعة (ناخيتشوفان) ونصفها (أزربيذجينيون) داخل تراب (أرمينية) التي أصبحت تطالب تحت ضغط عوامل الصراع القومي الديني باستعادة (ناكورني كاراياخ). ومما يزيد هذه الاحتكاكات حدة وخطورة متاخمة القسم الأزربيدجاني المقحم في أرمينية عام **1224** لحدود كل من (تركيا) و(ايران)، مما شجع (ناخيشوفان) على اعلان الانفصال عن الاتحاد السوفياتي. أما جمهورية (تادجيكيستان) الواقعة بآسيا الوسطى فإن حدودها تتاخم (الصين) و(أفغانستان) في مساحة تبلغ **143.000** كلم² يتأرجح في بحبوحتها أربعة ملايين ومائة ألف نسمة (عاصمتها

دوشامبي)، وقد عرفت هي الأخرى منذ يونيو 1989 أحداثا قومية دينية «بينسلالية» وهم مسلمون ينتمي ستة وخمسون في المائة منهم للسلالة الايرانية. وفي هذه البقاع نشأ وترعرع رجالات أفذاذ أثروا الفكر الانساني أمثال (ابن سينا) و(عمر الخيام) و(حافظ) كما أسهموا خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين في ازدهار «طريق الحرير» مع أوروبا و(بيزانس) و(الهند) والصين) وقد انضمت هذه المنطقة في القرن العاشر الهجري إلى (خانات بخارى) ثم إلى الامبراطورية الروسية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وانفتح في أكتوبر 1917 عهد الصراع بين (تادجيكيستان) والسوفيات الذين لم يستطيعوا الهيمنة عليها إلا عام 1929.

وهنا أيضا تتصارع أربع سلالات تشكل 40 في المائة من السكان خضعت أيضا لتقطيعات بين المراكز الترابية للسلالات منها (أوزبيكستان) وعاصمتها (تشكنت) حاضرة (بخارى) التي ينتمي إليها الامام البخاري وكذلك (سمر قند) مسقط رأس (تيمورلنك).

والسلالات الثلاث الأخرى هي :

— (أوكرانيا) وعاصمتها (كييف) (خمسون مليونا وثلاثمائة ألف نسمة) ثرية اقتصاديا، تنتج وحدها من القمح والفولاذ ما تنتجه فرنسا ومن الفحم ما يعادل المنتوج الألماني وقد استحالت عام 1918 إلى جمهورية وانضمت بعد أربعة أعوام إلى الاتحاد السوفياتي وكانت قد انفصلت عن تركيا العثمانية منذ عام 1664م.

— (كيرغيزستان) ينيف عدد سكانها على ثلاثة ملايين ونصف، وقد اندرجت عام 1936 في فلك الاتحاد السوفياتي.

— (تركمينيستان) (سكانها ثلاثة ملايين من التركمان) وهم أقرباء من الأتراك يندمجون في شعبي أفغانستان وايران وهي تشكل مع (كازاخستان) و(كيغييزستان) و(أوزبيكيستان) و(تادجيكستان) آسيا الوسطى المعروفة بـ (تركستان) تقابلها (تركستان) الصينية المسماة بـ (سنكيانج) المتاخمة أيضا لـ (فيرجينيا السوفياتية المسلمة) وأفغانستان وباكستان ويعيش فيها عشرة ملايين من المسلمين. وإذا كان (لينين) قد شعر بالخوف من فورة الاسلام أكثر مما خشي فورة الرأسمالية فإن هلع القيادة الصينية اليوم لا يقل عن مخاوف السوفيات وغيرهم ممن يحسب للاسلام حسبانه إذ يعيش الجميع هاجس ثورة الأقليات القومية والدينية التي تخشى أن تشكل تحولا خطيرا في استراتيجية القوى الاسلامية، لا سيما وأن هذه المناطق عبارة عن كتلة جغرافية تجمعها رابطة الدين

وهي أولى المناطق التي يشهد تاريخ الثورات بأنها تمردت ضد النظام الشيوعي. وقد كانت روح الثورة لحد الآن كامنة تحت الرماد في معظم هذه الجمهوريات ضاعفت من حدتها ولأوائها تقطيعات سلالية وأزمات اقتصادية خلقت خمسة ملايين عاطل من (التادجيكيين) وحدهم وخصاصة خانقة في المواد الحيوية الضرورية، ففي عام 1986 بلغت نسبة هؤلاء العاطلين 25,7 في المائة في هذه الجمهورية المتاخمة لأفغانستان التي تخوض اليوم حربا ضروسا ضد النفوذ الشيوعي ولهذا لم يتردد الاتحاد السوفياتي في تحريك دباباته لاخماد ثورات وصفت حقا بأنها ضد الروس وان كانت توضع أيضا في لبوس احتكاكات قومية ودينية واجهتها كتائب الجيش الأحمر المكونة خاصة من (رديف الصقالية) وأحيانا من كتائب مرتزقة (أرمينية) يزج بها ضد قوات (أزربيذجان) التي أصبحت تنادي بالانفصال وبتكوين (أزربيذجان مسلم) حسب عبارة (ميخاييل ݣورباتشوف) نفسه.

والواقع أن الشعب (الأزربيذجاني) — إذا اتخدناه مثالا فقط لبقية الشعوب المسلمة في المنطقة — قد هب عن بكرة أبيه كما هب شعب الدول البلطية الثلاث في أوروبا من أجل الانفصال والاستقلال ففي مرسى (باكو) هدد قواد نحو الخمسين باخرة من حاملات البترول بنسف مراكبهم وتحطيم أرصفة محافر النفط إذا لم يغادر الجيش الأحمر البلاد ويترك الأمر لأهله وذويه الذين أحرقوا بطاقات الحزب الشيوعي ونُصب أمجاد (لينين) ولوحوا بالرايات والألوية القومية ولافتات كتب عليها حسب صحف سوفياتية عبارات مثل هذه (أفغانستان تعادل أزرابيذجان). وقد التحق جنود (أزربيذجانيون) حاملين أسلحتهم وعددهم بصفوف الوطنيين، كما شوهدت تجمعات أرمينية بلغت نحو السبعين ألف شخص في عاصمة (ايروفان) وحدها متظاهرة ضد حالة الطواريء المعلنة في منطقة (كوريس) شرقي (أرمينية) حيث تنادي جماهير الشعب ضد ما سمته بـ (بيريسترويكا الدامية) ولم يتخلف الوزير الأول الأزربيدجاني الذي نصبه الشيوعيون عن التعبير عن عزمه نهج سياسة تؤدي إلى إقرار سيادة واستقلال (أزربيدجان) في نطاق النظام والسلام دون أية فوضى. وقد هدد (ماميدوف) الذي كان يحرسه فوج من (الازيريين) بأن (أزربيذجان) قد تتحول إلى (أفغانستان ثانية) في معارك فدائية ضد جنود السوفيات.

كل ذلك رددته الصحافة الشيوعية الرسمية في (موسكو) وأحاطته بهالات مرعبة حدت (ݣورباتشوف) إلى الدعوة لعقد دورة طارئة للكريملين لمواجهة هذه الحالة المأسوية التي لم يسبق لها نظير في (القوقاز) مسقط رأس رئيس الدولة الجديد. ولعل

(ڭورباتشوف) يرغب في اظهار قوته بعد اعتلائه أريكة الرياسة كما يرغب في أن يظهر للمجتمع الدولي أنه قابض على زمام الأمر، والواقع أن الوضع في هذه المنطقة بالذات أصبح خاضعا نوعا ما لما يسمى بـ (المجلس الوطني للدفاع) المنبثق عن (الجبهة الشعبية) لازربيدجان. وقد أصبح (ڭورباتشوف) يواجه بالاضافة إلى هذا التأزم الاقتصادي والسياسي الداخلي خطرا خارجيا لأن (الأزربيذجيين) بدأوا يتحركون في مواطنهم المختلفة خارج البلاد حيث يعيش خمسة ملايين منهم في (إيران) وحدها على أن المسؤولين السوفيات يتحاشون تجميد الوضع راغبين في تجديد الوصلة بالوطنيين تحاشيا لانتفاضة من طراز (انتفاضة أفغانستان). وقد أكد الملاحظون في (موسكو) أن هذه الرغبة تشكل الهدف الأساسي لمسئولي (الكريملين). وليس معنى ذلك أن الكل موافق على هذا الاتصال لأن الكثير يرفض فكرة مفاوضة الحركات القومية التي يخشى البعض أن تتمخض عن تصدع في الاتحاد السوفياتي وهو الأمر الذي يقض مضجع (قائد الكريملين) الذي يعترف هو نفسه بأن (البيريسترويكا) «تمر بمرحلة صعبة حاسمة».

نعم إن (ڭورباتشوف) في موقع حرج لأنه يواجه تحركات انفصالية شرقا وغربا لا يريد أن يواجهها بقوة رادعة صارمة وان كانت الملابسات تختلف في (الشرق) عنها في (الغرب). ومع ذلك فإن (ڭورباتشوف) يخشى عدوى الانفصال فيواجه حركة (الليتوانيين) في قلب أوروبا بالرفض الصارخ واصفاً إياها بعدم المشروعية ملاحظا أن الانفصال عن الاتحاد السوفياتي ليس من اختصاصها البت فيه، كما رفض في البداية فكرة المفاوضات التي لا يمكن تصورها إلا مع دول أجنبية، في حين أن (ليتوانيا) «جزء لا يتجزأ من الاتحاد السوفياتي» — حسب تعبيره — ومع ذلك فقد دعت كل من (ليتوانيا) وشقيقتها (ايسطونيا) إلى اجراء مفاوضات مع الكريملين في شأن الاستقلال، غير أن الاتحاد السوفياتي يود ربح الوقت حتى يصدر قانون يحدد مسطرة الانفصال ضمن اجراءات معقدة تمتد خمسة أعوام وتستلزم من بين مقتضياتها أداء تعويضات باهظة لموسكو مع ترك الكلمة الفاصلة آخر الأمر لمؤتمر (نواب السوفيات) حسب نص المشروع المعروض الآن. غير أن الجانب (الليتوني) يرفض الانصياع لهذا القانون الذي لا يصح الالتزام به — كما يقول — إلا بالنسبة لجمهورية سوفياتية في حين أن (ليتوانيا) قد تم اخضاعها بالقوة عام **1940** للانضمام إلى هذا الاتحاد مما حدا الكثير من الدول إلى عدم الاعتراف بها فهي لا تعدو في حركتها الهادفة إلى الانفصال العمل على استرجاع حقوقها المفقودة .

ولعل استقلال أوروبا الشرقية لا يثير معارضة سواء بأوروبا الغربية أم بالولايات المتحدة الأمريكية، في حين نجد الولايات المتحدة تعبر عن معارضتها لانفصال

(أزربيذجان) السوفياتية مطالبة بنهج أسلوب الحوار بين الجانبين. ولعل الاشارة إلى ضرورة الحوار، يؤدى بأن الولايات المتحدة تخشى مغبة استعمال العنف في المنطقة لاسيما وأن المسئولين الايرانيين قد أقنعوا السوفيات ـــ حسب اذاعة ايران ـــ بضرورة عقد اجتماع في (طهران) لمناقشة الوضع في (أزربيدجان). ويظهر أن موسكو قد تلقت بقبول تام اقتراحا قدمه بهذا الصدد سفير (ايران) في موسكو لا سيما بعد أن جعلت (ايران الكريملين) أمام مسئولياته ضد كل قمع للمسلمين الشيعة في (ازربيذجان) مما قد يثير ردود فعل حادة في العالم الاسلامي (طبقا لعبارات وكالة «إيرانا» الاخبارية الايرانية). على أن آلاف (الازيريين) السوفيات بدأوا يخترقون الحدود لأداء صلاة الجمعة في (إيران). وقد عقد (مجلس الأمن الوطني بايران برياسة علي أكبر هاشمي رفسنجاني جمعا خارقا لدراسة الوضع في (أزربيذجان) في الوقت الذي كانت المعارك مستعرة بعد دخول فصائل الجيش الأحمر إلى (باكو). كما درس المجلس شريط الحدود الفاصلة بين ايران والاتحاد السوفياتي متخذاً عدة قرارات لم يعلن عنها بعد. وقد أكدت جريدة (ايزفستيا) السوفياتية أن (الأزيريين) الايرانيين يمدون بالسلاح إخوانهم في (أزربيذجان) المحتلة.

تلك حالة تثير مخاوف شديدة لدى الروس، وقد أبرز (يازوف) عضو الكريملين خطورة الوضع في الحدود الجنوبية مع ايران وتركيا. ومهما تكن حالة الهدوء الظاهرة الآن فان مستقبلا قاتما يهدد بالانفجار في منطقة تنتقل فيها عدوى الثورة بسرعة خارقة رغم ثنائي الأطراف، لا سيما وأن (ليتوانيا) ـــ وهي واحدة من الجمهوريات السوفياتية الخمس عشرة ـــ قد أجرت انتخابات حرة نجح فيها المطالبون بالاستقلال وانطلقت لتأييدها أفواج من شعب (أوكرانيا) (كييف) في قلب الاتحاد السوفياتي، ولعل (الكريملين) بقائده الجديد يوجد اليوم أمام اختيار صعب، ومع ذلك فقد تجرأ على اتخاذ اجراءات تؤكد سلطة السوفيات على (ليتوانيا) واجهتها هذه عن طريق رئيسها المنتخب بأن هذا الموقف لا يرتكز على أسيسة قانونية وإلى المصالح المشروعة للاتحاد السوفياتي، يجب أن تحدد في مفاوضات.

وتتوالى تصريحات المسؤولين في موسكو حول ضرورة اشراف (وزراء الاتحاد) على المؤسسات (القائمة داخل ليتوانيا) وخاصة منها المراكز النووية والمرسى الاستراتيجي في (كالينينغراد) حيث يرابط الأسطول الحربي لبحر البالطيق، وتريد موسكو أن تظل في نطاق احترام الحريات حيث أكدت في تصريح رسمي احترام إرادة الشعب (الليتواني) الهادفة إلى اصلاح المجتمع وتعزيز سيادة الجمهورية، إلا أن تحقيق هذه المهمة لا يمكن أن يتم إلا ضمن احترام المشروعية الدقيق في الاتحاد السوفياتي».

وبالرغم عن هذا وذلك فإن (ليتوانيا) وجارتها (ايسطونيا) سائرتان في طريقهما الديموقراطية رغم التهديدات الليتوانية فقد وجهت (ايسطونيا) هي أيضا خطابا إلى (ڭورباتشوف) تطلب فتح مفاوضات حول استقلال هذه الدولة (البالطية). كما اتخذ المجلس الأعلى فيها عدة أجراءات لبلورة المطالبة بالاستقلال، وقرر احداث سبعة وثلاثين مركزا على طول الحدود للحد من الصادرات غير المراقبة، وقد ألغت الدورية المحلية الكبرى من شاراتها صفة (السوفياتية) حاملة منذ اعلان الاستقلال اسم (صدى ليتوانيا)، وهكذا يجد (ڭورباتشوف) نفسه أمام اختيارين كلاهما جد صعب : فإما مواصلة المسار الديموقراطي الذي جرؤ على إعلانه أمام تصفيفات العالم واما الاختيار العسكري الذي حاول في البداية تحاشيه مع المناداة بالشعارات الكلاسيكية الشيوعية تهدئة بخصومه، بل إن ڭورباتشوف حاول أحيانا السبح في أجواء فلسفية عليا في عبارات غامضة فرارا من الواقع المر. فقد أكد أن احتمال الطلاق والفصل بين الزوجين لا يستلزمان التساؤل هل كان الزواج قانونيا أم لا ؟ ولعله يشير بذلك إلى أنه اذا كانت (ليتونيا) قد تم احتلالها بكيفية غير قانونية فإن مسطرة انفصالها عن الاتحاد السوفياتي يجب أن يخضع لاجراءات مشروعة. وتتضاعف حيرة الرئيس السوفياتي بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة التي يعيشها الاتحاد السوفياتي والتي تؤثر في شعوبه أكثر مما تؤثر منجزات (ڭورباتشوف) السياسية، فلذلك يستعمل الاتحاد السوفياتي في تعقيباته وردوده عبارات تترك الباب مفتوحا إزاء الحكومة الليتوانية لا سيما وأن (ايسطونيا) نفسها قد أصبحت بعد الانتخابات الجديدة تحت نفوذ الهيآت المطالبة بالاستقلال مثل (الجبهة الشعبية) والحركات الأخرى التي تملك مائة وخمسة مقاعد في البرلمان الجديد. في حين أن أنصار السوفيات لم يعد لهم سوى ثمان عشرة مقعداً، وإن كانت هذه الأقلية الشيوعية قد بدأ تحريكها في ظل الجيش الأحمر داخل تراب (ليتوانيا)، ولعل الوضع لم يتأزم كثيرا بسبب مواقف دول عظمى تعارض استعمال القوة وتدعو إلى الحوار.

ولكن ذلك كله لم يمنع السوفيات من اظهار نوع من الهدوء بخصوص الجمهوريات الآسيوية شاعرين بأنهم في مأمن من ردود فعل محتملة قد تنطلق من الأعضاء الخمسة الدائمين في المجلس التنفيذي بالأمم المتحدة، لأن المشكل في ابعاده الدولية يمس على الأقل بريطانيا العظمى والصين بسبب وجود الحركة الانفصالية الايرلندية وامكان انتشار عدوى الانفصال بين القوميات الدينية الخاضعة للصين لا سيما في (اسنكيانج) التي تنفعل بقوة لما يجري في أفغانستان وباكستان المجاورتين. على أن

الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها التي كانت ردود فعلها حادة إزاء تصرفات الاتحاد السوفياتي في (ليتوانيا) والتي أكد مجلس شيوخها مساندته لاستقلالها بل واستعداد الرئيس (بوش) لفتح سفارة في عاصمتها قد أكدت على لسان ممثلتها في منظمة الأمم المتحدة ــ معارضتها لانفصال (أزربيدجان) عن روسيا معللة ذلك باعترافها منذ عام 1933 بالوحدة الترابية السوفياتية.

غير أن الخطوة الحق تكمن على الصعيد الدولي في كون الحركة تُهدِّد باجتياح مناطق نفوذ أخرى للشيوعية في آسيا حيث حطم (تمثال ستالين) في (مونغوليا) بقرار من المكتب السياسي للحزب الشعبي الثوري المنغولي، وهي خطوة أولى ــ كما تقول (أونان) لسان الحزب الوحيد الحاكم منذ عام 1969 ــ نحو تصفية قرن سياسي. وقد قرر البرلمان المنغولي الغاء البند 82 من الدستور الذي يخول الهيمنة للحزب الوحيد كما قرر إجراء انتخابات حرة وضمان حقوق الانسان. وتتوالى من التبعية لمذهبية ستالين مؤتمرات حركات تحررية أخرى، مثل (التجمع الديموقراطي المنغولي). وفي (أفغانستان) نفسها نادى الرئيس (نجيب الله) أمام البرلمان بإحالة الحزب الشيوعي إلى (حزب شعبي ديموقراطي أفغاني) يتخذ من مبادىء الدين الاسلامي وتقاليد المجتمع الأفغاني أسيسة لمذهبه، كل ذلك تزلفا للمجاهدين الذين انضم إليهم الجنرال (شبال نواز تاناي) زعيم الانقلاب الأخير في (أفغانستان) الذي أكد من جهته أن ثورته كانت ضد الاتحاد السوفياتي.

وإذا كان للعوامل الاجتماعية والاقتصادية أثرها الفعال في طبع هذه الثورة العارمة ضد الفكر الشيوعي الذي برهن عن قصوره، فإن الأمر قد تأكد فعلا بسبب انهيار (الكوميكون) وهو (مجلس التعاون الاقتصادي) الذي أنشيء في عام 1949 والذي كان يضم سبعة من أعضاء (حلف وارسو) بالاضافة إلى (كوبا) و(الفتنام) و(منغوليا). وقد شعرت (ليتوانيا) بهلهلته فانعزلت عنه منذ 1961. على أن مجموع دول العالم الثالث قد عبرت خلال تجمع لها في (باريس عن خوفها إزاء ما يجري في أوروبا الشرقية رغم تقديرها لعوامله التحررية من فقدان بعض الموارد التي كانت تساعدها على فك ديونها وضمان تطورها وذلك بسبب تغيير اتجاه المساعدات المالية العربية الجديد نحو أوروبا الشرقية.

على أن دول أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا عازمة على اثارة الموضوع بشكل جماعي خلال دورات (البنك العالمي) و(الرصيد النقدي الدولي) (F.M.I.) بواشنطن

لأن مساعدات مالية بدأت تنصب نحو أوروبا الشرقية علاوة على استثمارات أمريكية وأوروبية ـــ صرح بذلك الرئيس الزنبابوي) للجنة التابعة للمؤسستين المذكورتين وقد أثار هذا التحول مناقشات في (رابطة الدول الأوروبية .C.E.E) نفسها، حيث تخشى بعض العواصم انخفاض الأقساط المخصصة للمناطق الأكثر خصاصة في الرابطة أو لأقطار العالم الثالث، لا سيما وأن اللجنة المختصة في الرابطة قد اقترحت منح دول أوروبا الشرقية ـــ لتعزيز ديموقراطيتها وأسواقها ـــ خمسمائة مليون (إيكُو) عام 1990 ترتفع إلى 850 مليون عام 1991 وإلى مليار عام 1992. وهذه المبالغ تطابق تقريبا ما تقترحه اللجنة لفائدة دول مجموع البحر الأبيض المتوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا، كل ذلك استجابة لأغلبية دول الرابطة التي تفضل تركيز مساعدتها لفائدة أوروبا الشرقية.

وهنالك أثر آخر يتسم بطابع سياسي أعمق نتيجة سياسة «تغريب أوروبا الشرقية» فقد قرر الوزير الأول في ألمانيا الشرقية ـــ على سبيل المثال ـــ التنازل لزميله (الرئيس الاسرائيلي شامير) عن عدة مطالب اسرائيلية وفتح محادثات لحل المشاكل الناتجة عن نهب النازية لأموال اليهود التي أحالها الألمان إلى ملكية للدولة، على أن حركة تجديد الاتصال بدولة اسرائيل بدأت تنتشر مما قد يؤدي إلى تقلص أبعاد الرابطة بين دول أوروبا الشرقية ودولة فلسطين، لاسيما وأن الروس فتحوا الباب على مصراعية لهجرة اليهود السوفيات إلى اسرائيل مما أحدث بلبلة زادت الوضع تأزما. ولعل كل هاته العناصر قد تواكبت في أذهان أولئك الذين يحركون خلفيات السياسة الدولية خاصة بعد لقاء (مالطة) وما أثير حوله من وجود أوفاق سرية، ومع ذلك فإن الرئيس (ياسر عرفات) المومن بحقه وبعقلانية مسعاه أكد أن هذه التحولات لا تؤثر في شيء إذ استثنينا عامل هجرة اليهود السوفييت ـــ على موقف (منظمة التحرير الفلسطينية) في المفاوضات المحتملة مع إسرائيل، لأنها في الحقيقة «تحولات خدمت القضية الفلسطينية بتأكيدها لحق الشعوب في تقرير مصيرها وفي حقها في الديمقراطية والحرية»، إننا نعيش مع ذلك فترة ترقب يجب أن نكون فيها يقظين !!

أحاديث الخميس

ننشر فيما يلي عدداً من أحاديث الخميس
التي يلقيها السادة الأعضاء المقيمون خلال الجلسات
العادية في مجالات اختصاصهم، بعد أن تولوا مراجعتها
واعدادها للنشر تعميماً للفائدة منها.

أخبار وتراجم مغربية
في معجم السفر للحافظ أبي طاهر السِّلَفي

عبد الوهاب بنمنصور

في بحث سابق، كنتُ تحدثتُ بإيجاز عن الأخبار المغربية التي توجد في كتب مشرقية، وعن شخصيات من المغرب لم تُعرف به بالمرة وعُرفت بالمشرق، أو انقطع الحديث عنها في أوطانِها الأصلية منذ انتقلتْ منها إلى الأقطار المشرقية وطارت شهرتها فيها وكثُر عطاؤها بها وصار لها هناك ذكر يُذكَر ورأي يسمع.

واليومَ أريدُ أن أُعطيَ صورةً ناطقةً ومُعبرةً عما أوجزتُه من قبل، وذلك بالحديثِ عن شخصيات وأخبارٍ مغربية مستخرجة من كتابِ معجم السفر للحافظ أبي طاهر السِّلفي.

وقد سبقني إلَى مثل ما أنا بصدده هنا، الأستاذُ المحققُ الكبيرُ، الدكتور إحسان عباس الذي استخرج من المُعجم المذكورِ أخباراً وتراجمَ تتعلق بجارتنا الشمالية، نشرها في كتابٍ سمَّاه «أخبارٌ وتراجمُ أندلسية»، وكم كنتُ أتمنَّى منذُ اطلعتُ على هذا الكتاب المنتخَب أن تَسنحَ لي فرصةٌ للاطلاع على المعجم المنتخَبِ منه، والذي كنا نسمع باسمه فقط ولانراه بعينه، لأنتخبَ منه بدوري أخبارَ أقطارِنا المغربية وتراجمَ رجالِنا، فأضيفُ اليها التراجمَ والأخبارَ التي اقتطفَها الأستاذ إحسان عباس فيتكونَ من مجموعِها أخبارٌ وتراجمُ مغربيةٌ شاملة.

ولا بدَّ ــ قبل أن نسوقَ نبذاً من التراجم والأخبار التي تعنينا من هذا المعجم من أن نتحدثَ بإيجاز عنه وعن صاحبه.

أما صاحبُ المعجم، فهو أحمد بن محمد سِلَفَه، المشهورُ بكنية أبي طاهر،

والمعروف بالسّلَفي، نسبةً الى سِلَفَه التي معناها بالفارسية ذو الشفاه الثلاث، لأن جده الثالث كان ذا شفةٍ مشقوقة، أو إلى قرية سِلَفه بالبلاد الفارسية.

وُلد بأصبهان سنة 478 على الأرجح، وبدأ يطلب العلمَ بها وهو ابنُ عشر سنين، وبدأ الناسُ يأخذون عنه وهو في سن الرابعة عشرة التي ألَّف فيها معجماً لشيوخه الأصبهانيين الذين يزيدون على ستمائة شيخ، ثم رحل إلى بغداد سنة 493، فقرأ على عدد من علمائها وعمِل لهم معجماً كبيراً[1]. ثم ذهب إلى الحجّ، فسمع في طريقه من علماءِ الكوفةِ كما سمِع من علماءِ مكةَ والمدينة، وبعد الحج أخذ يتجولُ بمدن فارس والعراق، نازلا بالأربطة، آخذا عن الشيوخ، معتنياً بعلم الحديث بصفةٍ خاصة، وأخيراً دخل دمشقَ وحواضرَ الشام، حتى ألقى عصا التسيَار سنة 511 بثغر الإسكندرية الذي تزوج به وأقام فيه بصفةٍ مستمرة حتى توفي سنة 576 هـ لم يخرج منه إلا مرةً واحدة إلى القاهرة التي روى فيها عن علمائها واشترى من كُتبيها كتباً كثيرة.

وفي الاسكندرية التي هي بابُ المغرب إلى المشرق، وبابُ المشرق إلى المغرب، والتي أقام فيها خمساً وستين سنة من غير انقطاع، يُعلمُ الحديثَ وفقهَ الشافعي ومسائلَ الخلاف في المدرسة الصالحية وفي المدرسة التي بناها له العادلُ ابنُ السلاوي ظهرت شخصيةُ أبي طاهر السِّلفي العلمية وتأكدت مكانته وسارت شهرتُه في الآفاق كل مسار، وأقبل عليه الطلبةُ من كل حدب وصوب يسمعون منه العلم ويأخذون عنه مختلف الفنون، لاسيما علمَ الحديث الذي برز فيه وتفوّق، واعتُرف له فيه بعلو الكعب وطول الباع حتى لقّبه معاصروه ومَن جاء بعدهم بالتبع بمحدث الدنيا.

وفي الاسكندرية أيضاً كان يَلتقي بالرجال الذين يَردون عليها براً أو بحراً من آفاق الشام والمغرب والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط أو يَصدُرون منها براً وبحراً اليها، فكان يحادثهم إذا كانوا من أقرانه، أو يُحدّثُهم إذا كانوا دون ذلك، كل ذلك وهو لا يَغفل تسجيل ما يسمع منهم من فوائدَ في جذاذات كما يفعلُ استاذنا محمد الفاسي أمتعنا الله ببقائه.

من هذه الجذاذات تألف «معجم السفر» الذي خصصه لمن لقِيَهم من الناس من غير أهل أصبهان وبغداد، أولئك الذين خصهم بمعجمَيْن آخرَيْن أحدهما غيرُ معروف اليوم، وهو معجم عظيم الفائدة اعتمده عديدٌ من الذين كتبوا في الجغرافيا والتاريخ

---

(1) اسمه (المشيخة البغدادية)، وهو محفوظ في مكتبة فيض الله أفندي بمكتبة ملت باستنبول تحت عدد 532.

والحديث على الخصوص، ويظهرُ أنه لم يحرزْه في صيغته النهائية، وإنما جمع جامع فيه ما عثَر عليه من جذاذاته وتقاييده، لذلك يحسّ القارىء بنقصٍ فيه وخللٍ في الترتيب، ويظهر أن هناك نسخاً أكمل من النسخة الوحيدة التي وصلتْنا، لأن من المؤلفين مَن نقل من «معجم السفر» نبذاً ليستْ واردة في النسخة التي بين أيدينا كما تدلُّ على ذلك مطالعة كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي.

أما طريقة أبي طاهر في سوق الأخبار وتسجيل الفوائد فهي طريقةُ المحدثين، اذ يبدأها حسب مفاهيمهم ومصطلحاتهم اللفظية : بأخبرنا أو حدثنا أو سمعتُ من فلان أو فلان، ثم يورد الفائدة العلمية أو القطعة الشعرية أو الخبرَ التاريخي، وبعد ذلك يتحدث عن المخبر أو المحدث أو المسموع منه أو المنشد فيقول : فلان هذا فيسوقُ بعضَ أخباره وصفاته، ويذكرُ بلده ومولدَه ووفاتَه ولا يَغفُلُ عن الاشارة الى مَن يُشبهه أو يختلف معه في النسبة والصفة.

وقد بقِيَ «معجم السفر» قليلَ التداول، يُسْمَعُ به ولا يُرَى إلا في النادر القليل، وأول من أدخله إلى المغرب هو الشيخ عبد الحي الكتاني الذي انتسخَه من دمشق، ونُسختهُ هي التي آلت الى الخزانة العامة بالرباط حيث هي محفوظة فيها مع الكتب التي صادرتْها الدولة، وعلى هذه النسخة أعتمد، وقد رأيت في آخر نشرةٍ لمعهد المخطوطات العربية بالكويت أن الكتابَ طبع أخيراً بالهند.

ولا يفوتُني أن أشيرَ إلى أن السِّلفي خصه الأقدمون والمُحْدَثُون بدراسات وترجمات منها السطحي ومنها المعمق، فقد عرف به ابنُ خلكان في «وفيات الأعيان»، وابن الجزري في «طبقات القراء»، وابن العماد في «شذرات الذهب» وأحمد المَقْري في «أزهار الرياض»، وآخر دراسة عنه هي التي عمِلها الدكتور حسن عبد الحميد صالح وطبعها ببيروت سنة 1977 تحت عنوان (الحافظ أبو طاهر السِّلَفي).

وبعد هذه العجالة في التعريف بمعجم السفر وصاحبه آن الأوانُ لنقل بعض ما ورد فيه من أخبار عن المغرب الأقصى فقط، مُرجئين الحديثَ عن الأخبار والتراجم المتعلقة بالمغربَيْن الأوسط والأدنى والأندلس وجزيرة صقلية إلى مناسبات أخرى إن شاء الله.

ص : 42

سمعتُ أحمد بن الحسن بن علي ابن الأمير الزرهوني بالاسكندرية يقول : رُؤِيَ العتبي في يوم صائف وهو يتفصد عرقا فسُئِل عن حاله فقال :

حوائج إخوان أريدُ قضاءَها كأني إذا لم اقضهِنَّ مَريضُ

وأنشدني أبو العباس (يعني أحمد ابن الأمير المذكور) لجعفر بن الطيب الصقلي :

قلتُ لما لمْ أجد لي في صفاتِ الحب صدقا
خابَ مَن كان مُحباً فحبيبٌ ليس يبقى

قال : وزرهون جبل قربَ فاس فيه أمم لايُحصِي عددَهم الا الذي خلقهم.

أبو العباس الزرهوني هذا من فقهاء مكناسة الزيتون بالعدوة من أرض المغرب، وكذلك أبوه وجده، حافظ لمذهب مالك، وكان أبو يوسف الزناتي يُثني عليه ويصفه بالحفظ، قدِمَ الاسكندرية حاجّا فأقام بها مدة وقرأ عليَّ كثيراً من الحديث وكتب سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ومن جملة ذلك «كتابُ الناسخِ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس، و«غريب القرآن» لابن عزير، و«مسند الموطأ» للجوهري و«شرح غريب الموطأ» للأخفش.

ص : 50

سمعت أبا العباس أحمد بن طاهر بن شيبة الفاسي بالثغر يقول : أبو علي المتيجي من فقهاء أغمات، وإلى فتاويه يرجع سلطانُ المغرب ابن تاشفين لدينه، تركتُه سنة عشرين وخمسمائة حيا، ومحمد ابن شبونة من مشاهير فقهاء المغرب يشار اليه في المعرفة بمذهب مالك وهو يسْكن اغمات، خلفته بها حيا كذلك في سنة عشرين.

أبو العباس هذا من أهل العلم وقرأ عليَّ أشياء أولَ وصوله إلى الثغر، ثم خرج الى الحجاز ورجعَ اليه واستوطنه الى أن مات، واني علقتُ هذا عنه، لأن المتيجي يذكر مع المنيحي والمتيحي.

من ص : 53

سمعت أبا محمد عبد الله ابن تويت الوزان اللمتوني الملثم بالثغر يقول، وجربتُه وكان ثقةً يتحرَّى الصدق، سمعتُ أخي الأمير أبا يعقوب ينتان بن تويت الفقيه وغيره من المرابطين الثقاتِ بالمغرب يقولون : ولد في بني نورت — بطن من الملثمين — جسمان كاملان براس واحدة فعاشا زمانا ثم مات أحدهما وثقل الآخر فراموا قطعة منه، فشور الفقهاءُ فقيل يصبر أيام، فلم يمضِ إلا قليل حتى مات الآخر.

قال أبو محمد : وولد بالأندلس في أيامنا مولودٌ برأسين، وكان ابن غلاب السوسي حاضراً فقال الذي بلغنا أنه ولد بالمغرب مولود براس واحد له وجهان.

قال أبو محمد : وقد رأيت بمحص (حمص ؟) الأندلس امرأة ولدت أولَ ولادتها ولدا، ثم في المرة الثانية ولديْن، وفي الثالثة ثلاثة، وفي الرابعة أربعة، وفي الخامسة خمسة، وفي السادسة ستة، وفي المرة السابعة سبعة في بطن واحدة، يئِسَتْ من روحها، وأشرفت على الهلاك، ثم امتنعتْ عن زوجها وأبت أن تطاوعَه واشتهرَ أمرُها عند الناس بأقطار الأندلس.

أبو محمد هذا رجل صالح من أمراء المرابطين، قدم المشرقَ للحج وطَلَبِ العلم، وكان يحضر عندي ويقرأ، ومن جملة ما قرأ الملخص لابن القابسي، أما أخوه ينتان فكان فقيها، وذكر لي أخوه أبو محمد أنه توفي بزَبِيد من مدن اليمن، وأنه كان قد قرأ على ابن عتاب وأبي بحر وابن رشد وآخرين بقرطبة، وعلى ابن ابي جعفر بمرسيه، قال وتَويت اسمه محمد ولكن غلب عليه لقبه هذا، وتفسيره صيّاح.

من ص : 160

سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك الفاسي بالثغر يقول سمعتُ عمي ميمون بن عبد الملك الفاسي بها يقول كان لعبدون بن ملولة الشاعر المعروف بالزربطاني بستان فيه شجرة تين يضرب بها المثل ويقال لها لامثلُها، ووصى الحارس بها من الأشجار فعدا عليها فقال :

غرستُ من التين لا مثلُها ومن مثل لا مثلُها يغرس
واني اتخذتُ لها حارسا ومن مثل حراسها تحرس

ص : 236

ولما ذكَرَ سماعاته من عمر بن عبد العزيز بن عبيد المالكي فقيه طرابلس الغرب كان منها قولُه :

سمعت أبا حفص يكنول بن الفتوح القاضي بطرابلس المغرب يقول : سمعت يوسف بن عبد العزيز بن عديس المالكي بفاس يقول : الوقشي كان أضبط للحديث من ابن عبد البر، وأعرب منه لسانا، وكان فقيهاً متفننا في العلوم.

وقال أيضا : سمعتُ أبا حفص يقول : سمعت يكنول بن الفتوح الزناتي بطرابلس المغرب يقول : سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز ابن عديس الفقيه المالكي بفاس يقول : لولا أن أبا عُمر يوسف بن عبد البر شيخي لنقضتُ عليه أكثرَ تواليفه. قال : وكان يقولُ ليس له طريق إلا الموطأ، ولا يُحسنُ سواه وما يتعلقُ به من الكلام عليه. قال عمر : ليس الأمرُ كما قال ابن عديس، فإن ابن عبد البر كان يُحسنُ كلَّ فن.

ثم قال : سمعت أبا حفص يقول : سمعت يكنول بن الفتوح الزناتي بطرابلس المغرب يقول : سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز المالكي بفاس، وكان عالماً بالحديث والنحو والفقه والشعر، وجرى بين يديْه حديثُ النبي (صٓ) : يجير على المسلمين ادناهم، فذُكِر له عن ابن حبيب انه قال : لا يجوزُ إلا بإذن الوالي، فغضِبَ عضَباً شديداً وقال لو كان ابن حبيب (حيا)، لأخذتُ بِلحيته، النبي (صٓ) يقول يُجيرُ عليهم أدناهم، وابنُ حبيب يقول لا يجوز إلا بإذن الوالي.

ص : 241

سمعتُ أبا حفص عمر بن سهل بن محمد الغتاني الغرناطي بعدَ قُفولِه مِن الحجاز وتوجُّهِه الى الأندلس يقول : لما عزل الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سلطانُ المغرب أبا الحسن بن أضحى الغرناطي عن قضاءِ ألْمِرية كتب إلى أهلها كتابا أولُه بعد البسملة :

«كتابُنا، زكَّى الله أعمالَكم، وكفَّر عنكم سيئاتِكم وأصلح بالَكم، من حضرة مراكش حرسها الله، بعد أن نما الينا وتقرر لدينا، أن الجهولَ ابن أضحى أجهلُ بأحكام القضاء من العلجوم، اذ قد أظهر فيكم أحكاماً يُتَرَحَّمُ فيها على سدوم، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينة كالرجوم، وقلدناه خطة الشوم، ونبذناه، دون أن تَدَارَكَه نعمةٌ من ربه، بالعَراء وهو مذموم، ولعل متعسفاً يعتسف، وجائراً لا ينصف، يلومُنا في تقديمه، وينالُنا من العتب بأليمِه، ولا قدح، فقد اختارَ رسولُ الله ﷺ لوحي الله لعينَ بني سرح، وقد اغترَّ عثمانُ بحمران، ولسْنا أولَ مَن خانه القياس، ومن لمْ يأتِه من الغوير باس، والله يعصمنا من الناس، ان شاء الله، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

من ص : 379

أَنشدني أبو علي منصور بن مستور بن يلاسيل الفرضي الأغماتي بالثغر قال : أنشدنا أبو بكر محمد بن ابراهيم بن الحسن الحنيفي ولم يذكر قائلَه :

وقائلةٍ خلِّ الصِّبا لرجالـه فإن الصِّبا بعد المشيب جنونُ
فقلت لها لا تعذُليني فإنما ألذُّ الكرى عندَ الصباحِ يكونُ

وفي أخرى سمعتُ منصور بن مستور الأغماتي بالإسكندرية يقول : سمعتُ جعفرَ بنَ عبد الله المصري بها يقول : تزوجتُ فدخل علي أبو محمد التنوسي الفقيه استاذي يهنيني، وحمل إليَّ ديناراً فقال عند قيامِه : رزقَك الله تعالى ودَّها، وأطعمك كدها، وأبقاك بعدها، فاستجابَ الله دعاءه ورزقتُ ودَّها، وطعِمْتُ كدَّها، وبقيتُ بعدها.

من ص : 387

أَنشدني أبو عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندي السبتي بديار مصر، أنشدنا أبو بحر يوسف بن عبد الصمد الخولاني الأندلسي بسبتة لنفسه من قصيدة طويلة طائلة :

لئـن مطلَتْنـي الليـالي بوعـد	فكـم أَمسك الغيثُ ثم انهمـل
وان نلت من بعدِ لأْيٍ مرادا	فما أحسن الحَلْيَ بعد العَطَـل
وقد يمكن الوصلُ بعد الصدود	وقد يُدْرِكُ الأمنُ بعد الوَجَـل
وتمرض ثم تصحُّ الجسوم	وتضعـفُ ثم تـزولُ العِلَـل
ولابـدَّ للـريح مـن أن تهبَّ	ولا بد للروض من أن يطـل

أبو عمران كان من أعيان العدوة بالمغرب، وقد زوَّجَه مروان بن سمجون اللواتي الطنجي ابنتَه، وسمِع الحديثَ عليه وعلى أبي اسحاق الفاسي، وأنشدنا مقطعاتٍ كثيرةً من أشعار المغاربة الذين رآهم كأبي الحسن علي ابن بياع السبتي والمرادي المتعلم وأبي بحر الخولاني الأندلسي، سمعَ عليَّ كثيراً طول اقامته بالثغر، وكان شيخا موقرا حسنَ الأدب، آثارُ الرياسة بينةٌ عليه، ورجعَ إلى المغرب، وهناك تُوفيَ رحمه الله تعالى.

من ص : 470

أَنشدني أبو الحسن يحيى بن القاسم بن عامر الفاسي بالثغر، أنشدني خشون الفاسي الملقب بكلب الشعراء بمدينة فاس لنفسه من قصيدة :

اسقِني الراحَ ونَبِّهْ مَن رقـد	مالمَن مـاتَ مـن السكر قـوَد
ماتـرى البـدرَ وقـد روَّعَـه	وافدُ الإصباح إذ قيل وفـد
والثريـا نحوه مائلـةٌ	مثلَ جيدٍ قُدَّ من طـوْق زَرَد
مـع فتيـانٍ كنـوارِ الرُبَـى	نسجَ الطـرفُ لهم منها بُـرُد
جـرَّروا للَّهْـوِ أذيـالَ الصِّبـا	وانتضَوْا للفتك ما كان غُمِـد

يحيى هذا كان من أذكى خلق الله، كثيرَ الحفظ للشعر والحكايات، وسمِعَ عليَّ كثيراً من الحديث، وعلقتُ عنه فوائدَ، وكان من أصحاب أبي الفضل ابن النحوي، ويوردُ من رسائله كلَّ مليحة.

ومن ص : 481

سمعت أبا زكرياء يحيى بن علي بن حمزة الكتامي بالثغر يقول، كان عبدُ العزيز التونسي الفقيهُ بأَغمات امتنع عن تدريس الفقه وقال كلُّ من يقرأه عليَّ يصير قاضياً وعَوْناً للظَّلَمَة، فمَن أراد القراءةَ عليَّ فعليْه بالحديث وكُتُبِ الرقائق التي تُحَبِّبُ الآخرةَ إلى قارئِها وتبَغِّضُ إليْه الدنيا وتُقَرِّبُه من الله تعالى وتُبْعدُه عن أبوابِ السلطان وتزيينِ الشياطين.

من ص : 489

سمعتُ أبا الحجاج يوسف بن عبدون بن حفاظ الزناتي بالإسكندرية يقول، سمعتُ أبا عبد الله البادسي الفقيه وهو من بادس فاسٍ لا من بادس الزاب من أحواز القلعة، قال سألني أبو إسحاق الحبال الحافظ بمصر أن أَسمع الحديث عليه وقال لي : اغتنمْ حياتي فإني كبيرُ السن كثيرُ السماع عالي الإسناد، وذلك في جامعِ عمرو ابن العاص.

ومن ص : 491

سمعت أبا الحجاج يوسف بن القاسم الأنصاري الفاسي يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن محفوظ الفاسي ونظر إلى أهل مصر في يوم كَسْرِ الخليج وانفاقِهم الأموالَ العظيمةَ في غيرِ طاعة الله تعالى :

عبيـــــدُ سوء فَسَقَـــــهْ   لا يعرفـــــون الشفقــــهْ
في كـــلِّ وجـــه فـــاسد   يُضَيِّعُـــــونَ النفقــــــه

تأملات في الرواية بالمغرب
(تجربة شخصية)

محمد عزيز الحبابي

مدخل

إن الرواية نوع جديد في الآداب المغربية. لذلك تأتي الأجوبة على أي تساؤل حولها، طبقا لما يتصوره الكتّاب المغاربة، انطلاقا من تجربتهم الخاصة.

إن الفن لا يبلغ مستوى الإبداع، فأحرى الروعة، إلا عندما يصل إلى التعبير بصدق وبأكثر دقة عن واقع معيش، يحدث أو هو في صدد الحدوث، وعندما يصل إلى أن يحدس واقع ماهو متوقع والاشعار به.

* * *

فالهاجس الذي يجب أن يسكن الروائيَ المغربي هو أن تَلتزم أعماله بإظهار قضايا ومشاكل العالم الثالث وهو يحاول بلورتها لبناء مستقبل يتحدى التخلف.

هذا ما يلخصه السؤال التالي :

ما هو المرمى القاعدي للابداع الملتزم، ثالثيا وغدويا ؟[1].

إن الالتزام اختيار لا محيد عنه للمثقف الواعي لاختياره، تفرضه الظروف المعيشية التي توحد بين المبدِع وإبداعه. إنه اختيار حر ومشروط بتآن.

---

(1) الذي ينتسب إلى العالم الثالث ويرمي لبناء غد انساني.

من هنا كانت الرواية والقصة والشعر والمسرحية والفلسفة، ... بالنسبة للمبدع الملتزم، إما تعابير صادقة عن واقع تاريخي (رغم تدخل التخيل الذي يكسبه أشكالاً فنية)، وإما أن يكون مجرد هراء للتسلية المجانية ولقتل الوقت.

* * *

ستتناول الصفحات المقبلة **الرواية** كمثل من أنواع الابداع. «يروي» المؤلف الروائي، من خلال روايته، إحساسات وحدسيات وانطباعات وانفعالات. انه «يُعَبِّر» بها، وبها «يَعْبُر» من وجدانه إلى وجدانات آخرين. فالرواية التي لا تستطيع أن تبني جسرا بين الروائي/ المؤلف/ الكاتب وبين قرائه، تخطيء هدفها.

فالفن الحق تواصل، تأليف يخلف ألفة بين الأفراد. مؤلف من «ألف يؤلف»، أي لف يلف، ولفق يلفق[2].

فالتأليف عملية تقتضي جهدا أو صناعة، ومن عناصر كل صناعة الاصطناع والتصنع. وبعد عملية اللف تأتي عملية النشر، فيبدأ الحوار والتواصل.

إن الكتابة الملتزمة شهادة على واقع، وفي نفس الآن، تكييف حسب أغراض لا تعد كثرة ولا تحصر كيفا. ومن هنا تعرضها للصدق والكذب، وللصواب والخطإ، ولامتزاج الموضوعية بالذاتية. إن كثيرا من القراء العرب يتعاملون مع المكتوب كما لو كان جامعا مانعا لشروط الصحة والصدق، لأنه مكتوب، فيستانسون به عند الحاجة، ويستخرجون منه حِكما وعِبَرا. ففي ذلك خطورة الكتابة ومسؤولية الكاتب. إننا «أهل كتاب».

دور النقد

غالبا ما تكتسب الرواية مصداقيتها من طرف القراء. فدور القاريء أساسي إذ يسهم في اجلاء المعاني، وأحيانا في خلقها. فالقاريء الحذق هو من «يثقف» النصوص، أي من يسوي اعوجاجها، ويؤولها، يعني يرجعها إلى ينابيعها الأولى، إلى المبادرات والانطلاقات الأولى، فينمي النص باضافة أبعاد جديدة.

والقاريء المخصب حقا للآداب هو الناقد الجدّي الأمين. لذلك نعتبر من أسباب فقر آدابنا العربية المعاصرة افتقارها إلى النقد القويم، وإلى تجنب الانتقادات التهديمية.

---

(2) ومنه لفق الثوب = ضم شقيه إلى الأخرى فخاطهما.

مهمة النقد الحق أن يقرب النصوص من القراء، ومن ضمنهم المؤلفون أنفسهم (فبعد الانتهاء من التأليف، يصبح الكاتب قارئا لعمله، طبعا، لنا نقاد ممتازون، ولكنهم، باللأسف، قلة.

مهمة النقد أن يستجلي مكنونات النص. انه واسطة بين النص والقاريء يرشد الرواية حتى لا يقع شرود فتصاب بمتاهات فنية وتصنع، كما على النقد أن يعبد الطرق للقراء، ويرشد المؤلفين اذ يظهر لهم هفواتهم. هكذا يزيح الناقد عن الطرق المقارنات والتحليلات، وكلما قام ناقد بمهمته دون تحزب لهذا الكاتب أو ذاك، استحق ثقة القراء والكتاب معا.

* * *

كان روائيو القرن الماضي بأوروبا يعملون على وصف واصلاح واقع المجتمع، لذلك حاولوا اكتشاف ألغاز الانسان والحياة.

أما روائيو القرن الحالي، وبالخصوص روائيو ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد حاصرتهم إمية[3] : أما أن يصفوا الواقع بكل فظاعته ومخازيه من جراء الحرب الانسانية «العظمى»، واما أن يجتنبوا ذلك الواقع لأنه يحدث الغثيان والحسرة. يظهر عالم اليوم وحشية حضارة التصنيع بكامل بشاعتها. لذلك نرى «الرواية الجديدة» تعطي أوفر عنايتها للوصف وللأشياء على حساب الأشخاص : إن الحرب قد أكدت، جليا، أن الانسان ثعلب أمام الانسان، في عالم الرعب والقلق والقرف، الذي هو عالمنا الحديث.

كان الروائي في القرن الماضي فنانا، وباحثا ومصلحا مجتمعيا يقوم بالشهادة على الواقع، ويعمل على تغييره من حسن إلى أحسن. فـ «أتَّهِم !»، لـ (إميل زولا) خير شاهد على ذلك[4]. واليوم ان الروائي اما يعري الواقع دون أن يواري شاذة ولا فاذة من عوراته البشعة، وفضائحه وحروبه «العظمى»، والمجاعات وهي تجابه البذخ والتخمة، واما يعتمد على التخيل وحده، فرارا من الواقع المجتمعي ومما يفرزه من غصة وملل، وضياع، واشمئزاز. إنه موقف نابع عن اختيار وعن اعتراف بافلاس حضارة التصنيع وبما تحدث من فزع واضطراب.

(3) إما هذا... وإما ذاك... :Alternative

(4) Emile Zola «j'accuse».

ينتظر الغرب حضارة ـــ ما بعد ـــ التصنيع، وان انتظاره مزعج ومخيف لأن المترقب مجهول، والمجهول ثقب في اللا منتهي. لذلك يعاني الغرب حيرة وجودية.

فماذا يستطيع انسان الغد أن يفعل وهو يعاني الشعور بالهجر والاهمال !، أي أنه لا ينتظر أية معونة من أية قوة خارجية، ولا يجد سندا روحيا في نفسه ولا حوله ؟

إنها حياة خذلان مطلق.

لم تُظهر بعد الذهنية الحالية استعدادا لتتحول عما هي عليه من غياب القيم، وقد تربعت فيها الآلات (الوسائل) مكان الغاية (الانسان) بعد أن انقرضت الكرامة الفردية والجماعية.

* * *

الآداب صراع مع الزمان ومع المكان، في أزمنة وأمكنة مؤطرة ومحددة. ولحضارة التصنيع زمان متسارع، كما أن للثالثيين زمانهم المتباطيء... فهل تعكس الرواية العربية الصراع ضد زمان التخلف ؟

أحيانا، **نعم**، وفي أكثر الأحيان، يتيه النقاد العرب المعاصرون عن المرمى وعن السبل عندما يسيرون بسرعة زمان (مخائييل باختين) الروسي. و(ميشيل بيطور) الفرنسي وغيرهما من المنظرين للنقد الأدبي بالغرب، والمهتمين باللسانيات، حسب ما وصلت إليه المدارس الأمريكية. اذن على الناقد ألا ينطلق من قبليات فيكون مع هذا أو ضد آخر مما يفقده ثقة القراء والكتاب معا.

رواية يعاكسها الواقع

يسوقنا ما سبق إلى **الالتزام**.
الالتزام بأي شيء ؟

البعض يجيب :
«أن نلتزم بالأصالة».

يعارض آخرون :
«لا، بل بالتجديد».
جدد = غير أشياء موجودة.

فما هي تلك الأشياء ؟ وطبقا لأي معيار يحصل التجديد ؟
هنا تبدأ الضوضاء :

يجيب البعض :
«حسب الفكرولوجيا السائدة»

يعلق ثان :
«السائدة بالنسبة لمن، و لم ؟».

يصيح ثالث :
«بل طبقا لما وصل إليه الشكلانيون».

يعارض رابع :
«التجديد هو ما عند النظميائيين».

فيقاطعه خامس بأن «(روب غْرِييي) هو زعيم المجددين في الرواية».

يقول سادس :
«من التجديد أن يكون (رولان بارط) هو المرجع».

في حين يحيلنا سابع على (لوغاش) أو (غولدمان)...

* * *

هكذا تختلط المسالك على العرب الذين يحاولون التجديد، ويوسمون بالرجعية إذا اختاروا هذه الطريقة وتركوا الباقي، مع أن أغلبيتها مدارس لم تستقر بعد استقرارا ثابتا وشموليا و لم تنبع من واقع العالم الثالث...

* * *

فأن نطلع على كل الاتجاهات الغربية ونستأنس بها شيء ضروري، لكن ليس مفيدا أن نتبناها كليا ونفرضها كوحي يوحى، فقد يعوق ذلك حرية الخلق ويبعدها عن الواقع المعيش.

فمن حكم علينا أن نبقى نجتر ما نجده بالغرب دون أن نجتهد ؟

ولماذا هذا الحكم الجائر ؟

أن نقتبس ما يلائم أوضاعنا. فمن العبث أن نجمد في تقليد أبدي للغرب. ألا يتعلق الأمر بابداع، أي بتجارب يعانيها المبدع ؟

فَلِمَ يحاكم المبدعون بمقتضب التنظيرات المستنتجة من تجارب غيرنا، أي بتجارب تغلق علينا الأبواب كيلا نحاول طرق سبل خاصة بنا، وننظر إليها مباشرة ببصرنا وبصيرتنا ؟

فأين هو التجديد إذا غابت التجارب الشخصية، وكبح التيار الحيوي الخلاق بانفصاله عن محيطه الطبيعي، عن الذات من منبع التجارب وفي صدقها وانبعاثها ؟

* * *

تكتفي الرواية بوصف أوضاع أو تحليل تجارب عاناها الكاتب. فيدافع عن قضيته أو قضية مجتمعه أو قضية انسانية، كما يتصورها. فهل نود أن يكون الأدب أدبنا، نابعا منا، أم نبقى قرديين مستلبين من لدن النموذج الغربي مضمونا وشكلا وتصورا ؟

فمن حكم علينا بأن نكيف مشاعرنا بمقتضى نظريات الغرب ومعتقداته وعوائده وتراثه، ونحلته من المعاش، عوضا أن نقوم بدورنا كمبدعين بصدق وتجديد ؟.

اننا متخلفون، وبالطبع منبهرون بالغالب. فهو النموذج الكامل بالطبع، وهو الكل في كل الميادين.

أنلتزم نموذجية حتى في السلوك والذهنية ؟

لماذا القوالب المصنوعة، مسبقا ومن طين لم يسقه عرق مواطنينا ودموعهم ودمائهم ؟

لماذا نشدد الخناق علينا، فلا نتنفس إلا في أكسجين الغرب ؟

ومتى سنتحرر من نموذجيته لنخرج ابداعنا إلى الهواء الطلق ونتنفس برئتينا، ونبصر الطريق بأعيننا نحن، لا بعيون مستعارة ؟

إن ممارسات بعض النقاد قد تصيب بالعقم حرية الخلق عند مبدعين فتنقلب ليصبح الهم الأول هو التحرر من قمع النقد.

ــ تجربة شخصية

تخيلت رواية «**إكسير الحياة**» عالما غزاه اكتشاف ثوري[5]. انه دواء سيقضي على الموت. طبعا، من الناس من ارتابوا في فعالية الإكسير وقيمته ولأن الموت شرط ضروري للحياة... لكن الأغلبية باركت الإكسير ودخلت في صراعات جنونية للحصول عليه وتناوله قبل أن يفاجئهم الموت.

قصد الرواية أن تقدم أشخاصا في الواقع الجديد وهم يحاولون التكيف معه. فئة تعمل فحسب على احتكار الاختراع لمصلحتها الخاصة، وفئة ترفضه اطلاقا، وثالثة حاضرة بلا موقف، شنت معارك، وتحكمت الغرائز الدفينة. اذ ذاك ظهرت مصلحة المجتمع، كما ظهرت فظاعة آخرين غلبتهم أنانيتهم فضحوا بكل المباديء والقيم.

ان أكسير الحياة رواية من صنف التخيل العلمي.

* * *

حاولت تخيلا علميا آخر رواية «آل أمخ»[6].

في هذه الرواية يجد القاريء عالما خياليا سبق، حقا، العلم لكونه عالما تحقق، فعلا، وكان ارهاصات.

فقبل ما يناهز 20 سنة من وصول العلماء إلى صنع أطفال الأنابيب (الانجاب الاصطناعي) بالمخابر، نجد في «آل أمخ» :

ــ تصورا لأطفال من صنع المختبرات،

ــ خليطا من مني أحد الأبوين مع معطيات علمية مخبرية.

عندما وصلت السن المتوسطة من أعمار أطفال الأنابيب الثمانية أعوام، ببريطانيا العظمى، وبلغت (أمندين Amandine) الفرنسية التي أنجبها مخبر الباحث (فريدمان) عامَها الرابع ونصف، كان لأطفال في رواية (آل أمخ) أكثر من 20 سنة (حسب الطبعة الأولى، في أصلها العربي. أما الترجمة الفرنسية فقد ظهرت سنة 1976، وهي كذلك سابقة على العمليات المخبرية).

---

(5) من روايات دار الهلال، القاهرة. ط 2، الدار البيضاء، عيون المقالات.

(6) لقصرها، أدمجت في مجموعة قصصية، «**العض على الحديد**» (ط. 1 وط. 2 تونس، الدار التونسية للنشر).

ــ ومن الغريب، أن في «آل أمخ» اشارة واضحة للنساء اللواتي تعرن أو تأجرن أرحامهن. فالفنان التشكيلي المغربي، العربي بلقاضي، قد أصحب الرواية بصورة امرأة تحتضن في رحمها أجنة كثيرة، وكأنه قضير نحل. وكان هذا أيضا سبقا وتُنبؤا.

كما يكتشف القاريء في الرواية تنبؤا آخر : **التوائم الاصطناعية** الشيء الذي لم يتحقق مخبريا، إلا في صيف 1986...

* * *

ترمي الرواية الى ابراز الصراعات الفردية والصراعات المجتمعية وما تفرزه من بغضاء وحقد، فيتبين للناس ما تفضي به الأنانة والأنانية من سوء وعبث. ان الرواية لا تعطي دروسا في الأخلاق، وليست من الوعظ والارشاد وانما تحرض القراء على وعي الأوضاع لتنقيحها ولأنسنتها.

ــ تجربة شخصية من نوع آخر

انطلق الكاتب، في «**جيل الظمأ**»[7]، من العزم على تحرير مقال حول دور المثقف والثقافة وحول الغاية منهما. وكانت الأطروحة هي أن المثقفين غير الملتزمين هم في واقع الأمر، خصوم للثقافة الحق.

جُسدت الفكرة في شخص ادريس. وليكون التجسيد حيا، دخل ادريس في حوار مع راقنة (فاطمة). لكن، بمجرد ماشرعا يتحركان، جرتني الكتابة فانجررت لها، وانتقل المقال إلى شيء دون مسمى، إلى ما بين المقال الصحفي والنقد المجتمعي من جهة والقصة من جهة أخرى. وكانت مفاجأة . حاولت حينئذ أن أبلور ما اسودت به أوراقي، فإذا بعزيزة تهاجمني في قعر مقالي أو قصتي. ثم جاء بعدها رجال الشرطة الثلاث، فـ (دادا)، والصبي، وعظيم. اذ ذاك امتلأت الصفحات ببني آدم...

بدأ تضارب مصالحهم وطبائعهم، فكان ما لم أكن أتوقعه : أخذ أول حرف في اسم عزيزة وفي اسم محبها عظيم، العين يتحول إلى عين مبصرة تتابعني، فأجدها في صديقاتي وأصدقائي، وأراها في الشارع فتوقفني. لقد سكنتني فتساءلت :

«أهذه رواية ؟»

---

(7) الطبعة الأولى، بيروت، دار الشريف الأنصاري، أما الطبعات الستة التالية فبالمغرب (جمعية التأليف والترجمة والنشر، الرباط).

«من المحتمل !».

كان ذلك في الفترة الموالية لاستقلال المغرب، بعد أن بقيت في فرنسا محروما من جواز السفر، أي محروما من الدخول إلى الوطن ست سنوات. فلما حللت بالوطن شعرت أن الأرض غير الأرض، والناس يعانون صراع الأجيال، والمغربية بدأت تحلل أوضاعها وتطالب بحقوقها غير منقوصة، والأحزاب السياسية تراجع خططها، والنقابات تعيد النظر في مواقفها : انه مجتمع جديد يبحث عن أسس جديدة، وعن نفس جديد. فاندفعت، طبيعيا، إلى وصفه وهو يتحرك. وددت دراسة سوسيولوجية وسيكولوجية فأرادت الكتابة رواية، وساقتني إلى ما أرادت.

لم أخضع لقواعد مسبقة. فلو تمكنت سيطرة القواعد المسبقة علي لعارضت عفويتي، ولما جاء عملي بنكهة خاصة يستهجنها البعض ويحبذها البعض. على كل حال، «**جيل الظمأ**» ليس امتدادا لما كتبه غيري. والذنب ليس علي، بل على الكتابة التي دفعت بي إلى هذا العصيان، إلى الخروج عن المعتاد والقواعد.

* * *

اختفيتُ في جيل الظمأ، محاولا ألا أتعامل مع الأبطال إلا من بعيد، ومع ذلك، وجدتني فيهم جميعا : فأنا ادريس، في فترة، وعظيم عندما تطورت (أي بعد أن أنهيت الدراسة)، لأن كلا البطلين يحمل أفكارا آمنت بها وناضلت من أجلها. فاطمة وعزيزة هما معا تؤمنان بما أتمنى أن تكون عليه كل المغربيات : النضال والجرأة، خطاب المغربية المتحررة من النظام الأبيسي، الواعية لواجباتها وحقوقها. أما المنجِّد الابن فهو كذلك في فترة المراهقة، وعندما أريد أن أهزأ وأنكت...

بالفعل، ادعى كثير من النقاد أن ادريس هو الحبابي، الا أنهم لم يحددوا أي حبابي : اني قد تطورت وتجاوزت تفكير ادريس وانفعالاته نحو تفكير وانفعالات عظيم... نعم، إن الأحداث وتضارب الآراء والطبائع معروضة أمام القاريء، في صيغ تختلف من بطل لآخر، على حين أن المؤلف غائب وحاضر. فلو غاب كليا لتعذر ظهور المشاهد مباشرة، دون وساطة حية لتشحن الأبطال والمحيط.

* * *

حقا، يتستر المؤلف، ولكنه لا يستطيع أن يختفي نهائيا من الرواية. كما أن التستر ليس حيادا ولا اختفاء، فان حضور المؤلف في الرواية حضور يغذي الأبطال، ذهنيا

واحساسا. فلا يمكن لبطل أن يتحدث عن الحب والحبيب اذا لم يكن قد سبق للروائي أن أحب وأصيب بخيبة. فالتجارب الانسانية المصطنعة تظهر باهتة وباردة لا يتفاعل معها القاريء.

ليس معنى هذا أن يتميز النص الروائي بضمائر المتكلم، وكأنه مذاكرات خاصة أو اعترافات شخصية، ليتأكد صدْق التجربة. ابدا ! ان النص الروائي صنف ابداعي له ألوانه وتعابيره المميزة. لكن ما يود من الرواية هو أن تبلور تجارب انسانية يجسدها أبطال، عاشوا حقا ما يجسدون. فكيف للمؤلف أن يتحدث عنهم إذا كانت تجاربه واحساساته فقيرة ؟

فالروائي بطل من أبطال الرواية، يتكلم بضمائر : هو، هن، أنت، أنتم... وقد يقول «أنا» علناً. فكلما كان وجدان الروائي هو المحبرة الأولى لقلمه جاءت المغامرة بالنار والنور. فعمق التجربة أساس للتخيل، وللحياة عامة.

يموضع الروائي هويته ليلعب دورين، دور الحاكي/ والواصف/ المتحدث/ الراوي، ودور المحكى عنه/ الموصوف/ المتحدث عنه/ المروى عنه...

طبعا إن الـ «أنا» رغم حضوره الدائم، يخالف تماما الأنانة، أي الارتكاز الدائم حول الذات.

إن الـ «أنا» هبة أصيلة من الـ «أنت» والـ «نحن» والـ «هي»،... فالتعاون البشري يخلق تكاملا حياتيا. إن حضارة التصنيع، عندما جعلت محور المعايير والقيم هو الربح، والدخل والرصيد المصرفي... قضت على أسس أنسنة الانسان، فأضحى التقدم يعني، بالدرجة الأولى، النمو المادي (الصناعة والقوة الحربية). قُضي على الكرامة، وأُلّه المال.

* * *

لرواية «**جيل الظمأ**» هموم تؤطرها فترة تاريخية (استقلال المغرب)، فتغييب هذه الهموم يفقد الرواية مرادها.

إن هيمنة النقد من حيث انه انتقاد لما يخالف المعمول به، أو لحسابات شخصية، أو بدافع التحزبات، لن يزيد الروائيين المتمردين (ولو أخطأوا)، الا تمردا.

فمن الخاسر في العملية ؟

الجميع خاسر : القاريء والكاتب، والرواية، والنقد. لذلك، من المناسب أن يتحالف الروائيون والنقاد ضد التقليد الأعمى. هكذا يبقى الباب مفتوحا أمام الابداع. ففي كثرة الخضوع خنوع.

* * *

ـــ الروائي وأبطاله

في الغالب، عندما ينشيء الروائي أبطالا، وينفخ فيهم الحياة، ويخلق لهم إطاراً، ينطلق مما هو كائن، أي من واقع يتداخل مع عالم التخيل. وهذا بدوره من الواقع، إذ يعيننا على تفهم بعض الأفعال المنكرة أو المستحبة، ويقربنا من فهم أسرار الوجدان البشري المتقلب والمتناقض، فنتفتح على فهم الطبائع وعلى التفاهم والمتناقضات، كما يسهم في التقرب من فهمنا لأنفسنا.

* * *

«**جيل الظماء**» تجربة شخصية أردتها مجرد دراسة، وأرادت لها الكتابة أن تكون رواية. وعندما استقر الرأي على تسميتها بـ «رواية» أخذت الملاحظات تتزاحم :

ـــ إنه نص شبيه بالنصوص المسرحية من حيث كثرة الحوارات...

ـــ نعم.

ويكثر فيه تداخل القضايا...

ـــ نعم.

ـــ ويوجد نفَس درامي : الفعل في الزمان الحاضر، ويتطور مباشرة على مراحل من بداية إلى نهاية، ويحتوي أحيانا على المونولوج (المناجاة) لا على اللفظ ليؤثر في الخيال. إنه توثر بين أحداث...

ـــ نعم. ثم ماذا بعد ؟

ـــ قد لا يرضى النقاد المغاربة على هذا المزج بين الأجناس.

بمناسبة هذه الملاحظات، أضع سؤالا :

ـــ لماذا جرؤ المسرحيون فأدخلوا تجديدا على فنهم، إذ أنشأوا «المسرح الشامل»، ولا يسمح للروائي أن يحقق «الرواية الشاملة» ؟.

يظهر أن المسرح الشامل اقتضته مزاحمة السنما، ولتمتاز مسرحية القرن العشرين عن المسرحيات الماضية وعن فنون العرض الأخرى. لذلك ضمت الشعر والقصص والغناء، والموسيقى، والمعمار، والدراما، والفنون التشكيلية،... مما قارب بين المسرحية والأوبريت من وجوه، وعوضا عن الاعتماد على العين، إنها تعتمد على الحوار وعلى الخطاب، وبات الممثل هو العنصر الأساسي.

هكذا انتقلت ملاحظاتي على تركبة «**جيل الظمأ**» إلى رواية تكاملية وبالفعل، قد بدأ للأستاذ مصطفى القباج أن النص قريب من المسرح، فقام بإخراج مسرحي عن «**جيل الظمأ**» يميل إلى المسرح الكامل.

* * *

لا تريد هذه الصفحات أن تؤكد أن بين النقد (على العموم) والابداع (اطلاقا) تناقض وعداوة، وانما تلفت النظر إلى أن النقد عندنا اليوم يقلد تقليدا تاما المدارس الغربية التي أسست وتتأسس في مناخ ثقافي ومجتمعي مغاير لمناخها وتعتمد قواعد تقتضيها ألسنة لا علاقة لها باللسان العربي.

يقيناً أننا في حاجة إلى أن نتعلم من الغرب، ويقيناً كذلك أن على التلميذ ألا تنمحي شخصيته كاملة في الأستاذ. فوضعية التلميذ وضعية مؤقتة، وكم من أستاذ فاته الركب وغرق أحيانا في التخلف بالنسبة لتلامذته. وبالفعل، لنا اليوم ناقدون باتت لهم نظريات واتجاهات تميزهم حتى عن أساتذتهم، وقد، أقلموها، «عرَّبوها»، من حيث المباديء والمقاصد. تلك ثلة من النقاد الناضجة، والنافعة التي خرقت حدود المغرب. وهناك فئة تسير على غير هدى.

* * *

إن الكاتب المبدع عندنا، هو كذلك أحد رجلين، اما يرجع القهقرى تائها [illegible] قبور الأجداد القابعين في ظلام عهود الانحطاط الثقافي العربي الاسلامي، ورجل يغ[illegible] بقفزات ضائعة من عهد الجمود إلى آخر ما وصل إليه الغرب بعد جهود وتطور، فيشب في معاصرة لاهي له ولا هو منها ولم يُهيأ لها، معاصرته، إذن، بلا أساس ولا ركائز تتابع قفزاته كزبد أمواج هائجة في بحر «الموضات» المدهشة حيث تفككت الثقافة والحضارة، وانعدم السير بسير الضعفاء، والالتزام بما فيه منفعتهم وانعتاقهم. فلا هو احيا[illegible] متحرك في التراث، ولا هو استنتاج من التجارب المورثة. كيف تبعث

آفاق التجديد من لا شيء ؟ إن الخلق العفوي غير ممكن... فلابد من بناء جسور بين المعيش والمترقب. إذن القاعدة الذهبية بالنسبة للثالثيين هي : لا إفراط ولا تفريط، كلاهما مضر. إن الترميم والاصلاح بداية كل تجديد. فلا أصالة دون تعصير وتحديث، ولا معاصرة دون تأصيل. إننا أبناء مجتمع يصنعنا ونصنعه، ومن أجله نبدع. فالمواطنة تفرض علينا أن نبدع أحسن ما يمكن لنغذي التراث والمعاصرة معا، وننعشهما أحسن ما يمكن. ذلك هو الالتزام الحق. إن الابداع مغامرات ومفاجآت في فضاء يبدع معه، ويفاجيء هو كذلك. عمليات تعتمد على معلومات وميول، في عالم معطياته تنزع نحو عوالم غريبة تضاف إلى الواقع المعيش والمحسوس فتغنيه. ومن هنا يمكن اعتبار المبدعين صناع الصيرورة. انهم لا يقتلعون جذور الماضي، بل يسقونها لتنفتح على الحال ويستشرفون على المستقبل.

* * *

السر السحري للكتابة

إلى الآن، تركز العرض على التجارب الشخصية وهو يصف مشاهدات موضوعية وذاتية ،كما يصف ما جد من تغيرات مجتمعية بالمغرب، منذ السنوات الأولى للاستقلال، بيد أن الكتابة أبت الا أن تأخذ بناصية المشاهد الشاهد، فترغمه على تحرير «رواية» فلم تصدر عن هوية بل عن التزام داخلي بالمصادفة !

معنى هذا أن الكتابة قوة سرية سحرية لا تسمح للكاتب أن يقاومها. فالكتابة ليست من لدن الكاتب، ليست من ارادته وعندياته بل إنها تجره فينجر لها ومعها. تلك ظاهرة عجيبة وغريبة، ولكنها واقعية : الأفكار تتداعى، وان تضاربها مخصب أحيانا (جانب ثان من الغرابة). وعندما يحصل ارتباك في البحث عن لفظ أو عبارة يراد منهما تعبير منسجم انسجاما تامّاً مع معنى أو معان تتراءى دون وضوح مكتمل، يشعر الكاتب بتوتر داخلي كصياد أمام شبكة تهتز مع المصيدة، والسمك يحوم حولها. يشتاق الكاتب إلى المعنى السابح بين الضياء والظلمة. إنها معاناة تحرضه على المتابعة، وتتعبه، وهو لا يفتأ يلقي كالصياد الشبكة، باحثا عن المعنى الغريق ـــ الطافي. قد تخطر بالبال معاني هائمة، وتتجسد في ألفاظ وعبارات تقريبية تفرزها الذاكرة، بعد أن كانت نسيا منسيا، الا أنها لا تطفو على ساحة الشعور والتذكر منفردة، بل مدثرة ومن وراء ركام فوضوي من الذكريات، فيضطر الكاتب أن يوجه الشبكة وجهة لم تكن في حسبانه.

* * *

من هنا كانت الكتابة، في نفس الآن، عفوية، وصناعة، ومفاجآت، مهما كان التصميم محكما، ومهما كان التصور محبوكا، أكد (بيفون Buffon) أن «الأسلوب هو الانسان». نعم، الأساليب تختلف باختلاف الأشخاص، بيد أن لكل شخص شخصيات[8]، وأن أي إنسان لا يبقى هو هو دائما وأبدا. فكثيراً من الابداع يكمن في اللا متوقع. إن الجانب العفوي يفاجيء الكاتب والقاريء معا. ألا يجوز أن نؤكد **أن الانسان أساليب ؟**

من هذا الافتراض، نستنتج أن مدارس النقد الفني والأدبي، بتنظيراتها وقواعدها قد تعين المبدع، كما قد تعرقل تدفقه العفوي فتشيع البلبلة وتفيض الفوضى، وتتقوقع ديناميته فيصبح همه الأول : الابداع الاصطناعي من أجل البطن والجنس. طبعا، إن الاستئناس بالآراء النقدية قد يفيد سلبا أو ايجابا، شريطة ألا يُلزم بالخضوع الخانع لأناجيل النقاد، والا قام سدا منيعا للتحرك الواعي واللاواعي.

ــ عودة إلى التخيل العلمي

تقدم للعرض أن تحدث عن علاقات التخيل بالنمو العلمي والتقني. ألم تسبق روايات التخيل العلمي اكتشافات واختراعات علمية ؟ ورغم هذه النقطة التاريخية المحسوسة واليقينية، عارض النقاد تلك الروايات ورموها بأشنع الأنعات، إلى أن بدا تراجع النقد أمام نجاحها.

* * *

نشير الآن إلى إحدى تلك السابقات.

في رواية «**آل أمخ**» التي تقدم الحديث عنها، نجد بالاضافة لأطفال الأنابيب، تنبؤا آخر، قد يتحقق وقد لا يتحقق. كيف يمكن استغلال الكلام الذي تنتجه البشرية بالأطنان، في كل آن وفي كل مكان ؟

وبما أن قانونا فزيائيا مشهورا يؤكد أنه «لاشيء ينعدم، وأن الأشياء تتحول» يمكننا أن نعتقد أن الكلام يتراكم في برزخ ما، ثم يتحول إلى مواد كما يتحول الخشب إلى فحم أوغاز... وبما أننا نقول عن مضيف، لقد رحب بنا «بحرارة» ونقصد أن بالكلام طاقة حرارية، فلنبحث اذن، عن مناجم الكلام لنستثمر طاقاتها !...

---

(8) انظر : من «**الكائن إلى الشخص**»، دار المعارف، القاهرة، القسم الأول.

صرحت الأم العجوز لابنتها العاملة التي تقوم بتلك الأبحاث : «بما أنك اكتشفت مواقع المناجم الكلامية، أنصحك، ياابنتي، بأن تركزي الجهود على الحفريات قرب الأمكنة التي تهدر فيها الجمل بلا حساب، مثل الجامعة العربية، واليونسكو، ومنظمة الأمم المتحدة... هناك سيكون الحفر غير عميق وغير متعب».

ذلك كلام الأم عن الكلام. فمن يدري، لربما وصل العلم قريبا، إلى استثمار مناجم الكلام. انها جمة خصوصا حوالي البرلمانات والمنظمات الدولية، والجامعة العربية... ومجموع الهيآت التي تعشق الإكثار من الكلام وتتفاني في حب الفصاحة، فهناك كميات جيدة، كما وكيفا...

* * *

لم يخطر ببالي سابقا أني سأتخيل أطفال الأنابيب، ولا أني سأهتم بالطاقة الحرارية الكلامية. أخذت القلم وبدأت أداعبه فوق ساحة ورقة بيضاء، فإذا به يراوغني ويدفعني إلى عالم اللامتوقعات، عالم أسرار الكتابة ومجاهيلها. تحرك القلم، وحركني القلم، فحرضني على عدم التوقف، فصارت اللعبة واقعا.

ذلك هو سر الكتابة، وذلك هو سحرها.

* * *

ـ موت الانسان وفناء حريته

ادعى (نيتشه) أن «الله مات !»، وقصد بهذه المقولة رفع مكانة الانسان في الكون ليجعل منه (سوبرمان). وبعد الحرب العظمى الثانية، برز فلاسفة جدد، خصوصا بفرنسا. دعى (فوكو) : «مات الانسان !». وأضاف (لاكان) : «ان شيئا يتكلم داخلي»، وصاح (ألثوسير) بأن «التاريخ سيرورة بلا أشخاص».

هكذا تقلص دور الانسان وتضاءل حضوره، انه يتحرك كرقاص السَّاعة، ذهابا وإيابا، على نفس الدائرة، دون إرادة أو مبادرة، أي أنه قد فقد حرية المبادرة الابداعية، بل فقد كل معنى شخصي. لقد انزلوا الانسان من وضعه المتعالي.

* * *

خسرنا الانسان لأن حضارة التصنيع بآدابها وفلسفاتها، تخضع للنفعية وتتخذها معيارا لتقييم الأفعال والكائنات. فبالدخل والربح والرصيد المصرفي، سيطرت، كليا، العنديات على الكينونة.

* * *

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت كذلك بفرنسا «الرواية الجديدة» «Le nouveau Roman» مع (ألان غريبي) وجماعته، فأعدمت الأشخاص، اعلاء من شأن الأشياء ومن شأن الفضاء، وأعطت القيمة القصوى للنص في ذاته.

فبفضل اجتهادات المنظرين الغربيين ظهرت مدارس نقدية وطرق في الابداع الأدبي والفني توازي في تكاثراتها كثرة الاتجاهات الفلسفية والعلوم الانسانية الحديثة (اللسانيات، والسوسيولوجيا، والفنومولوجيا...)، وسادت على الخصوص البنيوية التي تنظر إلى النص الأدبي كما لو كان كيانا منفصلا عن الواقع الخارجي، وأدخلته دائرة مغلقة تبعده عن صيرورة المحيط المجتمعي، كما تبعده عن محاولة الوعي الشامل والعلاج، ذلك ماعاقه عن تبني مجتمع مناضل ضد التخلف، مجتمع انساني من حيث تركيباته واتجاهاته.

لقد انكبت اللسانيات البنيوية على فضائها الابستيملوجي غير عابئة بالانسان كشخص متكلم، كذات لها لسان به تتشخصن. لقد بات مفهوم «انسان» في الرواية الجديدة، مريباً، وكأنه آنية أفرغت من محتواها، فأصبحت كالمعلقة، دون وظيفة، لأنها بلا معنى. فمن العبث أن نستغرب المفكر الماركسي، (لويس الثوسير) حينما يتحدث عن التاريخ كسيرورة دون موضوع !

فلأن يفقد كلام ثقله الدلالي، وأن ينعدم الفهم في جملة أو جمل شيء عادي يتأتى من جهل أو غباوة، أو غموض مقصود. أما أن يعدم المتكلم/ المتحدث (أو بأصح عبارة : المصوت/ المتلفظ) فغير وارد، لأنه من الممكن أن يعيد المقاطع التي صدَرت عن سامع أو عن جماعة، ويمكن أن تسجل، وتعاد إذاعتها، رغم اللا ــ معنى والخُلف.

فالمرجع لحكاية السامعين عما سمعوا، وللتسجيل عما سجل هو الناطق، وان سكت، هو كائن ما راشد وكامل التشخصن أم لا، إنه نطق، إذن، إنه موجود، وموجود ككائن يتواصل بكلام (مفهوم أو غير مفهوم)، عن طريق رسالة قد تصل وقد لا تصل، إلا أن المرسل حاول أن يعبر عن أشياء، أن يقاسم افقه مع آخرين، إنه يعترف بهم ويعبر عن اعترافه. فلماذا يقطع عليه الطريق وينكر واقعه ؟

اذا انمحت الذات، انمحت القوانين والأخلاق، مادام عالم الأشياء لا يتحمل مسؤوليات، وإذا سئل عما يفعل لا يجيب.

* * *

فكما رأينا، انّ «الرواية الجديدة» (عند غريبي وجماعته) أصبحت تعدم الأشخاص وتعلي من شأن الأشياء والفضاء، وتعطي القيمة القصوى للنص في ذاته.

فما الفائدة في محاولة فصل السارد عن المؤلف، أي محاصرة الابداع في حركات تعليمية خالية من كل امتزاج بوجدان المبدع ؟

إنه حياد مصطنع يفرض من خارج الذات، ومن خارج الواقع. نسيج دون غزّال، أي تأليف مع غياب المؤلف. معنى هذا أن المجال الجغرافي ثابت وأن للأشياء الجامدة حياة، ولنواميس الطبيعة تأثيرا. أما الجانب الانساني فمعلق يقر بوجوده لأنه يحكي عنه ويتعامل معه، إلا أنه ينعدم تلقائيا عند عملية السرد.

فمع من يقع تواصل القراء إذن ؟

قد يقال :

«مع أبطال الرواية !»

لكن هؤلاء من يحركهم ؟

من يتصورهم قبل أن يبدعهم ؟

هل يتم تموضعهم في عالم الوهم ؟

القراءة مفتاح من مفاتيح الأسرار الجوانية لدى البشر. تطلعنا الرواية على الواقع وعلى الأوهام، وعلى الشر والخير، لأن الأبطال يظهرون بمزاياهم ومساوئهم، بآلامهم وأمانيهم. إنهم يحلمون، ويتخيلون. هكذا، عندما نرى آخرين يعانون الحياة نعي بدورنا جوانب غامضة من حياتنا، وندرك جوانب أخرى غير واعية من حياتنا، ونجد أطرافا غيرية للمقارنات، فنتمرن على النقد الذاتي ويسهل علينا استبار عاملنا الداخلي، واستبصار ذواتنا.

* * *

بعد أن انتهيت من مُعايشة أبطالي في الرواية، بدأت أشعر أنهم يلاحظون علي بعض التصرفات، ينصحونني، أي أنهم كانوا يعينونني على النقد الذاتي. لقد سكنوني وساكنتهم.

وكما تعين القراءة والكتابة على اكتشاف عالم الذات، تساعدان على اكتشاف الحياة المجتمعية. إنهما تقلقان اذ تضعان أمامنا مشاكل قد يتبعها موقف، وقد تغير سلوكنا، وقد تكسبنا معنى مفقودا. وكلما طرحنا أسئلة على أنفسنا، ساءلنا الحياة وحاسبناها. على كل حال، قد ينتج عن القراءة تغيير وضع غامض بوضع أقل غموضا يدفع القارىء إلى مغامرات. قيل إنه، بعد صدور كتاب آلام ڤيرتر «لـ (جوته)»، انتشرت موضة الانتحار بين الشباب، من تأثير الرواية. فالأبطال أيضا ينشرون العدوى...

إنه تصور رومانتيقي لبطولة سلبية ولحرية مجانية، لكنه تصور لا يدوم الا مدة تجربة لحظات. إنها حرية ما، حسب تصور ما، عند فاعل مستلب. عندما انتشرت أغنية «ذات الخمار الأسود» راجت «موضة» لباس الزي الأنيق في اللون الأسود.

ابنُ عبد ربّه الحفيد
هل هو مؤلف كتاب الاستبصار ؟

محمد ابن شريفة

من المعروف أن اسم المغرب قد برز بروزا قويا وأن نفوذه قد انتشر انتشارا كبيرا وأن صيته قد ذاع ذيوعا عظيما مع قيام دولة المرابطين ونشأة ما يعرف بالأمبراطورية المغربية في عهد هذه الدولة ثم في عهد دولة الموحدين التي خلفتها.

وقد كان من نتائج كل ذلك انفتاح المغرب على غيره من البلدان ــ ولا سيما الواقعة على حدوده ــ من جهة، واهتمام هذه البلدان به من جهة أخرى.

ويظهر هذا الاهتمام وذلك الانفتاح في نشأة نوع من الأدب جَلَّى فيه المغاربة واشْتَهَرُوا به حتى ليكاد يقترن بهم، وينتسب إليهم، وهذا النوع هو أدب الرحلات أو الأدب الجغرافي، ولعلَّ أقدم رحلة مغربية مدوّنة هي «ترتيب الرحلة» لأبي بكر ابن العربي دفين فاس الذي رحل مع والده إلى المشرق وزار بلدانا عديدة ولقي أعلاما كثيرين، ثم عاد إلى بلده بعلم غزير، ونحن نعتبر هذه الرحلة مغربية لأن صاحبها كان خلال رحلته وبعدها في خدمة المرابطين. وإذا كنا نفتقد الآن هذه الرحلة بكاملها فقد بقي لَنا تجريدها وتلخيصها[1]، كما أن لدينا عددا لا بأس به من كتب الرحلات والبلدان التي ألفت في عصر ابن العربي أو بعده بقليل أي في آخر عصر المرابطين وأوائل عصر الموحدين، ونذكر منها كتب البكري والعذري والزهري والرشاطي وابن غالب وابن جبير وابن سعيد وغيرهم.

وهذه الكتب تعكس كما ذكرت في البداية انفتاح المغرب على غيره، واهتمام غيره

ومن أمارات ذلك أن عددا من هذه الكتب والرحلات البلدانية أُلِّف برسم ملوك ووزراء ورجال دولة أو باقتراح منهم، فقد ألَّف اليَسع ابن حزم كتابه «المغرب، في محاسن المغرب» لصلاح الدين الأيوبي، وأهدى ابن دحية السبتي كتابه «المطرب» للملك الكامل، ووضع عبد الواحد المراكشي كتابه « المعجب» باشارة من أحد وزراء الدولة العباسية، وألف أبو حامد الغرناطي كتابه «المعرب» للوزير عون الدين ابن هبيرة.

وقبل هذا التاريخ ألَّف محمد بن يوسف الورّاق للحَكَم المستنصر الأموي كتبا في مسالك افريقية وممالكها وأخبار الامارات المغربية التي كانت بالبصرة والنكور وسجلماسة وغيرها، وكان الخليفة المذكور يستكتب سفراء برغواطة وسجلماسة الوافدين على قرطبة ويستدعي منهم وضع ما يشبه «التقارير» في وصف بلدانهم وشرح أحوالهم، ولابد أن تلك الكتابات كانت ذات نفع لهذا الخليفة العالم في السياسة التي سلكها هو والمنصور بن أبي عامر من بعده تجاه العدوة.

وينطبق مثل هذا على ما ألفه الادريسي لرجار الصقلي، وعلى ما كتبه في عصر متأخر عن هذا الوزّان للبابا.

وعلى الاجمال فقد غدا الاهتمام بالجغرافيا في العصر الذي نحن بصدده كبيرا، وكان لبعض خلفاء الموحدين وأمرائهم ذوق جغرافي وميل إلى كتب البلدان، ظهر في كثير من ملاحظاتهم ومخاطباتهم ومجالسهم، وكانت تُهْدى اليهم رسائلُ بلدانية، كما أنهم قاموا بأعمال كان لها أثر في تشجيع الرحلات والأبحاث الجغرافية[2]. وأصبحت قراءة كتب البلدان هواية لمن يريد أن يعرف أحوال الدنيا دون أن يتجَشَّم مشقة السفر، وقد عبّر عن هذا المعنى أحد أهل هذا العصر وهو ابن المناصف الذي يقول في كتاب جغرافيا مثل الكتاب الذي سنعرض له :

سَافِرْ بِلاَ زَادٍ وَلاَ مَرْكَبِ ... مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى الْمَغْرِبِ
وَخُضْ بِحَاراً طَالَمَا عَرْبَدَتْ ... أَمْوَاجُهَا يَوْماً عَلَى مَرْكَبِ
وَجُبْ قِفَاراً لَيْسَ تَعْيَا بِهَا ... فِي جَبَلٍ وَعْرٍ وَلاَ سَبْسَبِ
بِهَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي سَهَّلَتْ ... سُبْلَ الْمَسَافَاتِ فَلَمْ تَصْعُبِ[3]

ويندرج في سياق هذه الكتب الجغرافية التي غدت طرائف تهدى، وغرائب تطلب، كتاب الاستبصار موضوع هذا العرض، فقد طرّزه صاحبه باسم أحد أشياخ الموحدين وورد اسمه في ديباجة النسخة المطبوعة كما يلي :

«الشيخ الأجل المعظم الأغر الأسنى الأمجد المكرم أبو عمران بن الشيخ الأرفع المرحوم أبي يحيى بن وقتين»[4] بينما خلت نسخة الأستاذ المرحوم المختار السوسي من

هذا الاسم، و لم نصل بعد البحث إلى شيء نطمئن إليه في أمر هذا الشيخ الموحدي.

أما مؤلف كتاب «الاستبصار» فيعتبر مجهولا، وشأنه في ذلك شأن أصحاب مدوّنات تاريخية وجغرافية مغربية وأندلسية أخرى[5]، وقد وقع النقل عن الاستبصار في «الأنيس المطرب» لأبن أبي زرع[6] وجذوة الاقتباس لابن القاضي[7] و«جَنَى زَهْرة الآس» للجزنائي[8] ولكن دون ذكر لمؤلفه أو تسميته، وربما دل ذلك على أن النسخة التي نقل عنها المؤلفُون المذكورون كانت خالية من اسم المؤلف مثل النسخ الموجودة من الكتاب لحد الآن.

ولقد حاول بعض الباحثين أن يستنتجوا من اشارات واردة في الكتاب بعض ما يدل على هذا المؤلف المجهول ومنهم الأستاذ محمد الفاسي الذي رجّح أنه كان مغربيا وذكر أنه «كان لاشكّ يُقيم بفاس لمّا جمع كتابه هذا سنة سبع وثمانين وخمسمائة» ثم قال بعد ذلك : «وعلى كل حال فسواء كان من أهل المغرب أولا إلخ»[8م] وليس في هذا كله رأي قاطع كما هو واضح. وذهب الأستاذ محمد المنوني إلى أن صاحب «الاستبصار» «ممن نشأ بالمغرب» بل قَرَّر «أن مؤلف «الاستبصار» ليس من أهل المغرب فحسب بل من حفاظ الموحدين»[9] وقد استنتج هذا كله مما جاء في حديث المؤلف عن الصهريجين اللذين أنشأهما عبد المومن اذ يقول : «كنا في تلك المدة، نعوم فيهما، فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة، وكنا نتفاخر بذلك»[10].

ومع احترامي لاستنتاج الأستاذ المنوني فإني لا أظن أن النص المذكور يؤدي صراحة إلى ذلك، فطلبة الموحدين وحفاظهم كان بينهم أندلسيون بل أن منصبِ شيخ طلبة الحضر أسند إلى عدد من الأندلسيين. ثم ان القراءة المتأنية للكتاب تقودنا إلى نقيض هذا الاستنتاج، وهو أن مؤلف الكتاب أندلسي عاش في الأندلس قبل أن ينتقل منها إلى خدمة الموحدين، وهذا ما يدل عليه مثلا قوله عند الحديث على شجر الهرجان : «**وثمرتُه تشبه الاجّاص المعروف عندنا بالعبقر**»[11]، ولكي أحدد كلمة «عندنا» هذه سألجأ إلى كاتب مغربي هو ابن غازي الذي يقول في «الروض الهتون» متحدثا عن فواكه مكناسة الزيتون : «فيها أنواع كثيرة من الهَلاَلِج المسمى **بغرب الأندلس العبقر**، ويسمونه البرقوق... وفيها المشمش المسمى **بالاندلس البرقوق**»[12].

وَأَرى أنَّ كلمةَ «**عندنا**» في النص المذكور تساوي : غرب الأندلس، وربما يؤكد هذا أيضا قوله متحدثا عن حيوان يشبه الفيل في بلاد قلنبو بالسودان الغربي : «ويصطادونه فيأكلون لحمه ويصنعون من جلده الأسواط التي تسمى السرِّيّاقات، ويقال لها بالأندلس : ذَنَب الفار»[13]. ويمكن أن نستأنس في ذلك أيضا بقوله في

وصف منعة قسنطينة : «ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية من المنعة والحصانة، لا يُعرف بافريقية أمنعُ منها، ليس لها في المنعة نظير غيرَ مدينة رندة بالأندلس، فإنها تشبهها في وضعها والخندق المحيط بها والحافة المحدقة بها شبها كبيرا ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى»[14]. فهذه المُقارنة لا تتأتى إلا لمن شاهد البلدين.

وثمة اشارات أخرى ــ دون ما ذكرت ــ في الدلالة على أندلسية الرجل كاستعماله بعض الألفاظ مثل **تَوْر** للحسكة أو الشمعدان والجوف بمعنى الشمال والبنائق لشكل في التفصيل والخياطة والسلق لنوع من النبات والخضر والشراجيب للنوافذ وإنّما استعملت القيد لأنّ هذه الكلمات في الواقع تعتبر أندلسية ومغربية[15]، ولكننا عندما نقرأ قوله في توقيت ليلة كسر الخليج في مصر : «وهي لعشر تمضي من كانون الآخر، وهو بلغة الروم ينير» نرجع الاستعمال الأندلسي فالروم أو العجم كانوا بالأندلس لا في المغرب.

أما الدكتور سعد زغلول عبد الحميد محقق الكتاب فقد كتب على صفحة غلافه مايلي : «لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري» ثم ذهب في مقدمة الكتاب إلى أبعد من هذا فظن أن المؤلف هو ابن محشرة[16] وليس له من دليل إلا ورود فقرة من رسالة خاطب بها يعقوب المنصور أهل المغرب من حامة مطماطة ببلاد الجريد عند هزمه للميورقي، وهي من انشاء الكاتب المذكور. ويكفي في استبعاد هذا الظن الذي لا يقوم على أي أساس أن نعيد ما انتهينا إليه من أن المؤلف أندلسي، وأن نذكر بأنه عرف مراكش منذ عهد عبد المومن، أما ابن محشرة فهو بجائي لم يولد إلا سنة 641 هـ ولم يلتحق بخدمة الموحدين إلا في آخر دولة يوسف بن عبد المومن، ثم ان في الكتاب مادة كبيرة عن بجاية، فلو كانت لابن محشرة صلة بالكتاب لما فاتته الاشارة إلى أنه من هذه المدينة مثلا.

واذ قد حددنا تقريبا نسبة المؤلف فلننظر في بقية الاشارات المتعلقة به في الكتاب :

يذكر جامع «الاستبصار» في ص 104 أنه كان في الاسكندرية عند هجوم المراكب الصقلية عليها في العاشر من محرم سنة 570 هـ.

ويتحدث في ص 111 عن أحداث وقعت عام 583 هـ وعام 586 هـ ثم يقول : «ونحن الآن في شهر رجب الفرد سنة 587 هـ وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو»، وكرر هذا التاريخ عند الحديث على مكناسة.

وفي ص 123 يتحدث عن مواجل قرطاجنة (قرطاج) فيقول : «وقد دخلتها بالنهار مع أصحاب لي فرأيت منظرا هائلا، من تكلم فيها بأدنى كلمة يسمع لها دوى عظيم» ثم يسترسل في وصفها وعد صهاريجها وذكر مقاييسها. كما أن حديثه عن بجاية من ص 128 إلى 131 هو حديث من شاهدها وعاش فيها.

وعند الحديث عن مدينة تبسا يصف آثارها الرومانية ثم يقول : «ولقد دخلتها فأعطاني انسان من أهلها طلسما وهو على صورة أسدين من نحاس أحمر، عجز الواحد منهما إلى عجز الآخر، قد صورا بأعجب ما يكون من التصوير» (ص 162).

ويقول عند الحديث على مدينة طبنة : «لقد رأيت فيها بيتا له عضادتان من حجرين مثل جبلين وعليهما عتبة من حجر واحد مثل الجبل الضخم قد قربصت ونقشت على النوع الذي يعمل عندنا في العود» (ص 164).

ويقول عن قسنطينة (ص 166) : «وهذه المدينة من عجائب العالم، قد دخلتها مرارا وتأملت آثارها، ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأول فتأملتها، وكان لي في ذلك غرض».

وفي أثناء وصفه لجبل فازاز يقول (ص 187) : «وفيه خشب الأرز العتيق العالي، وهي مأوى القردة، عاينتها تثب من الأرزة للأخرى وهي في الجو الأعلى» .

هذه جملة من الاشارات التي يتحدث فيها جامع كتاب «الاستبصار» عن نفسه، وأقول جامع الاستبصار لأن هذا الكتاب يتألف من طبقتين كلاميتين أو متنين ملفقين[16م] : أحدهما يَبْدَأُ بعبارة : قال المؤلف، والمقصود به في الغالب البكري في كتاب المسالك والممالك، أما المتن الثاني فيأتي بعد الأول في مرات متعددة وهو يبدأ بعبارة : قال الناظر، وهذا الناظر هو الذي سنحاول معرفته بعد قليل.

أما بعد فإن مادفعني إلى اثارة الحديث حول كتاب الاستبصار بعد أن تناوله بعض الدارسين منذ قرن وربع هو أني وجدت التامجروتي في رحلته «النفحة المسكية في السفارة التركية» يعتمد في وصف البلدان التي توقفت بها السفينة التي حملته من تيطاوين إلى اسطنبول على من يسميه ابن عبد ربه، وهذه البلدان التي وصفها نقلا عن المذكور هي : ترغا التي لا تبعد كثيرا عن تيطاوين وقد وقفت بها السفينة وقوفاً اضطراريا ثم وهران، ومستغانم وتنس والجزائر وبجاية وبونه وبنزرت وتونس وقابس وسوسة.

وقد استعمل التمجروتي في هذه النقول عبارة : «قال ابن عبد ربه» سبع مرات، وعبارة : «هكذا ذكر ابن عبد ربه» مرة واحدة، وعبارة : «قال ابن عبد ربه في العقد» أو «قال ابن عبد ربه في عقده» ثلاث مرات[17].

فمن ابن عبد ربه هذا الذي نقل عنه التمجروتي ؟

وما الكتاب الذي نقل منه ؟

أما ابن عبد ربه فلاشك أنه غير أبي عمر أحمد ابن عبد ربه القرطبي مؤلف العقد المشهور، اذ أن هذا لا يعرف له كتاب في جغرافية البلدان و لم تكن له رحلة خارج الأندلس[18].

وصحيح أن الزبرجدة الثانية في العقد تشمل على شيء من وصف البلدان ولكن ليس فيها ذكر للبلدان الواردة عند التمجروتي، على أن بعض الفقرات الواردة في هذه الزبرجدة هي مدسوسة كوصف حمام الحرم المكي الذي يدل على المشاهدة وكذلك وصف مسجد منى بأنه أكبر من جامع قرطبة وتشبيد أبواب المسجد النبوي بأبواب المسجد الجامع في قرطبة وغير هذا من الفقرات التي توجد في بعض طبعات العقد مثل الطبعة الأميرية[19]. فهل كان التمجروتي ينقل عن نسخة من نسخ العقد التي تشتمل على مثل هذه الفقرات المقحمة على الكتاب ؟

لا أظن ذلك، وانما أميل إلى أنه نقل ما نقل عن كتاب بلداني وجد على غلافه أنه لابن عبد ربه، فتوهم أنه صاحب العقد أو تكون زيادة «في العقد» وفي «عقده» التي وردت في «النفحة المسكية» من قبيل سبق القلم كما يقال.

ومهما يكن الأمر فاني لما رأيت نقول التمجروتي البلدانية عن ابن عبد ربه اتجه حدسي إلى كتاب «الاستبصار» ورحت أقابل بين النقول المذكورة وبين مثيلاتها فيه فلم أجد تطابقا حرفيا ولكني وجدت تشابها في المادة وتقاربا في العبارة وهذا مثال على ذلك، جاء في «النفحة المسكية» خلال الكلام على مرسى بونه ما يلي : «قال ابن عبد ربه : ويطل على بونه جبل كثير الثلج، وفيه مسجد لا يصيبه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل»[20] ونجد هذه الفقرة في «الاستبصار» على النحو التالي : «ويُطل على مدينة بونه جبل وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب أن فيه مسجدا قديما لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج فاذا عم الثلج الجبل كله رأيت المسجد وسطه كأنه شامة»[21]. فالنصان هنا متقاربان في الفحوى وان اختلفا قليلا في اللفظ، أما في المواضع الأخرى التي أشرت إليها آنفا فان المقابلة فيها لا تخلو من فروق، ويمكن أن نعزوها إلى أحد أمرين :

الأمر الأول أن يكون التمجروتي نقل بتصرف في اللفظ، وهذا أمر شائع عند المؤلفين الأقدمين.

أما الأمر الثاني فهو أن يكون التمجروتي قد نقل عن نسخة من الاستبصار غير النسخ التي بين أيدينا. ونحن نلاحظ أن النسخة التي يوجد مِكْرُوفِلْم منها في الخزانة العامة بالرباط تختلف في مواضع عديدة عن النسخ التي اعتمدها الدكتور سعد زغلول كما تبين لي بعد المقارنة، وسأعود إلى هذه النقطة بعد قليل، وقد نقل ابن أبي زرع والجزنائي[22] عن «الاستبصار» حكاية الفاس التي تذكر في سبب تسمية فاس، ولا وجود لها في النسخ التي وقفنا عليها.

ومهما يكن من أحد الأمرين فقد تبين لي مما نقله التمجروتي عن البكري وأبي البقاء البلوي وابن بطوطة أنه لا يتقيد بالنقل الحرفي وأنه ينقل بتصرف، وهذا صنيع عدد من المؤلفين الأقدمين.

وأبدأ بعد هذا بمناقشة الافتراض الذي أريد أن أذهب إليه، وهو أن أوصاف البلدان التي أوردها التمجروتي في النفحة المسكية منسوبة إلى ابن عبد ربه هي من نسخة من كتاب «الاستبصار» كان عليها اسم مؤلفها المذكور فيما نفترض، ولكننا نتساءل مع هذا عن السبب في عدم ذكره اسم الكتاب واكتفائه بذكر اسم المؤلف، أما ذهاب التمجروتي إلى أن صاحب الكتاب المنقول عنه هو ابن عبد ربه صاحب العقد فهو إما من قبيل الجهل أو من باب السهو وسبق القلم.

فمن يكون اذن ابن عبد ربه هذا الذي نفترض أنه جامع كتاب «الاستبصار» ؟ إني عندما قرأت هذا الاسم الذي ينقل عنه التمجروتي فكرت مباشرة في كاتب يعرف بهذا الاسم لم تكن له شهرة جده الأعلى صاحب العقد وان كان لا يقل عنه، وهذا الكاتب هو أبو عُمَر (أو أبو عبد الله) محمد ابن عبد ربه الذي خدم دولة الموحدين في دورها الأول على عهد الخلفاء الأربعة الأول : عبد المومن ويوسف ويعقوب ومحمد الناصر، وقد تحدث عبد الواحد المراكشي في «المعجب» عن هذا الكاتب حديث الصديق الوامق لصديقه أو الطالب المعجب بأستاذه، ويقع حديثه عنه في أربع صفحات تضمنت معلومات قيمة عن ابن عبد ربه الحفيد واشتملت على ذكريات ممتعة لما كان بين الأديبين في اشبيلية ومراكش، وقد روى عبد الواحد عن أستاذه وصديقه طائفة من أشعاره وأخباره، وكان يترحّم عليه كلما ذكر اسمه[23].

ونجد ترجمة ابن عبد ربه هذا أيضا في «تحفة القادم» لابن الأبار[24]، وقد نقلها عنه بلفظها الصفدى في «الوافي بالوفيات»[25]، وترجم به ابن سعيد في «المغرب»[26]

وذكره في مملكة مالقة كما نقل عنه في قسم غير منشور من هذا الكتاب وصفاً لجزيرة صقلية[27]، وممن عرفوا بابن عبد ربه كذلك ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة»[28]، وكلام ابن عبد الملك فيه معلومات جديدة عن الرجل، وقد نقله ابن الخطيب في «الاحاطة»[29] لأن ابن عبد ربه ولي خطة الإشراف في غرناطة، وتحدث المقري في «نفح الطيب» مرتين[30] عن ابن عبد ربه وذلك في باب (من رحل من الأندلسيين إلى المشرق)، وفي كلتا المرتين جلب المقري أخباراً وأشعارا من مصادر لم يذكرها ونعرف بعضها مثل «المعجب» ولا نعرف الآن بعضها الآخر، ومن مظان ترجمة ابن عبد ربه كتاب «أعلام مالقة» لابن عسكر وابن خميس ولكن الموجود من هذا الكتاب لا يشتمل على ترجمة صاحبنا ووردت الاشارة إليه فيه مرتين[31]، ونَظنُّ أن ابن عبد الملك اعتمد على الترجمة التي لم تصل إلينا في أعلام مالقة المخطوط.

إن هذه المصادر تتفق في أشياء وتختلف في أشياء أخرى وهي في جملتها يكمل بعضها بعضا.

فعبد الواحد المراكشي وابن الأبار والصّفَدي وابن سعيد والمقري في ترجمته الأولى يقتصرون في اسمه على محمد ابن عبد ربه، وهكذا وردت الاشارة إليه في «أعلام مالقة»، أما ابن عبد الملك فقد ذكر اسمه كما يلي : محمد بن علي بن محمد ابن عبد ربه، وهكذا نقله ابن الخطيب في «الإحاطة»، ويقرب من هذا قول المقري في الترجمة الثانية : «ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل أبي الحسن ابن عبد ربه» وكنية أبي عبد الله نجدها في «النفح» و«المعجب» و«المغرب» لابن سعيد بينما نجد في «الذيل والتكملة» و«أعلام مالقة» و«تحفة القادم» و«الوافي بالوفيات» كنية أبي عمر، وكما اختلفت المصادر المذكورة في هذه الكنية اختلفت في بلدته فذهب عبد الواحد المراكشي إلى أنه من الجزيرة الخضراء، وقال ابن الأبار : سكن مالقة، وحكى ابن عبد الملك أنه مالقي فيما يقال، وعَدّه ابن سعيد في المغرب في أعلام مالقة، وكذلك ابن الخطيب الذي تصرف في عبارة ابن عبد الملك فقال : من أهل مالقة، وذكر المقري القولين.

وقد نص عبد الواحد المراكشي وابن سعيد على أن الرجل مِنْ وَلَد أبي عُمَر أحمد ابن عبد ربه، وسكتت المصادر الأخرى عن هذه النقطة، ومن الغريب أن ابن عبد الملك نسبه إلى تجيب وتبعه ابن الخطيب في ذلك، وهذا لا يستقيم مع قول الذين جعلوه من حفداء ابن عبد ربه صاحب العقد، إذ من المعروف أن الجد الأعلى لهذا وهو سالم كان من الموالي.

ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا هنا هو أن المصادر السابقة تتفق على أن صاحبنا رحل إلى المشرق، وأنه تقلّد وظائف مختلفة، وأنه قاسى كثيرا في الأسفار، وقد تحدّث ابن سعيد عن تدوين لابن عبد ربه في رحلته المشرقية سماه مرة رسالة فقال : «وله رسالة في صقلية(؟) ذكر فيها ما جرى له بمصر»[32] وسمّاه مرة أخرى كتابا ونقل عنه وصفا دقيقا لجزيرة صقلية وقد بدأه هكذا : «من كتاب ابن عبد ربه في رحلته»[33] وذكر هذه الرحلة المقري كذلك فقال : «له رحلة إلى الديار المصرية صنع فيها مقامة»[34] ونقل منها بيتين، وأتى في موضع آخر بكلام مفصّل حول رحلة ابن عبد ربه هذا نصه :

«حَدّث الشّيخ الأجلّ أبو عبد الله مُحمّد بْن علي اليَحْصُبي الْقَرمُونِي رفيقه (أي رفيق ابن عبد ربه في رحلته) قال :

اصْطَحَبْتُ مَعَه في الْمَرْكب من الْمَغْرِب إلى الإسكَنْدرية، فَلمَّا قَرُبْنا مِنْها هاجَ عَلَيْنا الْبَحْر وأَشْفَيْنا عَلَى الغَرق، فَلاحَ لَنا ونَحْنُ عَلى هذه الْحَالِ مَنَارُ الإسْكَنْدَرية، فَسُرِرْنا بِرُؤْيَتِه وَطَمِعْنا في السَّلاَمَة، فقَال لي : لاَبُدّ أَنْ أَعْمَلَ فِي الْمَنار شَيْئا، فقُلْتُ لَه : أَعَلى هذه الْحال الّتي نَحْنُ فيها، فقالَ نَعَمْ، فَقُلْتُ فاصْنَع، فأَطْرَقَ ثُمَّ عَمِلَ بَديهاً :

لِلّـهِ دَرُّ مَنَـار اسْكَنْدَرِيّـةَ كَـمْ … نَسْمُو إِلَيْهِ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْحَـدَقِ
مِنْ شَامِخِ آلأَنْفِ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمٌ … كَأَنَّـهُ بـاهِتٌ فِي دَارةِ الْأُفُـقِ
يُكَسِّرُ الْمَوْجُ مِنْهُ جَانِبَيْ رَجُـلٍ … مُشَمِّرِ الذَّيْلِ لاَ يَخْشَى مِنَ الْغَرَقِ
لاَ يَبْرَحُ الدَّهْرَ مِنْ وِرْدٍ عَلَى سُفُنٍ … مَا بَيْنَ مُصْطَبِحٍ مِنْهَـا وَمُغْتَبِـقِ
لِلْمُـنْشَآتِ الْجَـوَارِي عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ … كَمَوْقِعِ النَّوْمِ مِنْ أَجْفَانِ ذِي أَرَقِ»[35]

وربما تدل هذه الاشارات على أن خط رحلة ابن عبد ربه كان شبيها بالخط الذي وصفه ابن جبير في رحلته، وهو خطّ بحريّ كانت تسير فيه مراكب جَنْوية في الغالب، واستعمله حُجّاج أندلسيون، وكان يذهب من موانيء الأندلس والمغرب المتوسّطية إلى الاسكندرية عبر صقلية[36].

وإذا ثبت أن ابن عبد ربه هذا هو جامع كتاب الاستبصار فإن رحلته سابقة على رحلة ابن جبير، وقد جاء في الكتاب المذكور ما نصه : «قال النّاظر (وهو في افتراضِنا ابن عبد ربه) : هذه المدينة الاسكندرية يطمَع فيها عدوّ صِقلّية أبدا ويخسر

مراكبه بأهوال تصيبه عليها، فمنها ما أدركته عشية العاشر من محرم عام 570 هـ وذلك أنه احتفل في مراكب كثيرة ونزل في ساحلها وحصّن على نفسه بما قدر، فما كان إلا أن عزم على المقارعة حتى صاح في الأعداء صائح، وصرخ بينهم صارخ، فولّوا مدبرين، وقَتَلَ بعضهم بعضا والحمد لله رب العالمين»[37].

وهذه الحادثة التي شهدها هذا «الناظر» والتي تلاقت عبارته في أن النصر فيها كان «رمية من غير رام» كما يقول في وصفها القاضي الفاضل، ذكرها عدد من المؤرخين بتفصيل[37].

ونحن نعتبر النص المذكور من القرائن التي تجعل افتراض نسبة كتاب الاستبصار إلى ابن عبد ربه افتراضاً قائما فقد ذكر ابن عبد الملك ثم ابن الخطيب أن ابن عبد ربه زار الاسكندرية واتصل خلال مقامه بها بعلمائها، وعلى رأسهم قاضي البلد يومئذ وهو أبو عبد الله محمد ابن منصور الحضرمي الصقلي الاسكندراني المالكي، وهو من بيت علم ورواية، كان جده وأبوه وأخوه كلهم علماء، وقد مات سنة 589 هـ[38]. وَإن عبارة ابن عبد الملك التي يقول فيها : «لَهُ رِحْلة سمِع فيها بالاسكندرية عَلى أبي عبد الله ابْن مَنْصور وغيره» تجعلنا نعتقد أنه أخذ عن بقية الأعلام المشهورين في الاسكندرية في هذا التاريخ ومنهم أبو الطاهر إسماعيل ابن عوف (ت 581 هـ) وأبو القاسم مخلوف بن علي بن جاره المغربي الأصل (ت 583 هـ) وهؤلاء الأعلام من الأئمة الذين نشروا الفقه المالكي وعضدوا المذهب السني في الاسكندرية ومصر بعد الغاء صلاح الدين لدعوة الفاطميين.

وفي ترجمة أبي الربيع سليمان الموحدي التي نقلها جامع كناش «واسطة العقدين» أنه «أجاز له من الاسكندرية الإمامان أبو الطاهر ابن عوف وابن جاره» ونحن نَظنُّ أن الذي حمل هذه الإجازة إلى أبي الربيع هو كاتبه ابن عبد ربه[38م] وَنُشيرُ كذلك إلى أنّه في سنة 570 هـ. كان يوجد بالاسكندرية أندلسيون ومغاربة آخرون منهم المؤرخ اليَسع بن عيس وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن التجيبي، وهما من الآخذين كذلك عن أبي الطاهر السلفي وأبي الطاهر ابن عوف وأبي عبد الله محمد ابن مَنْصور[39]، وتتبع الآخذين عنهم من الأندلس والمغرب يخرج بنا عن الموضوع.

وقد أقام ابن عبد ربه كذلك في القاهرة واتصل بأدبائها وشعرائها، وأشهرهم يومئذ ابن سناء الملك. قال صاحب المعجب : «وَلَهُ رحمه الله رحلةٌ إلى مِصْر لَقِي فيها ابْنَ سَناءِ الْمُلْك وأخذ عَنْهُ شِعْره، وهو أوّل مَنْ سمعتُه يذكرُه عندنا ويروي

شعره»[39م]، وذكر المقري بيتين وردا في مقامة صنعها في وصف مصر، ويبدو أنّهما في وصف جزيرة الرّوضة الواقعة في وسط النيل، ولو وصلتنا هذه المقامة أو الرّسالة التي وصف فيها ما جرى له بمصر، وحذر فيها من الأسْفار لعرفنا سببَ هذه الرحلة وطبيعتها، وأغلب الظن أنها كانت رحلة سفارية، وقد كانت بواعث السّفارات إلى مصر موجودةً اذ أصبحت مصر على حدود امبراطورية الموحّدين، وكان قراقوش الأرمني ــ وهو غير قراقوش المشهور ــ قبل استسلامه يثير الشغب على هذه الحدود مدفوعاً من سيده ومولاه تقي الدين الأيّوبي ممدوح ابن سناء الملك. ولهذا وغيره كانت العلاقة بين الأيوبيين والموحدين مشوبة بالحذر والتوتّر في البداية، ثم كانت الدعوة والرغبة في التعاون لرد هجمات الصليبيين في المشرق والمغرب. ولهذا استقبل بلاط الموحدين سفيرين من مصر فيما هو معروف، أولهما شمس الدولة عبد الرحمٰن بن محمد ابن منقذ وقد أشار صاحب «الاستبصار» ــ وهو ابن عبد ربه فيما نقدر ــ في سياق حديثه عما وقع في الاسكندرية وغيرها من فتوحات إلى قدوم المذكور على رأس سفارة إلى المغرب عام 587 هـ كما تحدثت مصادر أخرى عن هذه السفارة بتفصيل.

أمَّا السَّفير الثاني فهو تاج الدين عبد الله بن عمر المشهور بابن حمويه السرخسي وسفارته مشهورة ومدونة[40].

ونحن نقدر أن الموحدين بعثوا هم أيضا سفراء إلى صلاح الدين، ورُبّما كان ابن عبد ربه الحَفيد أحدهم وثمة قرائن مختلفة تشير إلى أن وجودَهُ في مصر كان للقيام بمهمة سفارية[40م]، وذلك لأن رحلته لم تكن لطلب العلم أو بنيّة الحج، كما أنه كان مصحوباً بوفد أو شبه وفْد حسبما يستفاد من نفح الطيب.

لقد ذكرنا فيما سبق أنه مر بجزيرة صقلية وأنه وصفها في كتاب رحلته، وها هو وصفه لها كما نقله ابن سعيد في «المغرب» :

«صقلّية جزيرةٌ منقطِعة في البَحْر، شَكلُها مثَلّث حادُّ الزّوايا : زاويةٌ شَمالية، وفيها مدينة مسّيني المشهورة بكثرة العنب والخمر، وهناك المجاز الضيق إلى الأرض الكبيرة أكثر ما يكون قدر ستة أميال، وزاوية قَبْلِيّة وفيها باشْنُو، وهُوَ الْمَوْضع الّذي يَلي بَرّ طرابلس من إفريقية. وزاوية غَرْبية وفيها مدينة طَرّابنش. والجَبَلُ الذي فيه بُركان النّار في جزيرةٍ مُنْقطعة أَجْرد لا يُنْبت خُضْرة. وذُكِر أنّ صقلية كثيرةُ الزّلازل تَتَهَدّم مِنْها مَبانيها»[41].

وهذا الوصف الدقيق مما يقوّي عندنا أن ابن عبد ربّه هذا هو جامع كتاب «الاستبصار»، ويبدو هذا لمن يقارن بين الوصف المذكور وبين ما يجيء في كتاب «الاستبصار» بعد عبارة «قال الناظر».

وإذا كنّا نقدّر أنَّ ابْنَ عبد ربّه كانَ في الاسكندرية عام 570 هـ فإننا لا نعرف التاريخ الذي زار فيه صقلية. ونظن أن زيارته لهذا البلد كانت ــ كزيارته لمصر ــ لأسباب سفارية، ومن المعروف أنه كانت هناك علاقات حرب تارة وعلاقات سلم تارة أخرى بين المغرب وصقلية وتدل عليها الرسائل المتبادلة بين الطرفين، وهي منشورة.

ويخيل إلينا أن رحلة ابن عبد ربّه السفارية إلى صقلية كانت في أعقاب حادثة سجلتها المصادر المسيحية ولم تشر إليها المصادر العربية، وهي أن الأسطول الصقلي اعترض حوالي 1180 م طريق سفينة مغربية على ظهرها بنت للخليفة يوسف بن عبد المومن كانت متوجهة إلى إفريقية حيث يوجد الأمير «خطيبها» وتقول المصادر المذكورة إن الأميرة الموحدية حملت إلى بلاط جيوم الطيّب وبعد أن لقيت ما يليق بها من ٱلْعناية أعيدت إلى قصر والدها، وحسب المصادر المذكورة فإن الخليفة الموحدي الذي تأثر لهذه المعاملة أرسل في الحين رسولا إلى صقلية لشكر ملكها وعقد الهدنة بين البلدين، وعندما نرجع إلى المصادر العربية نجدها تذكر في أحداث 575 هـ جنوح ملك صقلية إلى السلم وطلب الهدنة وتنص على توجيه الرسل والهدايا إلى الخليفة يوسف الذي كان موجودا حينئذ في تونس كما أننا نستفيد من مصادرنا العربية أن الأميرة المذكورة هي زينب بنت الخليفة يوسف وزوجها هو ابن عمها أبو زيد بن أبي حفص الذي كان واليا على افريقية[41م]، وأما السفير المغربي الذي لم يذكر اسمه كذلك فهو فيما نقدر ــ ابن عبد ربه الحفيد الذي كانت له حظوة في البلاط الموحدي وقتئذ كما أنه كان موجودا في المنطقة بحكم كتابته عن السيد أبي الربيع وَالي بجاية، والمفروض أن الجميع كان في ركب الخليفة بتونس يومئذ، ويدفعنا إلى هذا الفرض والتقدير أن الرجل وجد في صقلية وترك لنا وصفاً لها سبق ذكره.

رأينا فيما سبق أن بعض المترجمين لابن عبد ربه الحفيد قالوا إنه حذّر في رحلته المدونة من الأسفار لما قاسى فيها، ونحن نعرف أنه بحكم وظائفه قد تنقل كثيرا في الأندلس والمغرب وافريقية بالاضافة إلى رحلته إلى مصر وصقلّية. ولاشك أنه رافق حركات خلفاء المهدي إلى كل من الأندلس وافريقية وصحب السّادة الموحّدين الذين اشتغل كاتبا عندهم. وذكرت المصادر منهم أبا الربيع سليمان الذي كان واليا على بجاية والمغرب الأوسط مدة وعلى سجلماسة وتخوم الصحراء مدة أخرى[42]، وذكرت منهم

أيضا أبا محمد عبد العزيز الذي كان واليا على مالقة وأعمالها من سنة 598 هـ إلى سنة 603 هـ[43]، وقد ولي ابن عبد ربه كذلك خطة الإشراف في غرناطة وغيرها، وبالجملة فقد «تَلَبَّس بالأعمال السُّلطانية دَهْراً.. إلى أن أُقعِدَ مِنْ شكايةٍ بقَدَمِه مَنَعَتْه مِن القِيام والتّصرُّف فعكَفَ على النّظر والمُطالَعَة فانْتَفَعَ بذلك»[44] كما يقول ابن عبد الملك، وتستوقفنا في هذا الكلام عبارة «فعكَفَ عَلَى النَّظَرِ» وذلك من حيث علاقتها بعبارة : «قَالَ النّاظر» المستعملة كثيراً في كتاب الاستبصار، والناظر يمكن أن تعني الناظر بتكليفٍ في كتاب مّا، ويمكن أن تعني ناظر الأشغال وقد وجدنا الاستعمال الأول في قول أمير من أهل هذا العصر كلّف كاتبه بالنظر في كتاب وابداء رأيه فيه قائلا من أبيات

وَلَـــمْ أَفْـــرُغْ لأَنْظُـــرَهُ وَمِثْـلُكَ مَـنْ كَفَـى النَّظَـرَا[45]

أما الناظر بمعنى ناظر الأشغال فقد كانت خطة معروفة يومئذ، وسواء أكان المقصود بها المعنى الأول أم المعنى الثاني فإن المعنيين معاً ينطبقان على ابن عبد ربه الحفيد.

ذكرنا أن ابن عبد ربه هذا تنقل كثيرا في الأندلس والمغرب الأوسط وغيرهما ونقتصر هنا على مثالين في هذا الصدد، فقد شهد وَقْعَة الأَرْكِ المشهورة عام 591 هـ ويروي عبد الواحد المراكشي أنّ الخليفة أقام بعد هذه المعركة في اشبيلية، وأمر بعَرْض الجيش في السّلاح التام، فلما أعجبه ما رأى من حسن هيآتهم صلّى ركعتين شكرا لله عزّ وجلّ، واتّفق أن نزل الغيثُ مِدرارا فقالَ ابنُ عبد ربه قطعةً منها :

يالَيْتَ شِعْرِيَ ما شَيْءٌ دَعَوْتَ بِهِ قَبْلَ السَّلاَمِ وَمِنْ بَعْدِ التَّحِيَّاتِ
شَيْءٌ تَأَثَّرَ مِنْهُ الجَوُّ فـاتَّصَلَتْ مِـنَ السَّحَـائِبِ رَايَاتٌ بِرَايَـاتِ
مِنْ كُلِّ وطْفَاء لَفّاء الرّباب هَمَتْ ماءً نَقِيًّا عَلَى زُغْـفٍ نَقِيّـات
قُلْ كَيْفَ لاَ يَفْتَحُ الله الْبِلاَدَ وَقَدْ تَفَتَّحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ[46]

ولما قُتل السيد أبو عمران بن يوسف بن عبد المومن إثر ولايته تلمسان وحركته المُتسرّعة لمحاربة ابن غانية عام 605 هـ رثاء ابن عبد ربه بأبيات يقول فيها :

وَلَمّـا دَهَتْ خَيْـلُ الشَّقِيِّ فُجَـاءَةً وَسَالَ الْعِدَى بَحْراً مِنَ الْمَوْتِ مُزْبِدَا
شَهِـدْتَ بِوَجْـهٍ كَالْغَزَالَـةِ مُشْرِقـاً وَإِنْ كَانَ وَجْهُ الشَّمْسِ بِالنَّقْعِ مُزْبِدَا
عَزَائِـمَ صِدْقٍ لَيْسَ تُعْـرَفُ هَكَـذا إِلَى الْمَوْتِ تَسْعَى أَوْ عَلَى الْمَوْتِ يُعْتَدَى[47]

وقد تدل هذه الأبيات على أن الكاتب الشاعر شهد هذه الواقعة، ووصْفه يتّفق تماما مع ما جاء في البيان المغرب وهو : «وَلم يكُن إلا قَبْل أَنّ يَلْتَئِمَ جَمْعُهُ ويُكْمِلَ تَعْبِئَتُه، ويَأْخُذَ أُهْبَتَه.. إذْ غشيَتْه أَسْرابُ العَدُوّ كالْجَراد المُنْتشر، وطَلَعَتْ عَلَيْهِ ساقاتُ ابْنِ غَانية وكَانَ لَهُ كالمُنْتَظِر، فثَبَت السَّيِّدُ مَعَ مَنْ كانَ في مَوْكِبه مِنْ خَاصَّتِه..»[48] وكلمة «الشقي» التي استعملها ابن عبد ربه في وصف ابْنِ غانية تكرر استعمالها في وصفه أيضا في الاستبصار[49].

ورثاء ابن عبد ربه للأمير المذكور في التاريخ المشار إليه ذكره المقري في نفح الطيب، وهو يتعارض مع ما ذكر ابن عبد الملك من أن ابن عبد ربه «توفي لتسع خلون من محرم من عام اثنين وستمائة وهو ابن سبعين سنة أو نحوها»[50]، وتجدر الاشارة إلى أن المصادر الأخرى لم تتعرض إلى ميلاده أو وفاته أو سنه. وقد كان ابن عبد الملك هو الوحيد أيضا الذي ذكر بعض مؤلفاته ولكنه لم يستقصها كما هي عادته، كما أنه لم يشر إلى معلومات أخرى تتعلق به وردت عند غيره، وبخصوص مؤلفات ابن عبد ربه الحفيد يقول صاحب «الذيل والتكملة» : «وله اختصارٌ حسن في أَغاني الأصْفهاني، ورَدٌّ جيّد على ابن غرسية في رسالته الشّعوبية لم يُقصِّر فيه عن إجادة»[51].

أما اختصار الأغاني فيبدو أنه هو الذي ينسب إلى مخدوم ابن عبد ربه أبي الربيع كما نُسب إليه كثير من شعر ابن عبد ربه. وهذه المسألة الانتحالية الأخيرة معروفة نبه عليها عبد الواحد المراكشي وغيره قديما وكتب فيها الأساتذة عبد الله كنون وعباس الجراري ومحمد بن تاويت التطواني[52].

وأما ردّه على ابن غرسية فهو واحد من أكثر من عشرة ردود معروفة، وكلّها لكتاب أندلسيين من عصر الموحدين[53]، ويبدو أن هذه الردود التي تسفّه الشُّعوبية كانت بإيعاز من بني عبد المومن[54].

ومما يلاحظ هنا أن ابن عبد الملك لم يتعرض بشيء إلى رحلة ابن عبد ربه التي سميت رسالة تارة ومقامة تارة وكتابا تارة أخرى، كما أنه لم يذكر كتاب الاستبصار على فرض أنه لابن عبد ربه، وهو الفرض الذي تشهد له قرائن متعددة أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ومن بينها أيضا أن ابن عبد ربه كان له «تحقق بشيء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق»[55] وهذا ينطبق على جامع «الاستبصار» الذي يبدو في هذا الكتاب هرمسيا ملما بالكيمياء القديمة والهندسة والفلك، عارفا بكتب أرسطو،

فهو يقول مثلا : «وهَذا الْقَلَمُ (يعني القلم الهيروغليفي) هُو الْمُسَطَّرُ في كِتاب السِّياسَة لأرِسطو، وهو كتاب مشهور»[56]. بل انه كان صديقا لابن رشد قطب المشتغلين بالفلسفة في وقته، ويوجد في نسخة مخطوطة من «الاستبصار» نص طويل يتعلق بالرصد وحركة قلب الأسد وكيفية حركة الأفلاك والكواكب الثمانية، وقد ورد خلال هذا النص ما يلي : «وأخبرني ابن رشد سنة أربع وثمانين وخمسمائة أنه بقي من هذه الحركة وترجع نحو الستين سنة...»[57]. ومن المعروف أن ابن رشد الذي رجع إليه صاحبنا جامع «الاستبصار» كان يهتم بعلم الفلك ويشتغل بالرصد وله مقالات وتلاخيص في «الآثار العلوية وحركة الجرم السماوي». ومما جاء في كتابه «تلخيص السماء والعالم» قوله :

«وسُهَيْلٌ لا يظهر في بلادنا هذه الّتي هي جزيرة الأندلس إلا ما يُحكى أنه يظهر في الجبَل المعروف فيها بجبل سُهَيْل وهو يظهر في بلاد البربر خلف البحر الذي بيننا وبينهم المسمّى بالزقاق، وقد عاينتُ أنا بمرّاكش في عام ثمانية وأربعين وخمسمائة كوكباً لا يظهر من هذه البلاد وذلك على الجبل المعروف بِجَبل درَن فزعموا أنه سُهيل»[58].

ومن القرائن التي يمكن أن نعتدّ بها في العلاقة بين كتاب الاستبصار وابن عبد ربه هذا النص الوارد في ديوان الأمير أبي الربيع وهو : «ومن نظمهم ادام الله علاهم إجازَة هذا البيت لأحد كتابهم :

أَلِفْتُ بِتِلِيتَ السُّهادَ وَعَلَّمَتْ ... بَرَاغِيثُها جَنْبَيّ حُسْنَ التَّقَلُّبِ[59]

وكاتب أبي الربيع قائل هذا ينبغي أنْ يكون ابن عبد ربه، أمّا «تيليت» فلم يتحدّث عنها أحد قبل جامع الاستبصار الذي يقول فيها : «مدينة تيليت هي متوسطة بين القبائل القَبْلِيّة (أي الجنوبية)، وعلَيْها تمُرُّ القوافل، وفيها حِصْنٌ منيع رُتِّب فيه الجند، وعَمَره الوالي، وحَوله الأعناب الكثيرة والثّمار والْمِياه المطَّرِدة والْعَمائر»[60].

فصاحب هذا الوصف هو نفسه في نظرنا قائل البيت المذكور الذي عاش مع أميره في إقليم سجلماسة حيث تقع البلدة المذكورة.

وقد حاولت أن أستشِفّ ما يمكن أن يشهد لأُطروحتي أيضاً من أسلوب الكتابة في ديباجة الاستبصار وخاتمته وفي ديباجة اختصار الأغاني، فوجدت أولا أنّ ديباجة هذا الأخير تبدأ كما يلي : «الحمدُ لله خالِقِ اللّوحِ والْقَلَم، ومفضِّلِ العَرب عَلى الْعَجَم..»[61]. وهذه الفقرة تَشي في نظري بأن هذا الاختصار المنسوب إلى أبي الرّبيع

ليس من وضعه، وإنّما هو من وضع ابن عبد ربّه الذي لَهُ رسالةٌ في تفضيل العرب على العجم، وقد ردّ بها على ابن غرسية كما تقدم، وهذا يؤيد ما ذهب إليه ابن عبد الملك من نسبه هذا الكتاب إلى كاتب الأمير المذكور.

ثُمّ وجدتُ ثانيا أنّ صيغ الدعاء والاعتذار في الموضعين المذكورين متقاربة ومتشابهة، ونستطيع أن نلحظ التشابه في قوله معتذرا عمّا قد يكون من تقصير في مقدّمة الاستبصار : «ولِلْمَوْلى أدامَ اللّه تأييدَه، ووصَلَ سُعودَه، أن يقدِّر عبدَه فيما أوردَه، ويحقّق فيما رجاه أمَلَه ومعتمدَه، فانه ــ وان كان قد أنفدَ وَسْعه في الاختيار، وتوسَّطَ بيْن الإقْلال والإكثار ــ **حَرِيٌّ بالإحسان ظَنّا**، ويَرَى التّغميص عَنْ هَنَاتِه سنّا»[62].

وقوله في مثل ذلك في ديباجة «اختصار الأغاني» : «فليُغْضِ ناظِر مختصرنا على زلله، وليصْفحْ عن خطائه وخطَلِه، **وليُحْسِنْ بِهِ ظَنَّه**، وليرع إلى ما قدمناه من بسط العذر في التقصير أذنه»[63].

وقد يقال اذا كان كتاب «الاستبصار» لابن عبد ربه المذكور فما باله لم يورد فيه مثلا شعره في وصف منار الاسكندرية ولقاءه لابن سناء الملك في القاهرة وما أشبه هذا.

وقد نجيب على ذلك بأن الكتاب يقوم على الاختصار وأنه كتاب جغرافية وتاريخ وليس كتاب أدب ثم إنه وضع على شرط المؤلّف له فلا مجال فيه للحديث عن النفس ممّا قد يْعَدُّ خروجا عن الأدب والموضوع.

وأخيراً فانّ نُقول التمجروتي عن ابن عبد ربّه تظَلُّ أقوى القرائن التي لدينا في نسبة كتاب «الاستبصار» لحفيد صاحب العقد.

إن كتاب «الاستبصار» هو كما سبق أن ذكرنا عبارة عن اقتضاب من «المسالك والممالك» للبكري من جهة وإتمام لبعض مواده من جهة أخرى، وكأنّي بسادة الموحدين وشيوخهم الذين كانوا يهتمون بأحوال البلدان في وقتهم دعوا بعض كُتّابهم إلى تكملة هذا الكتاب وذلك بإضافة المعطيات الجغرافية والتاريخية التي ظهرت بعد البكري، وقد قام بهذا العمل اثنان من كتّاب الموحدين فيما نعرف هما : جامع «الاستبصار» الذي نقدّر أنه ابن عبد ربه.

أما الكاتب الثاني فهو أبو الحكم عبيد الله ابن غلندُه السَّرقُسطي الذي توفي بمدينة مراكش سنة 581 هـ «وكان يشارك في فنون من الأدب والطب» كما وصفه

ابن الأبار في تحفة القادم، وقال في التكملة : «وكتب علما كثيرا وكل ما وجد من تقييداته ففي غاية الافادة»[64] ولم يسم ابن الأبار شيئا من تقييدات هذا الطبيب الأديب الذي كان من أطباء يعقوب المنصور المقربين[65]، وقد وقفنا في كتاب صلة السمط وسمة المرط لابن الشباط على ما يلي : «اعْلَمْ أَنّ ما أُورِدُه مِن الأوصاف عَن الْبَكْري رحِمه الله فهُوَ من كتابه المعروف بـ«المسالك والممالك» من نسخة متمّمَة بتَتْميم الكاتِبِ الأجلّ أبي الحكم ابن غَلِنْدُه رحمه الله، وأعارض ذلك بنسخة غير متممة الا أني أختصر من ذلك ما أرى اختصاره»[66]. وقد نقل ابن الشباط عن أبي الحكم وصفا لصقلية وهو في رأينا أنموذج لتصرّف ابن غلنده في «المسالك والممالك»، ونفهم من كلام ابن الشباط ونقوله أن تصرف ابن غلنده في كتاب البكري كان تصرفا شاملا وأنه تتبع بالتتميم جميع أجزاء الكتاب، أما تصرف صاحب الاستبصار الذي هو ابن عبد ربه فيما نقدر فهو تصرف جزئي لأنه اقتصر على ما يتعلق بوصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب ولعله اقتصر على هذا تلبية لاقتراح من كلّفه أو تكون النسخة التي كلف بتجريدها غير تامة، وهو يصرح بهذا في آخر النسخة المطبوعة هكذا : «قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ولقد أحسن واضعه.. وهذا لعمري أقرب وأخصر من غيره، ففيه ما في غيره، وليس في غيره ما فيه، وحققت وطرزت كتاب الواضع، بما قيدت في هذه المواضع»[67].

ومن هذا النص نفهم أن الأمر يتعلق باختصار قصد فيه إلى التقريب والتبسيط.

وقد وجدنا كتَبَةً آخرين يقومون باختصارات لكتب مشهورة في هذه الفترة، فقد اختصر ابن المرخي ليوسف بن عبد المومن كتاب «الغريب المصنف» واختصر له أيضا كتاب «اليتيمة»، واختصر الكاتب ابن عياش كتاب «اصلاح المنطق»[68]، واختصر صاحبنا ابن عبد ربه وعلي بن نجبة وعلي بن سعد الخير كتاب «الأغاني»، وفي هذا السياق يندرج اختصار «المسالك والممالك» من قبل الكاتبين المذكورين.

وتجدر الاشارة إلى أن النسخة المراكشية المخطوطة تختلف في كثير من المواضع عن الطبعة المحققة التي أخرجها الدكتور سعد زغلول عبد الحميد والتي اعتمد فيها على ثلاث مخطوطات، وتتميز هذه النسخة المراكشية بزيادات مهمة وهي تخلو من بداية الديباجة الواردة في المطبوع التي تتضمن اهداء الكتاب والتي ورد فيها الدعاء ليوسف بن عبد المومن، وجاء في آخرها ما يلي «وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوي على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الأيام السعيدة الإمامية، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العالية من مفاخر هذا الأمر العالي أبد الله دوامه سنة 580 هـ

وهو ما يزيد عندي من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء إلى حيث يبلغ بي الزمان، فهو عملي وسعيي، ونصيبي من الجهاد ورأيي»[69].

والسنة المذكورة هي التي توفي فيها يوسف بن عبد المومن وبويع فيها ولده يعقوب، ولذلك لا نعرف من هو المرفوع اليه ولا نعرف كذلك ما هو هذا المرفوع، والواقع أن هذه الفقرة التي تنفرد بها مخطوطة باريز تكاد تشوش على مجرى افتراضنا الذي بدا قائما حتى الآن، وذلك أنها قد تفتح المجال أمام افتراض آخر، وربما يفهم من لهجتها أننا أمام كاتب من كتاب الخليفتين يوسف ويعقوب كابن محشرة الذي سبق ذكره أو مؤرخ من مؤرخيهما كيوسف بن عمر، غير أن هذا الافتراض مستبعد تدفعه القرائن السابقة ويرده ابتعاد أسلوب الاستبصار عن أسلوب السجع الذي يلتزم به الكاتبان المذكوران، ويضاف إلى هذا أن النسخ الأخرى الموجودة من الاستبصار لا تشتمل على هذه الفقرة بل ان خاتمة المخطوطة المراكشية جاءت بصيغة مغايرة نوردها فيما يلي :

«وفي البلاد عجائب وغرائب لا يُمْكِنُ حَصْرُها، ولا يقف أحدٌ بيْن المؤرخين عندَ انتهاء حدّها، لكنّا أَوْرَدْنا في مُخْتَصَرِنا هذا كلَّ ما رَأَيْنا وما تحصَّل لدينا من الثّقاة الرُّواة ليكون للمُسافرين دَليلا، وللنّاظرين في هذا العِلْم منهاجاً واضحاً وسَبيلا، والله تعالى يَنْفَعُنا بهذا القصد، ويُلْهمنا بتوفيقه إلى الرشد، ويَقينا الخطَل، ويَعْصِمنا من الزّلل، بمنّه وفضله، لاربّ غيره وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»[70].

وتدل هذه الفروق بين النسخ في المقدمة والخاتمة والزيادة والنقصان على أنّ جامع «الاستبصار» أخرج منه نسخا متعددة، وكان يتصرف في كلّ نسخة حسب الظروف، ففي هذه النسخة المراكشية ورد ذكر حطيم علي بن يوسف بن تاشفين في المسجد الحرام إلى جانب حطيم صاحب بغداد وحطيم شاه ملك العجم وغيرهما، والحطيم هنا عبارة عن رجل من خشب مصفحة بالنحاس تعلق عليها القناديل وتعلق منها باكواس من زجاج في رمضان «وكان حطيم علي بن يوسف ينظر إلى الركن الغربي..»[71].

وهذه الاشارة تقفنا على اقدم مساهمة ملكية مغربية فيما نعلم بالحرم المكي، ولعلّها حذفت من النسخ الأخرى مراعاة لِلْموحدين، وفي هذه النسخة ورد كذلك

تسمية المسدد لنفقات سقاية جامع الأندلس وهو الشيخ أبو عمران موسى بن سدّات المكلاتي[72] ولا ذكر له في النسخ الأخرى. وثمة زيادات متعددة في مادتي مراكش وفاس وغيرهما وسوف أثبت نماذج منها في آخر هذا البحث.

لقد أعادت دار النشر المغربية طبع هذا الكتاب بالتصوير أخيرا، وكان ينبغي أن لا يعاد طبعه إلا في ضوء النسخة المراكشية نظرا لما فيها من زيادات وفروق مفيدة.

الحــواشـــي

(1) نشر هذا التلخيص أو المختصر بعناية الأستاذ سعيد أعراب. انظر كتابه : «مع القاضي أبي بكر ابن العربي» : 183–227. نشر دار الغرب الاسلامي، 1987. كما نشر ضمن قانون التأويل بتحقيق الأستاذ محمد السليماني.

(2) «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» للأستاذ المنوني، ص 73 وما بعدها.

(3) «الذيل والتكملة» 8 : 383.

(4) اسم وقتين قد تكون له علاقة باسم واكْتن، ومن أصحاب المهدي الذين ذكرهم البيدق «الشيخ أبو محمد واكْتن الهرغي» وقد يكون مصحفا عن وقتين، وممن ينتسبون :إليه «الشيخ أبو بكر ابن وقتين» والشيخ سليمان بن الحاج عبد الله ابن وقتين أبو الربيع» والأول مذكور في أخبار البيدق : 60، 83 ومن المعروف أن كنية أبي بكر هي أبو يحيى أما الاسم الثاني فهو مترجم عند ابن الأبار في «الحلة السيراء» 2 : 295 وكان واليا على قابس وغيرها وعاملا على افريقية ونائبا على تونس.

(5) نذكر منها على سبيل المثال أخبار عبد الرحمٰن الناصر لمؤلف مجهول التي نشرها الأستاذ غرسية غومس، وذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول التي نشرها الأستاذ لويس مولينا ومفاخر البربر لمؤلف مجهول وقد نشرها ل. بروفنسال، وأخبار مجموعة في فتح الأندلس المنشورة في مدريد وغيرها.

(6) «الأنيس المطرب»، 45.

(7) «جذوة المقتبس» 1 : 47، 80، 82.

(8) «جني زهرة الآس» : 24، 38.

(8م) مجلة الثقافة المغربية يبراير، مارس 1942.

(9) «العلوم والآداب»، ص 88.

«(10) «الاستبصار» : 210.

(11) نفسه : 212.

(12) «الروض الهتون» : 5 المطبعة الملكية، 1964.

(13) «الاستبصار» : 218.

(14) نفسه : 165.

(15) نفسه : 49، 41، 86، 87.

(16) مقدمته للاستبصار : ث.

(16م) يقول ن. لفتزيون في نهاية بحث له عن كتاب «الاستبصار» مايلي : «إن دراستنا أدت بنا إلى اكتشاف ثلاث شرائح في الكتاب هي :

أ – نص البكري فهو أساس الكتاب بالنسبة للمغرب والسودان الغربي.

ب – كتب النص الأصلي لكتاب «الاستبصار» في حدود عام 1135 م وقد أضاف المؤلف إلى نص البكري ـــ اعتماداً على أسفاره وعلى ما استقاه من المسافرين ـــ معلومات عن آثار الهجرة الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط ومعلومات عن فترة المرابطين في المغرب والسودان الغربي.

ج – مراجعات وإضافات قام بها «الناظر» الذي أتمّ الكتاب في شكله الأخير عام 1191/587 م وكان همه أن يضفي على الكتاب طابعاً موحّديا.

لذلك فان على الباحث والمؤرخ عند استعمال الكتاب أن يكون حذراً وأن يحدّد الشريحة التي يستعملها».

(17) «النفحة المسكية» : 12، 13، 14، 16، 24، 27، 32، 59، 63.

(18) ذهب بعض الدارسين المحدثين اعتمادا منهم على فقرات مدسوسة في العقد إلى أنه زار المشرق وحج، ومن هؤلاء أحمد أمين وأحمد هيكل ومحمد شفيع. راجع كتاب ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ص 142 وما بعدها و«ظهر الاسلام» 3 : 85 و«الأدب الأندلسي» لأحمد هيكل، ص 223 وما بعدها من الطبعة الثامنة.

(19) راجع كتاب ابن عبد ربه وعقده ص 132، (الطبعة الثانية).

(20) «النفحة المسكية» : 24.

(21) «الاستبصار» : 127.

(22) «الأنيس المطرب» : 45 ط. دار المنصور. و«جنى زهرة الآس» : 23–24.

(23) «المعجب» : 297–300، ط 1949.

(24) ص 94 تحقيق الأبيارى.

(25) ج 3 ص 204.

(26) ج 1 ص 427، تحقيق شوقي ضيف (الطبعة الأولى).

(27) يوجد الوصف المذكور في الجزء الرابع (مخطوط دار الكتب رقم 2712) وقد نشره موريتز في العيد المئوي لميلاد ميشيل أمارى، المجلد 1 : 293–300.

(28) ج 6، ص 487. وفي ص 378 نجد الترجمة التالية : «محمد بن عبد ربه بن محمد بن البقاء بن عبد ربه القيسي : اشبيلي، كان حيا سنة 550 هـ» والظاهر أن هذا شخص آخر.

(29) ج 3، ص 228.

(30) ج 2، ص 97، 98، 119، 119. تحقيق احسان عباس.

(31) مرة في ترجمة الرصافي البلنسي ومرة أخرى في ترجمة الأمير أبي محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المومن.

(32) المغرب 1 : 427 ويبدو أن في العبارة قلقا أو خللا وقد يكون أصلها هكذا : «وله رسالة [كتبها] في صقلية» أو هكذا «وله رسالة في تنقله».

(33) العيد المئوى لميشيل أمارى 1 : 293.

(34) «نفح الطيب» 2 : 97.

(35) نفسه

(36) راجع «رحلة ابن جبير» و«الذيل والتكملة» 5 : 689 – 690.

(37) «الاستبصار» : 104، وفي النسخة الخطية بعد قوله «بأهوال تصيبه عليها» مايلي : «وذلك أنه لما نزلها عشية العاشر من محرم عام سبعين إلخ».

(37م) من هؤلاء المؤرخين ابن الأثير في «الكامل»، 11 : 570، وأبو شامة في «الروضتين»، 1 : 234، والحموى في «التاريخ المنصوري» والقاضي الفاضل الذي خصها برسالة أسماها الالمام والاعلام، فيما جرت به الأحكام، من الأمور المقضية، في معركة الأسكندرية وهي منشورة في المكتبة الصقلية (الملحق الثاني من ص 19 إلى ص 25).

(38) «الذيل والتكملة» 6 : 487، وانظر ترجمة أبي عبد الله محمد ابن منصور في «سير النبلاء» ج 21 ص 216، 217 والمصادر التي ذكرت في الحاشية.

(38م) أنظر تراجم المذكورين في «سير أعلام النبلاء» 21 : 122 و«شذرات الذهب» 4 : 276، و«واسطة العقدين» ج 1 ص 327.

(39) «الذيل والتكملة» 6 : 352، 356، 357 والمعجم لابن الأبار : 322.

(39م) «المعجب» : 299. وفي «نفح الطيب» 2 : 98 : «واجتمع ابن عبد ربه المذكور في رحلته بالسعيد ابن سناء الملك، وأخذ عنه شيئا من شعره ورواه بالمغرب».

(40) أنظر «الاستبصار» : 107. و«البيان المغرب» (الموحدي) : 209. و«نفح الطيب» 1 : 444 – 445 وج 3 : 99 – 110، والمصادر التي أشار إليها المحقق الدكتور احسان عباس.

(40م) لعل مما يقوى هذا ما وجدناه في تاليف له مخطوط تحدّث فيه عن الفازات أي الفساطيط ووصفها بأنها «مصورة كلّها موشاة بالألوان والصور المطبوعة على احتفالهم في فازات الملوك عندهم أبصرت ذلك في تلك الديار» كما تحدث عن بعض العادات الخاصة قائلا : «أبصرت الظرفاء بديار مصر يفعلون ذلك يحيي بعضهم بعضا ببواكير الأزهار في زمن الربيع» وقد تحدث ابن عبد ربه الحفيد في هذا التاليف المخطوط عن أهرامات الجيزة ودواميس الأسكندرية ووصف ما بداخلها وصور الهرمين تصويراً تقريبيا وسنفصل هذا في العدد القادم إن شاء الله. وراجع وصف كسر الخليج، وخميس العدس في الاستبصار : 49، 98.

(41) العيد المئوي لميلاد ميشيل أمارى 1 : 293 – 300.

(41م) وضع الشاعر الشريف مولاي علي الصقلّي حول هذه الحادثة رواية شعرية عنوانها : الأميرة زينب. (1989).

(42) راجع في أبي الربيع رسالة الزميل الدكتور عباس الجراري.

(43) «المعجب» : 245، 329، 334 و«أعلام مالقة» : 133 (مخطوط) و«الذيل والتكملة» 8 : 236.

(44) «الذيل والتكملة» 6 : 487.

(45) «الذيل والتكملة» 8 : 280.

(46) «المعجب» 297.

(47) «نفح الطيب» 2 : 98.

(48) البيان (الموحدي) : 252.

(49) «الاستبصار» : 111، 112، 150، 155، 159.

(50) «الذيل والتكملة» 6 : 487.

(51) نفسه.

(52) وردت الجملة في المطبوع كما يلي : «وهذا القلم هو المسطر في كتاب السياسة الأوسط، وهو كتاب مشهور» وقد رجعنا إلى كتاب السياسة فلم نجد فيه شيئا مما تشير إليه هذه الجملة.

(53) نشر بعضها بتحقيق عبد السلام هارون وتوجد الاشارة إلى بعضها في «تحفة القادم» : 38 و«الذيل والتكملة» 1 : 249، 5 : 154 وبرنامج الرعيني : 194. وقد وقفت على بيت لابن عبد ربه الحفيد في تفضيل العمائم على التيجان يقول فيه :

لأثوا العمائمَ مُرْخاة ذوائبُها ... ياذِلّةَ التاج لِلْمُرْخى مِن آلْعذب

ويبدو أنه ممّا ورد في رسالته المذكورة.

(54) يحملنا على هذا القول أن معظمها ظهر في عصر الموحدين وأن جلها لكتاب شغلوا وظائف في هذا العصر، ولعل لها ارتباطا بانتساب عبد المومن وبنيه إلى القيسية وجلبهم الأعراب واستعانتهم بهم في الأندلس.

(55) «المعجب» : 297–298.

(56) هكذا ورد النص في مخطوط «الاستبصار»، وهو في المطبوع كما يلي : «وهذا القلم هو المسطر في كتاب السياسة الأوسط وهو مشهور» ومن الواضح أن الأوسط تحريف لأرسطو.

(57) الاستبصار : 27 مخطوط، وفي النص الملحق بهذا البحث إشارة إلى ما زعمه المنجمون سنة 582 هـ من خراب العالم بسبب اجتماع الكواكب الستة في الميزان؛ وكتبوا بذلك إلى جميع البلدان من الهند إلى الأندلس واستعد الناس لذلك بحفر المغارات. أنظر الروضتين لأبي شامة 2 : 72، و«شذرات الذهب» 4 : 273 و«ألف باء» 2 : 205، 206 و«الذيل والتكملة» 4 : 210 وما بعدها.

(58) تلخيص «السماء والعالم» : 275 تقديم وتحقيق جمال الدين العلوي.

(59) «ديوان أبي الربيع» : 88. ونشير كذلك إلى جبل زكّار قرب مدينة مليانة الذي دفن فيه والد الأمير أبي الربيع وأخوه، وورد ذكره في شعر منسوب لأبي الربيع (ديوانه :) فهذا الجبل لم يرد ذكره ولا وصفه إلا في «الاستبصار» الأمر الذي يجعلنا نربط بين هذا وبين ابن عبد ربه الحفيد كاتب أبي الربيع.

(60) «الاستبصار» : 200 «والروض المعطار» : 145 نقلا عنه دون أن يسميه.

(61) «اختصار الأغاني» مخطوط الخزانة العامة.

(62) «الاستبصار» : 3–4.

(63) «اختصار الأغاني». مخطوط خ : ع. ر.

(64) التكملة 2 : 938 و«تحفة القادم» : 71 و«طبقات الأطباء» 3 : 128–129 و«نفح الطيب» 3 : 597.

(65) «طبقات الأطباء» 3 : 128–129.

(66) المكتبة الصقلية لميشيل أماري : 109–213 و«تاريخ الأندلس» لابن الكرد بولس ووصفه لابن الشباط تحقيق أحمد مختار العبادي، ص 183. ومن الغريب أن الذين اهتموا بنسخ «المسالك والممالك» لم ينتبهوا

ملاحق الدراسة

1 – صاحب الاستبصار يناقش ابن رشد الحفيد في مسألة فلكية

«وَزَعَمَ آخَرُون أَنَّ قَلْبَ ٱلأَسَدِ إِذَا بَلَغَ آخِرَ الدَّرَجَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلأَسَدِ كَانَ طُوفَانٌ جَارِفٌ يَجْرِفُ ٱلْعَالَمَ بِأَسْرِهِ وَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ ٱلأَرْضِ حَيَوانٌ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ ٱلْبَارِيءِ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ مِنَ ٱلْخَلْقِ.

قَالَ ٱلْبَكْرِي فِي كِتَابِ ٱلْمَسَالِكِ وَٱلْمَمَالِكِ : إِنَّ ذَلِكَ لا يَصِحُّ لأَنَّ قَلْبَ ٱلأَسَدِ كَانَ يُرْصَدُ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ فِي ثَلاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ ٱلأَسَد، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلْيَوْمَ وَهِيَ سَنَةُ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمائَةٍ فِي آخِرِ ٱلدَّرَجَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْهُ[1].

قَالَ النَّاظِرُ : قَلْبُ ٱلأَسَدِ يَتَحَرَّكُ مِنْ مَوْضِعِهِ الذَّاتِي الَّذي هُوَ تِسْعُ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَثَمَانِي دَقَائِقَ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى تِسْعَ عَشْرَةَ دَرَجَةً مِنْهُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى تِسْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وتِسْعِ دَقَائِقَ مِنَ ٱلسَّرَطَانِ، فَجُمْلَتُهَا كُلُّها تِسْعَ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانٌ وَخَمْسُونَ دَقِيقَةً، وكَحَرَكَةِ قَلْبِ ٱلأَسَدِ تَتَحَرَّكُ ٱلْكَواكِبُ وَتَتَرَتَّبُ عَلَى مُرُورِهَا وعَلَى مَوَاضِعِها الذَّاتِيَّةِ.

وأَعْلَمَنِي ٱبْنُ رُشْدٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ أَنَّهُ بَقِيَ مِنْ هَذِهِ ٱلْحَرَكَةِ وَتَرْجِعُ نَحْوُ السِّتِّينَ سَنَةً، وَهَذِهِ حَرَكَةُ ٱلإِقْبَالِ وَٱلإِدْبَارِ، وَرَأْيُهُ فِيهَا أَنَّ فِي بَطْنِ الْفَلَكِ الثَّامِنِ مَلكًا يُحَرِّكُهَا مِنْ دَاخِلِهِ.

---

(1) هذا الكلام موجود في البكري (قسم مصر : 25) مخطوط خ.ع.ر. 488 ق وبعد هذه الفقرة مايلي : «وفي كتب السند هند وهو الذي عمل منه المجسطي وغيره..»

وَالْقَوْلُ أَنَّهُ يَجِبُ تَعْدِيلُهُ وَرَصْدُهُ فَإِنْ رَجَعَ فَالحَقُّ عِنْدَ أَصْحَابِ هَذِهِ ٱلْمَقَالَةِ دُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ، وَالْفَائِدَةُ فِيهَا مَعْرِفَةُ ٱلْحَادِثِ فِي حِينِ وُصُولِهِ لِمَوْضِعِهِ الذَّاتِي وَالْحَادِثِ فِي حِينِ انْتِهَائِهِ فِي الاسْتِقَامَةِ وَالرَّجْعَةِ، وَهُوَ ٱلآنَ فِي الاسْتِقَامَةِ إِلَى نِهَايَتِهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ٱلأَسْرَارِ وَالأَمْرُ قَرِيبٌ وَهُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ مَخُوفٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ ٱلأَرَاجِيفُ وَالنُّذُرُ وَخَلَّدَتْ فِيهِ العُلَمَاءُ التَّذَاكِرَ وَالْعِبَرَ، وَعِنْدَ الْوُقُوفِ عَلَى مُعَايَنَتِهِ يَصِحُّ ٱلْحَقُّ فَإِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مُشْكِلَةٌ بَيْنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِين[2].

قَالَ الْمُؤَلِّف[3] : وَفِي كِتَابِ السِّنْد هِنْد الَّذِي عُمِلَ مِنْهُ كِتَابُ الْمَجِسْطِي وَغَيْرُهُ أَنَّ أَوَّلَ دَوَرَانِ الشَّمْسِ مِنْ أَوَّلِ مَسِيرِها مِنَ ٱلْحَمَلِ إِلَى ٱنْقِضَاءِ مَسِيرِهَا آخِرَ ٱلأَبَدِ عَلَى مَا حَسَبُوهُ وَأَحَاطُوا عِلْماً بِهِ بِزَعْمِهِمْ أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ أَلْفٍ وأَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دَوْرَةٍ وَالدَّوْرَةُ فِي سَنَةٍ.

وَالْجُمْهُورُ مِنَ النّاسِ المُتَقَدِّمِينَ والْمُتَأَخِّرِينَ مُعْتَقِدُونَ أَنَّ ٱلْعَالَمَ مُحْدَثٌ إلاّ مَا قَالَهُ أَرِسْطَطَالِيسَ مِنْ أَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدِيمَةٌ وَأَنَّ الزَّمَانَ لاَ يَبِيدُ وَأَنَّهُ لاَ أَوَّلَ لَهُ وَلاَ آخِرَ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ ٱلْهِنْدِ، وَقَالَ نَفَرٌ مِنَ ٱلفَلاَسِفَةِ : الْعَالَمُ مُحْدَثٌ وَلَكِنَّهُ لاَ يَبِيدُ لأَنَّهُ حِكْمَةُ حَكِيمٍ والْحَكِيمُ لاَ يُفْسِدُ حكمته[4].

قَالَ النَّاظِرُ : فَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَفَهَّمَ كُلَّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْمَقَالاَتِ وَيَسْتَخْرِجَ ٱلْحَقّ مِنْ تَرْكِيبِ الْمَعَانِي بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَيَفْهَمُ حِينَئِذٍ القَدِيمَ وَالْمُحْدَثَ، وَلْيَعْلَمِ ٱلْعَاقِلُ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ حَيٌّ عَالِمٌ... فَمَنِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ فَقَدْ صَحَّ إِسْلاَمُهُ وَبَرِيء مِنْ قَوْلِ الطَّوَائِفِ».

الاستبصار المخطوط 27-28

(2) آخر كلام الناظر.

(3) هو البكري (المخطوط المذكور).

(4) آخر كلام البكري.

2 – خِطابُ[1] الخَليفة عَبْد المُومن بفَتْحِ مَرّاكش يَوْم السَّبت 18 شوال سَنَة 541 هـ

مِنْ أَميرِ الْمومنين أَيَّدَهُ الله بنَصْرِه، وَأَمَدَّه بمَعُونَتِه، إلى الطَّلَبَةِ والمَوّحدين والكافّة بمكْناسَة أدامَ الله كَرامَتَهُمْ بتَقْواه سَلامٌ عليكُمْ ورحمةُ الله، والحمد لله العاليةُ كَلِمتُه، الشّامِلةُ نعمتُه، الّذي لَمْ يزَلْ لأوليائِهِ عاصِما، ولأَعْدائه قاصِما، وصَلَواتُه علَى خَيْرِ خَلْقِه محمّدٍ وآلِهِ الّذي لَمْ يَزَلْ بيْنَ الْحَقِّ والباطِلِ فاصِما، ورضْوانُه عَلَى سُلالَتِه الإمامِ المعْصوم، المَهْدِيّ المَعْلوم، الّذي كان لهَدْيِه عليه السَّلامُ مُلازِما، وبِقِسْطِ عَدْلِهِ قائِماً.

وإنّا كَتَبْناهُ إِليكُمْ لازالت الْمَسَارّ تَرِدُكُمْ، والْبشائِرُ تَعْتمِدكُمْ، وجَنابُنا بِديَم نِعْمَة الله خَضِل، ومُقامُنا بتَرادُف الفُتوحاتِ الْجَمَّةِ هَطِل، إثْرَ ما يسَّرَهُ سُبحانَهُ مِنْ فَتْحِ الفُتوح بمَرّاكش الّذي تفتّحت لَه عَيْنُ الزّمان، وتهلَّلَ لَهُ وجْهُ الأمان، وقرّتْ بِهِ مِنْ أوليائه الأَبْصار، ودانَتْ له بحَوْلِهِ وقُوّته الأَقاليم والأمصار ؛ وشَرْحُ ذلك أَنّ الله تعالى لَمّا أرادَ قطْعَ مادّةِ الفَساد وتبَّ دِعامَة البَغْي والْعِناد، حَرّكَ عزمنا إلى نِزالِها وأَلْزَمَ قُلوبَنا تَطْهير الأرْضِ من أَرْذالِها، فعَزَمَتْ عَلَى ذلك آراؤُنا، وصَمّم عليه بعَوْن الله ابْتداؤُنا وانتهاؤنا، فنزَلَ حزبُ الله بساحتِها، واختطَّ الأَبْنِيَةَ عَلَى بركةِ الله بمِساحَتِها، فَعِنْدَما عايَنَ أَهْلُهَا ذَلِك، قَذَفَ الله تعالى في قُلُوبِهِم من الرُّعْب ما أيْقَنَ به مَلِكُهُمْ أَنَّه هالِك، وعَلِموا أَنَّ نُزول أَولياءِ الله بساحَتِهِمْ، مُوذِنٌ لا محالةَ باسْتِحالَتِهِمْ واسْتِباحَتِهِمْ، وسُقِط في أيديهم، ولم يَسْمَعُوا مَنْ يُنادِيهِمْ، فَأَقَمْنا لحِصْنِهِمْ مُحاصِرِين، وَمِنْ كُلِّ الْجِهات لَهُمْ قاصِدين، وَمالَهُم في الأرضِ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِين، والنُّحُوسُ تجدّدُ علَيْهِم بُرودَها، وَكَلِمةُ الخِزْي الّتي حَقّتْ بهِمْ مَع السَّاعات تُطْلِعُ عَلَيْهِمْ وَفودها، ونَصْرُ الله تعالى لَنا يَمْضي مَضاؤُه، ونَقْضِي بأَسْيافِنا فِيمَنْ يُبْرُزُهُ إِلَيْنا منْهُمْ قَضاؤُه، إلَى أنْ لم يشُكُّوا في ذَهاب رِيحِهِم وفَشَلِهِمْ، وأَنَّهُمْ إنْ خَرَجُوا فلَيْسَ إلاّ

(1) لم نقف على هذا الخطاب في غير المرجع، فتح مراكش مفصل في «البيان المغرب» (قسم الموحدين) : 25 – 30 و«الذيل والتكملة» 1 : 228

لاسْتِعْجالِ أجَلِهِمْ، فَرأَوْا عِندَ ذلِك مِنْ حِذارِهِمْ، ألاّ يُقاتِلُوا إلاّ مِنْ وراء جِدارِهِمْ، ظنًّا أنْ تَمْنَعَهُمْ حُصُونُهُمْ، فَأَبَى الله إلاّ أن تَكْذِبَ ظُنُونُهُمْ، وتَسْخَنَ بإقْرار عَيْنِ أوْلياءِ الله عُيونُهُم، فَقَارَبْناها بيُمْنِ الله مُتَبَرِّكين، وعَلَى حُسْنِ عَوْنِه الْمَعْرُوفِ مُوَرِّكين، والأَقْدارُ تَبْتَدِرُ إمضاءَ عَزْمِنا، والتَّوفِيق يُوَثِّقُ إبْرامَ حَزْمِنا، وأَخَذْنا بخِناقِهِم، وأَحْدَقْنا بجَمِيعِ آفاقِهِمْ، حَتَّى لاَيَنْفُذَ عَلَيْهِمْ مِنْ خارِجِ السُّورِ إلاَّ سَهْمٌ صائبٌ، أَوْ ما تشيبُ لَهُ مِنْهُمُ الذَّوائِب، فَتَجرّعَ الكفَرَةُ لِذَلِكَ صَابا، وَقَدْ كَانوا لَقُوا مِنْ شِدَّةِ الْحَصْرِ آلاماً وَأَوْصابا، وَأَقاموا كَذلِك يَمُوجُونَ بين الْجُدْرانِ فَوْضَى، حَتَّى أَكَلَ بَعْضُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ بَعْضا، وَمَع كُلّ ذلكَ فَما هُدُوا إلَى الاسْتِبْصارِ، وَلاَ وُفِّقُوا عَلَى الْفَيْءِ إلَى إبْصار، وَلَمْ يَزْدادُوا إلاّ تَسْويلا، وَلاَ أَمْلَى لَهُمُ الشَّيْطَانُ إلاّ تِغْريراً وتَضْلِيلاً، حَتَّى إذا تَمّ الامَد، وأرادَ تعالى أَنْ يُنْجزَ لَنَا مِنْهُمْ مَا وَعَد، أَغْرَى بِهِمْ عُصْبَةً مِنْ ولدانِ الْموحِّدينَ وَحَفَدَتِهِمْ، وَحَرّضَ عليْهِمْ زُمْرَةً مِنْ أصاغِرِ الغُزاةِ وشَبِيبَتِهِمْ، فَجَعَلُوا يَبْتَدِرُونَ مَرَاكِزَهُمْ [الأَماميّة بالْفُؤُوسِ والْمَعَاوِل] ويقْذِفونَهُم بما أَمْكَنَ مِنَ الْجَنادِل، حَتَّى كَسَرُوا ما كَانوا أعدّوهُ لِقِتَالِنا عَلَى أَسْوارِهِمْ مِنَ السُّرادِقاتِ وحَطَّمُوها، وهَشّموا مَا كَانَ عَلَى أَعْلَى السّورِ مِنْ تِلْكَ الأَبْنِيَّةِ وَهَدَّمُوها، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ لَهُمْ دَأْبا، حَتّى ثَلَمُوا في أَشْبَارَاتِ السُّور نَقْبا، فأَيْقَنَ عِنْدَ ذلِكَ الْمُوَحِّدونَ وفَّقَهُم الله أنَّهُ قَدْ تَيَسّرَ عِلاَجُها، وانْفَتَحَ لا محالَةَ رِتاجُها، فَنَهَضُوا إلَيْهِمْ مُسْرِعِين، وللتَّوْفِيقِ في حَزْمِهِمْ وعَزْمِهِمْ مُبْصِرِين ومُسْتَمِعين، فأَهَبّ الله تعالى رِيحَ نَصْرِهِ، وقَذَفَ في قُلُوبِ الكَفَرَةِ بما أَرادَهُ مِنْ قَهْرِهِ، فَيَئِسُوا مِنْ كلِّ شَيْءٍ إلاّ مِنْ فَراغِ أَيَّامِهِمْ، واسْتَبْعَدوا كُلَّ أَمَلٍ إلاّ حَتْمِ حِمامِهِمْ، فَوَلَّوْا أَدْبارَهُمْ، وَأهْمَلوا لِلْحِينِ سُورَهُم، ونَصَبَ الْمُوَحِّدونَ أَيَّدَهُم الله سَلاَلِيمِ مِنْ كُلِّ جهاتِه، وجَعَلوا يَتَسَبَّبُونَ إلَيْه مِنْ سائِرِ جَنَبَاتِه فَلَمّا أَبْصَرَهُم الْكَفَرَةُ عَلَى مُسْتَواه، أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ مَلَكُوه وَما حَواه، فانْهَزَمُوا في داخِلِ الْبَلَدِ فارّين، وانْجَفَلُوا عَلَى غَيْرِ الطَّرِيق مارِّين، والرِّماح إِلَى صُدُورِهِمْ تُشْرَع، والصَّوارِمُ في دِمائِهِمْ تكْرَع، وَعُيونُ الْمَنَايا تَرْتَصِدُهُمْ، وَأَيْدي الْحُتُوفِ تَحْصِدُهُمْ، فَما شِئْتَ مِنْ رؤوسٍ تُبْتَرُ، وَدِماءٍ تُهْدَر، حَتّى دُخِلَتْ عليْهِمْ مِنْ أبوابِها قَسْرا، وَفَتح الله مَغالِيقَها عَنْوَةً وقَهْرا، دُونَ مُوَاظَبَةٍ مِنْ أحد يَسْتَوْجِبُ عَلَيْها شُكْرا، ويَرْجو بِها عِنْدَ الله سُبْحانَهُ أَجْرا، فَأَيْقَنَ عِنْدَ ذلِك الشَّقي إسحاق، أَنّ الْبَلاَءَ قَدْ أَحاطَ بِهِ وَحاق، وَأَنَّهُ في عَيْنِ الهلَكَةِ والإِمْحاق، ومَلَكَتْهُ الرِّعْدة فَخابَ مَسْرَاهُ، ولَمْ يَعْرِفْ يُمْناهُ مِنْ يُسْراه، فَطارَ هُو وخاصَتُّهُ مِن الأَشْقِياءِ بأَجْنِحَةِ الْخَوفِ مَذْعورِين، بَلْ مَسْعُورِينَ، حَتّى أَتَوْا دَارَ اللّعين، أَبيهِ عَلي بْنِ يُوسف

بْنِ تاشفين بأجادير، لِيَتَحَصَّنوا بِهَا مِنْ حُتُوفِ الْمَقادِير، فَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ أَوْلِياءُ الله بكُلِّ مرْقَبٍ ومرْصاد، وَضَمُّوا إِلَيْهِمْ ما أَعَدّوهُ مِن الأَجْناد، عَلَى أتمّ التّهَمُّم وأكْمَل الاحْتِشاد، فَما زالُوا يُجَرِّعُونَهُمْ غُصَصَ الْمَنايا حَتَّى قَضَت السُّيوفُ مِنْهُمْ أَوْطارَها، وبَرَّدَتْ مِنْ دِمائِهِمْ غَليلِها وَ أُوَارَهَا، والْتَفّتِ السَّاقُ بالسّاق، وَرَأَوا الْمَنايا إِلَيْهِمْ مِن كُلّ جِهَةٍ تُساق، فَلَمّا عَايَنُوا ذلِك جعَلوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى آجالِهِمْ، ويَسْتَعْجِلُونَ ا لْمَنَايَا باسْتِبْسَالِهِمْ، فَلاَ تُبْصِرُ مِنْهُمْ إلاّ مُجَدّلاً أَو صَرِيعا، وَلاَ تُشاهِدُ فِيهِمْ إِلاّ مَنْظَراً فَظِيعا، حَتَّى فَنُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وأَتَى الْقَتْلُ عَلَى سائِرِهِمْ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ مِمَّنْ لَهُ اسْمُ الزَّعَامَةِ فِيهِمْ بَنُو عُمَرَ بْنِ علي بْنِ يُوسُف وَأَرْبَعةٌ مِنْ بَني أَبِي بَكْرِ بْنِ عَلّي بْنِ يوسُف وابنٌ لمُحمّد وابْنٌ لِتَميم، وعبد الله بن جَنّونة، وابْن أنجمار، وسِير بْن علي، وعبد الله بن يُنْتان ومحمّد بن حواء وأَبو غَيْلان، وبقي إسحاق في شِرْذِمَةٍ سِوَى هَؤُلاء، وهُمْ تاشَفين بنُ عُمَر بْن علي وَسير ابنُ الحاج وَأَبُو بَكر ابْنُ الحاج ومُحَمّد بْنُ أجَانا وَداوُد بن عزّة فَأُخِذَ هؤلاء الْمذكورُون مَعَ الشّقِيّ إسْحاقٍ مأسورين مُقَرّنين في الأصفاد، فأقاموا كَذلك وَنارُ الغلّ تَشِبّ مِنْهُمْ عَلَى الأَكْباد، بَعْدَما عُرِضوا على الْمَوْتِ عَرْضَ الْمُحْتَضَر، ثم وُخِّروا إِلَى الأجَل الْمَنْتَظَر، فَأقاموا كذلك أيّاماً خَزايا، لا يُعْدَمون رَزَايا، وَلاَ يَفْقِدونَ بَلاَيا، قد أَسْلَمَتْهُمْ جَرائِمُهُمْ وَأَوْبَقَتْهُمْ كَبائِرُهُمْ، حَتّى أَذِن الله بِفَرَاغِ أَيَّامِهِم، فَتَمَّتْ مُدّتُهُمْ وَحانَ حِيْن حِمامِهِمْ، فَأَتْبَعْناهُمْ شيعتَهُم الذَّمِيمَة، وأَذَقْناهُم مِنَ الْقَتْلِ فَظيعَه وَأَلِيمَه، وَأَراح الله مِنْهُم مَدِينَتَهُم وَعَوَّضَهُمْ مِن الدُّنْيا سَخِيمَتَهُمْ، وأَصْبَحَ الْباطِلُ مَصْروعا، وأَنْفُهُ مُصْطَلَماً مَجْدُوعا، يائساً مِنْ أَنْ يَنْفُقَ لَهُ بَعْدُ سُوق، أَوْ يَكُون لثَمَرَتِه الْمُجْتَثَّةِ بُسُوق، وانْقَلَبَ الْمُوَحِّدُونَ وَفَّقَهُم الله مَنْصورين، وَبالأَجْرِ وَالْغَنيمَةِ والْمِنْحَةِ الْعَظِيمَة مَجْبورين، لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَرْح، وَلَمْ يُصِبْهُمْ بَرْح، والْحَمْدُ لله بِلاَ انْقِطاع، وَلَهُ الشُّكْر بأَبْلغِ ما يُسْتَطاع، وخَاطَبْناكُمْ وَفّقكُم الله بهذِهِ الْمَنْقَبَة الّتي خُصّ حِزْبُ الله بِمنْحَتِها، وأَهْلُ الْباطِل بمِحْنَتِها، لِتَعْلموا أَنّكُم لَدَيْنَا مِمَّن يُخْتَصّ بِبُشراها، ويُبْصِرُها بِمَا بِهِ تُبْصِرُها أَمْصارُنا وَقُراهَا، فَقابِلُوا مِنَ الشُّكْرِ الْعَميم بمُقْتَضاها، وادْأَبوا عَلَى حَمْدِ مَنْ أَوْلاَهَا، والله يُوَفِّقُ الْجَميعَ إِلَى ما يَكُونُ لهذه النِّعْمَةِ جَزَاءاً، ولِعَلِيِّ رُتْبَتِها أَداء، بعِزّتِه، والسَّلامُ الكريمُ عَلَيْكُم ورَحْمةُ الله تعالى وبَرَكَاتُهُ.

الاستبصار المخطوط : 140-143

3 – مِنْ أَعْلام فاس في عَهْد الْمُرابِطين

«وذَكَرْنَا أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ فِيها في الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيّةِ رِجَالٌ فُضَلاَء، عُقَلاَء عُلَمَاءُ حُلَمَاء، وَشُهْرَتُهُمْ فِيهَا أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِهِمْ، لكِنِّي أَذْكُرُ مَنْ خُلِّدت مَآثِرُهُ، وَبَقِيَتْ عَلَى مَرِّ الأَزْمَان مَفَاخِرُه، ... وَهُوَ الْفَقِيهُ الْحَسِيبُ الْقَاضِي أَبُو مُوسَى ابْنُ يُوسُف بْن عِيسَى قَاضي ٱلْجَمَاعَةِ[1]. وَعِيسَى [جَدُّه] بْنُ عَلِي بْن يُوسُف بْنِ عِيسى بْن قاسِمٍ الْمُلَقّبِ بِالْمَلجُوم ابْنِ عِيسَى بْنِ مُحَمّد بْنِ مُصْعَبٍ بْنِ عُمَيْرٍ بْنِ مُصْعَبٍ الزَّهْرَاني ٱلأَزْدِي مِنْ أَزْدِ شَنُوءَة سُكّانِ جَبَلِ السَّرَاة بِأَرْضِ ٱلْحِجَاز، وَعُمَيْرُ بْنُ مُصْعَبٍ هَذَا هُوَ الدَّاخِلُ لِلْمَغْرِبِ صُحْبَةَ مُوسَى بْنِ نُصَيرٍ رَحِمَهُمْ ٱللهُ، وكَانَتْ ذُرِّيَّتُهُ فِي هَذَا ٱلْقُطْرِ تُعْرَفُ بِبَنِي مُصْعَبٍ وَأَمْلاَكُهُم، بِهَا إِلَى ٱلآنَ تُعْرَفُ بِاسْمِ بَنِي مُصْعَبٍ وَهِيَ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى هُلُمّ [بَلْ حَدَثَ عَلَى بَنِي مُصْعَبٍ اسْمُ الْمَلْجُومِ بِقَاسِمِ بْنِ عِيسى الْمَذْكُور سُمّي بِذَلِكَ لتوقّفٍ كانَ فِي كَلاَمِهِ مِنْ عِلَّةٍ عَرَضَتْ لَهُ فِي صِغَرِهِ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمْ.][2]

أَخْبَرَنِي[3] الشَّيْخُ الفَقيهُ ٱلْحَافِظُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحمٰن ابْنُ ٱلْفقيه الْقاضِي أَبِي مُوسَى الْمَذْكُور أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ مُصْعَبٍ الْمَذْكُور نَزَلَ حِينَ وُصُولِهِ الْمَوْضِعَ ٱلْمَعْرُوفَ إِلَى ٱلآن بِعَيْن عُمَيْرٍ، وَتَخَلَّفَ عَنْ أَمْرِ وَالِيهِ مُوسَى مَعَ سِوَاهُ في الْمغْرِبِ لمَّا مَرُّوا بِالْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَالِكَ وأَنْسَلَ بَنُوهُ، فَهُمْ مَنْ ذَكَرْنَا، وَلَمَّا أَرَادَ إِدْرِيسُ ٱلْمَذْكُورُ أَنْ يَبْنِي هَذِهِ ٱلْمَدينَةَ ٱبْتَدأَ بِبُنْيَانِ فَاسٍ الْقَدِيمِ الْمَشْهُورِ فَقَالَ لَهُ أَحَدُ بَني مُصْعَبٍ قِيلَ إِنَّه فَنْتَرُوسٌ ٱلْمَذْكُورُ : هَذا مَوْضِعٌ وَخِمٌ وَالَّذِي يَصْلُحُ لِبنَاءِ الْمَدِينَةِ أَعْرِفُهُ فَأَوْصَلَهُ إِلَى غِيْضَةٍ كَثِيرَةِ ٱلْعُيُونِ، وَهِيَ حَوْمَةُ مَسْجِدِ الشُّرَفَاءِ ٱلآنَ فَبَنَى

---

(1) انظر ترجمته ومصادرها في «الذيل والتكملة» 8 : 258–259.

(2) انظر في بني الملجوم بيوتات فاس و«روض القرطاس» و«جذوة الاقتباس».

(3) كذا في الأصل والصواب عبد الرحيم، وله ترجمة وذكر في التكملة رقم 1974 والصلة لابن الزبير (مخطوط) و«جذوة الاقتباس» رقم 432 والذيل : 8 : 258.

الْمَدِينَةِ أَعْرِفُهُ فَأَوْصَلَهُ إِلَى غِيْضَةٍ كَثِيرَةِ ٱلْعُيُونِ، وَهِيَ حَوْمَةُ مَسْجِدِ الشُّرَفَاءِ ٱلآنَ فَبَنَى فِيهَا ٱلْمَدِينَةَ، وَكَانَ حَدُّ سُورِهَا مِنْ بَابِ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى بَابِ ٱلقَوْسِ إِلَى بَابِ السِّلْسِلَةِ إِلَى ٱلْجُرْفِ رَاجِعاً إِلَى بَابِ إِفْرِيقيّةَ(4).

وَنَظَمَ الشَّيْخُ ٱلْفَقِيهُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ أَبِي زَكَرِيَّاء ٱلْهَاشِمِي(5) يَمْدَحُ الشَّيْخَ ٱلْفَقِيهَ ٱلْقَاضِيَ أَبَا مُوسَى عِيسَى بْن يوسُف قاضِي ٱلْجَمَاعَة الْمَذْكُور رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمْ :

قاضٍ يحوطُ الْمُسْلِميــنَ بعَدْلِــهِ ... فالْعُرْفُ يُعْرَفُ والْمَنَاكِرُ تنْكَــرُ
نَدْبٌ أَغَرُّ مِنَ الْقُضَاةِ مُحَجَّــلٌ ... قَدْ طابَ مِنْهُ الْمُنْتَمَى والْمَنْظَـرُ
بَرٌّ بِكُلِّ مَنِ اسْتَقَامَ وَمَنْ طَغَى ... فالسَّوْطُ مِنْهُ عَلَى الطُّغَاةِ مُسَخَّرُ
أَبَــداً يَــروعُ الظَّالِميــنَ بِدَعْـــوَةٍ ... هِيَ في حَشَا مَنْ لاَ يَعيهَا خَنْجَرُ
عَزَمَاتُــهُ في الله فاتِكَــةٌ بِهِـــمْ ... فَكَأَنَّهُــــنّ أسِنَّـــــةٌ وَسَنَـــــوَّرُ
قَدْ نابَ عَنْهُ الرُّعْبُ مِنْهُ نِيَابَةً ... مَا نَابَها تَحْتَ ٱللِّوَاءِ ٱلعَسْكَـرُ
لِلْخَوْفِ منه عَلى عَدَالَةِ حُكْمِـهِ ... سِرٌّ يَبـوحُ بـهِ الأَمـانُ فَيَظْهَــرُ
رَدّ المظالِمَ غَيْـرَ ظُلْـمٍ أَصْلُـهُ ... جيدٌ بِهِ غَيَـدٌ وطَرْفٌ أحْـوَرُ
عَــفَّتْ شَمَائِلُــهُ فَتَــــمَّ قَضَاؤُهُ ... إنَّ الْقَضَاءَ بِـلاَ عَفـافٍ أَبْتَــرُ
تَـرِدُ الْوُفُـودُ وتَنْثَنِي عَــنْ دَارِهِ ... والْمِسْكُ مـا يَسْنُونَـهُ والْعَنْبَــرُ
يَدْرونَهُ قَـدْ صَامَ عَـنْ أموالِهِـمْ ... وَجَميعُهُمْ مِنْ مالِه قَد ٱفْطَـروا
حَرُمَتْ مَحابِرُنـا علَيْـهِ وَإنّمــا ... لَحْمِ القُضاةِ مِن الْمَحابِرِ حَذّروا
فَكَـأنّ محْبَـرَةَ الْكتابــة ميتَـــةٌ ... وكـأنّ مِحْبَـرَةِ الْمَنَاكِحِ مَـيْسِرُ
هَذا الّذي مِنْ يَوْم أَصْبَحَ قاضِياً ... قَضَت الْمحارِمُ نَحْبَها والمُسْكِرُ
هَذا الّذي مُذْ حَلّ فِي مَكْناسَةٍ ... كَنَسَ الْفَسادَ فَـلاَ فسادٌ يَظْهَـرُ
هَذا الّذِي طَلَب اللُّصُوصَ فَرَدَّهُمْ ... عَسَساً تَهابُهُم اللّصوصُ وتحْـذَر
هَذا الّذي رَدَع الْفُجُورَ بأرضِهِمْ ... رَدْعـاً وَأنهارُ الْفُجورِ تفَجَّــرُ

---

(4) باب افريقية هو أول باب أحدث بالمدينة الادريسية و لم يعد معروفاً اليوم. انظر «جذوة الاقتباس» : 33 وتعليق الأستاذ السيد عبد الوهاب بنمنصور أما باب السلسلة فما يزال موجوداً.

(5) لم نقف بعد البحث على ترجمة هذا الأديب الشاعر.

هَذا الْفَتى فِي سنّه هَذا الرِّضَى	في دينِهِ هـذَا الشِّهابُ الأَنْـوَرُ
هَذا النَّقِيّ مِنَ الْعُيوبِ بأَسْرِها	هَـذا الإمـامُ الْفـاضِلُ المتخَيَّـرُ
هَذا الْفَقيه بْنُ الْفَقِيهِ بنِ الْفَقِيه	بْـن الْفقيـه لِغَايَـةٍ لاَ تُـحْصَرُ
بِكَ يا أبا مُوسى سَمْوتُ إلى العُلَى	فَأَنا الّذي أُثْني عَلَيْكَ وأَشْكُـرُ
وأنا الّذي أَجْـزيكَ وُداًّ صافِيـاً	تَتَغَيّـــرُ الدُّنيـــا وَلاَ يَتَغَيَّـــرُ
تَـا الله أَلْقـى الله يَـوْمَ لِقَائِـهِ	إلاّ وَشَخْصُكَ في الْفُؤادِ مُصوَّرُ
لازالَ قَدْرُكَ في اعْتلاَءٍ والْوَرَى	أَسْطارَ مَدْحِك في الْقلوبِ تُسَطِّرُ

قَالَ النّاظِرُ : وَلَوْلاَ أَنْ أَخْرُجَ عِنْ قَصْدِ الْوَضْعِ لأَوْرَدْتُ مِنْ مَفَاخِرِ هَذَا آلْفَقِيهِ الْقَاضِي رَحِمَهُ الله وَمَفَاخِرِ آلْمُعَاصِرِينَ لَهُ مَا يُرْبِي عَلَى كُلِّ مَفْخَرٍ سِوَى الإِتِّصَالِ بِسُلاَلَةِ النُّبُوَّءِةِ، كَيْفَ وَوَاضِعُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَاطِمِيُّ آلنَّسَبِ عَلَوِيُّ الْحَسَبِ حَسَنِيّ الْمَذْهَبِ فَكَيْفَ يُعَابُ أَهْلُهَا.

الاستبصار المخطوط : 118–120

4 – أَعْمَالٌ عُمْرانِيّةٌ في سَبْتَةَ أَيّامَ الْمُوَحِّدِين

وَأَمَرَ ٱلْخَلِيفَةُ أَمِيرُ ٱلْمُومِنِينَ أَبُو يَعْقُوبَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِجَلْبِ الْمَاء إِلَيْهَا مِنْ قَرْيَةِ بَلْيُونش عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ سَبْتَةَ فِي قَنَاةٍ تَحْتَ الأَرْضِ حَسَبَمَا جَلَبَه ٱلْأَوَائِل فِي قَنَاةِ قَرْطَاجنّة وَشَرعَ فِي ٱلْعَمَلِ حَتى عَرَضَتْ أُمُورٌ أَوْجَبَتْ التَرَبّصَ حَتى يَأْذَنَ الله تَعٰلى وَالرّجَاءُ ٱلآن مُؤَمَّلٌ وَنَحْنُ فِي سَبْعٍ وَثمانِينَ وَلَّى بِهَا مَنْ يَنْظُرُ فِي شُغْلِ ٱلْبَحْرِ وَ إِنْشَاءِ الْمَرَاكِبِ وَغَزْوِ ٱلْعَدُوِّ وَصَرَفَ إِلَيْهِ فِيهِ النَّظَرَ فِي مَصَالِحِ ٱلْبَلَدِ فَأَقَامَ الأَمْرُ ٱلْعَالِي قَرْيَةَ بَلْيُونش وَدِيَاراً مُطِلَّةً عَلَى بَحْر بسّول بِغَرْبِيّ الْجَامِعِ، فَرُبَّمَا سَعَى فِي جَلْبِ ٱلْمَاءِ وَالله يُعِينُهُ، وَهُوَ الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيّاء ابْنُ الشَّيْخ الرَّضِي أَبي إِبْرَاهِيم[1] صَاحبِ ٱلإِمَامِ ٱلْمَهْدِي رَضِيَ الله عَنْهُ نَشْأَةِ الْخِلاَفَةِ وَرَبِيِّ الإِمَامَةِ، وَهُوَ فِي عَامِنَا هَذَا صُحْبَةَ الْخَلِيفَةِ أَبِي يُوسُف مُحاصِرِينَ للأَعْدَاءِ بِبِلاَدِ الرُّومِ مِنْ غَرْبِ جَزِيرَةِ ٱلأَنْدَلُسِ، وَرَجَعَ مِنْ ٱلغَزْوِ وَهُوَ مُغْتَبِطٌ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ لِشَرَفِهَا وَعِظَمِ قَدْرِهَا وَلَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ إِلاّ دِمَشْق..

الاستبصار المخطوط : 78

(1) راجع فيه وفي أبية «المعجب» : ــ233–34 وأخبار المهدي للبيدق : 30، 31 33، 34، 36، 42، 43، 45، 54، 56، 60.

القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية

محمد فاروق النبهان

يجدر بنا قبل الحديث عن القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية أن ندرس المرحلة التاريخية السابقة التي هيأت الأسباب لظهور ظاهرة تقنين الأحكام الشرعية في مجال المعاملات وفي مجال أحكام الأسرة.

ففي القرون الهجرية الأولى كان القضاء يعتمد على الفقه الاسلامي، بطريقة مباشرة، وأحياناً كان القضاة يرجحون الفقه المذهبي السائد، ثم انتشرت ظاهرة الفقه المذهبي، وعمت في معظم البلاد الاسلامية، وفي حالات قليلة كان القضاة يخرجون عن دائرة الفقه المذهبي السائد مستفيدين من آراء فقهية أخرى، للتخلص من بعض الآثار السلبية للآراء الراجحة في الفقه السائد أو يلتمسون ذلك في آراء مرجوحة لدى فقهاء المذهب نفسه.

ومن الطبيعي أن يضيق الفقه المذهبي عن حاجات الناس، إذا لم يباشر الفقهاء دورهم الطبيعي في اجتهاد معتمد على تفسير محتمل للنصوص يراعى مقاصد الشريعة وغاياتها في حماية المصالح الاجتماعية ومطاردة المظالم والانتصار لمبادىء العدالة.

وسادت مرحلة ركود في القرون الأخيرة، وتوقفت حركة الاجتهاد كلياً، وسيطرت ذهنية ضيقة ضاقت بالرأي وهابت الخوض في مناقشات حية واستسلمت لمنهج تقريري يعتمد الحفاظ على ما وقف عنده الفقهاء وعدم تجاوزه، خوفاً من الانحراف والضلال، وامتدت أصابع الاتهام والادانة تداهم الفقهاء الذين تطاولوا على قدسية آراء العلماء الأولين، متهمة اياهم بالجهل والضلال، محرضة عوام الناس على ادانتهم والتعرض لهم بالاساءة.

وتراجع دور القضاء وضاقت رؤيته، ووقعت مظالم اجتماعية وأهدرت حقوق، واضطرت الدولة للتدخل في بعض الأحيان، لتنظيم بعض الأحكام الشرعية، عن طريق إصدار أوامر سلطانية، لاقرار أحكام شرعية حماية للمصالح العامة.

وكانت الطريقة المعتمدة في مجال التعليم الشرعي تشجيع منهج الحفظ وتحليل النصوص الفقهية، واستخراج ما تتضمنه تلك الكتب المقررة من أحكام، ومن الطبيعي أن يكون منهج الشرح هو المنهج المقرر، والشرح هو توضيح ما ورد في المتون من أحكام، فإذا استوفى الشارح شرحه وضع غيره حاشية عليه، مضيفاً ما تراءى له من آراء، موضحاً رأيه، مفسراً ما بدا له غامضاً من العبارات.

ولما رأت الدولة العثمانية أن القضاء تراجع وضعف دوره وأصبح هناك ما يدعو إلى تنظيم القضاء، حماية لمبادىء العدل، واستجابة لمتطلبات الاصلاح، لكي يكون القضاء مواكباً لحركة المجتمع وتطوره، دعت لجنة من العلماء إلى دراسة إمكانية وضع قانون مستمد من أحكام الشريعة الاسلامية، ينظم القضاء، ويوضح الأحكام، ويحمي الحقوق.

وتوجس العلماء خيفة من هذا الاتجاه، وقاوموه في بداية أمره وبخاصة وأن تدوين الأحكام في قانون سوف يقيد حركة القاضي ويخضعه لمنهج محكم، فضلاً عما يتضمنه هذا التدوين للأحكام من اقتباس لبعض الأحكام من المذاهب الأخرى مما يعرض قداسة الفقه المذهبي للخطر، ويفتح الأبواب أمام فوضى في مجال الفقه والقضاء.

وانتصرت إرادة التقنين والتنظيم وعلقت لجنة العلماء التي تشكلت عام 1285 على وضع مشروع قانون للأحكام المدنية مستمد من أحكام الفقه الحنفي، واعتمد المشروع عام 1295، وسمي بمجلة الأحكام العدلية وتتألف المجلة من 1851 مادة ومقالتين، وتضمنت الأولى التعريف بالفقه الاسلامي وبيان أقسامه، وتضمنت الثانية بيان القواعد الفقهية.

ومن أهم خصائص المجلة أنها استعملت أسلوب النصوص القانونية في صياغة الأحكام، وهناك ملاحظات على المجلة من حيث اسلوبها أو من حيث ضيق الأفق الناتج عن الاعتمادات على الفقه الحنفي، ومع هذا فان هذه الملاحظات لا تقلل من أهمية المجلة.

وفي عام 1917 أصدرت الدولة العثمانية قانون حقوق العائلة ويتألف من 157 مادة، وطبّق هذا القانون في معظم البلاد العربية التي كانت خاضعة للنفوذ العثماني.

وحاولت مصر وضع قانون للأحوال الشخصية، إلا أن هذه الرغبة واجهت صعوبات ناتجة عن رفض العلماء لذلك، وفي عام 1920 صدر أول قانون للأسرة في مصر.

ولم تكن كلمة الأحوال الشخصية مدونة لدى الفقهاء، وأول من استعمل هذه الكلمة الأستاذ محمد قدري باشا وزير الحقانية في مصر المتوفى عام 1888 ووضع كتابه : «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية».

قانون الأحوال الشخصية في مصر

صدر أول قانون للأحوال الشخصية في مصر عام 1920 رقم 24، ويتألف من 13 مادة فقط، وجاءت كما يلي :

المادة : 1–6 في أحكام النفقة.
المادة : 7–8 في أحكام المفقود.
المادة : 9–10–11 التفريق بالعيب.

ــ وصدر القانون رقم 25 بتاريخ 10 مارس 1929 واشتمل على 25 مادة.

ــ ثم صدر القانون رقم 44 سنة 1979 المعدل لبعض الأحكام.

وجاءت المادة الأولى فيه كما يلي :

تضاف إلى القانون رقم 25 لسنة 1929 مواد جديدة بأرقام 5 مكرر، 6مكرر ثانيا، 18 مكرر، 18 مكرر ثانيا 23 مكرر.

وجاء في **المذكرة الايضاحية** لهذا القانون مايلي :

«إذا دعت الحاجة لاستجلاء وجه بعض تلك النصوص وجب الرجوع لمصادرها التشريعية سالفة الذكر، وأن الأصل دائما هو الفقه الحنفي».

المغرب :

بعد استقلال المغرب تشكلت لجنة لوضع مدونة الأحوال الشخصية، ثم ظهرت الظهائر الشريفة باعتماد التشريعات التي وضعتها اللجنة، في الزواج والطلاق والولادة والأهلية والوصية والميراث.

ونصت المدونة على ما يلي :

«كل ما لم يشمله هذا القانون يرجع فيه إلى الراجح أو المشهور أو ما جرى به العمل من مذهب الامام مالك..»

ونصت المذكرة الايضاحية للقانون على أن هذا القانون تلافى عددا من القضايا التي كانت سببا في تبديد شمل كثير من الأسر.

ونص تقرير المقرر العام الأستاذ المرحوم علال الفاسي رحمه الله على ضرورة مراعاة أمرين :

أولا : المذهب المالكي بقدر الامكان.

ثانيا : حاجة المجتمع المغربي.

وجاء في هذا التقرير ما يلي :

«إذا كان هنالك قول ترجحه الظروف المغربية وكان مندرجا تحت أصل عام فإننا نختار تدوينه للعمل به، ولو كان اجتهادنا المجرد يرجح غيره..».

فكرة القانون العربي الموحد

دعت الندوة الأولى لعمداء كليات الحقوق بالجامعات العربية في بيروت عام 1973 إلى وجوب العناية بالدراسة المقارنة بين أحكام الشريعة الاسلامية وأحكام القوانين الوضعية باعتبارها من أهم أسس التوحيد القانوني بين البلاد العربية، وقررت هذه الندوة مايلي :

«إن مهمة كليات الحقوق بالجامعات العربية أن تدرس الشريعة الاسلامية لوصفها مصدرا رسميا للقانون في معظم البلاد العربية ومصدرا تاريخيا للقانون في جميع هذه البلاد».

وقررت الندوة الثانية لعمداء كليات الحقوق المنعقدة في بغداد عام 1974 ما يلي :

أولا : العناية التامة بدراسة الفقه الاسلامي، لأن استكمال الشخصية العربية يقتضي الرجوع إلى هذه الشريعة والاعتماد عليها كمصدر أساسي للقانون العربي الموحد.

ثانيا : انشاء مجمع للشريعة والقانون على مستوى العالم العربي ويختص هذا المجمع باعداد دراسات شرعية وقانونية يفيد منها المشرع الوضعي.

وكانت الجامعة العربية من خلال المنظمات المختصة قد دعت إلى توحيد القوانين العربية كوسيلة أولى لتحقيق الوحدة العربية.

الاجتماع الأول لوزراء العدل العرب في الرباط عام 1973

قرر وزراء العدل العرب في مؤتمرهم الأول في الرباط خلال شهر ديسمبر 1977 ما يلي :

«وحدة التشريع بين الدول العربية هدف قومي ينبغي السعي إلى تحقيقه، وان اتباع أحكام الشريعة الاسلامية هو أسلم الطرق وأجداها للوصول إلى هذه الغاية».

أوصت اللجنة الوزارية المنبثقة عن هذا المؤتمر في شهر ديسمبر 1978 بضرورة تجميع الجهود المبذولة على المستوى العربي لتقنين أحكام الشريعة الاسلامية واعطاء الأولوية لتشريع الأحوال الشخصية.

ونصت المادة الثانية من النظام الأساسي لمجلس وزراء العدل العرب على دعم ومتابعة الجهد المشترك لتوحيد التشريعات العربية وفق أحكام الشريعة الاسلامية مع الأخذ باعتبار ظروف المجتمع في كل قطر عربي.

وفي الاجتماع الثاني لوزراء العدل العرب في «صنعاء» عام 1981 أقر الوزراء خطة «صنعاء» لتوحيد التشريعات العربية، لاقامة القاعدة المتينة والثابتة لإقامة التشريع العربي الموحد وفق أحكام الشريعة الاسلامية.

وتضمنت هذه الخطة وضع **مشروع قانون عربي موحد للأحوال الشخصية** يستمد احكامه من القرآن والسنة، وما يؤول إليهما من اجماع أو قياس أو مصالح مرسلة دون التقيد بمذهب معين من مذاهب الفقه، وكذا مبادىء العدالة التي لا تتعارض مع أحكام الشريعة الاسلامية.

وتشكلت لجنة من سبعة خبراء عرب من المتخصصين في العلوم القانونية والشرعية، وعهد إليها بوضع مشروع قانون عربي موحد للأحوال الشخصية.

واجتمعت اللجنة سبع اجتماعات خلال مدة ثلاث سنوات وانتهت إلى وضع الصيغة الأولى للمشروع كاملا.

وفي عام 1985 صدر قرار عن مجلس وزراء العدل العرب بتكليف أمانة المجلس بما يلي :

1 – تعميم مشروع القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية على الدول الأعضاء للوقوف على آرائها ومقترحاتها.

2 – التوصية إلى الدول الاعضاء بنشر المشروع ومذكرته التوضيحية في الصحف والمجلات المحلية بغية الحصول على آراء القطاعات المعنية بهذا الشأن.

3 – وضع المقترحات والآراء أمام لجنة مشكلة من اللجنة التي أعدت المشروع، واعادة النظر بالمشروع في ضوء الاقتراحات الواردة.

وتلقت أمانة مجلس وزراء العدل العرب مقترحات بشأن مشروع القانون، وتشكلت من جديد لجنة جديدة لاعادة النظر في المشروع.

وأعيد نشر المشروع بعد تنقيحه وتعديله، وتلقت أمانة مجلس وزراء العدل العرب مقترحات من وزارات العدل في الدول الأعضاء.

واجتمعت اللجنة في عمان خلال شهر أبريل 1987 ودرست المقترحات الجديدة وادخلت التعديلات المطلوبة في مجال الصياغة والترتيب.

وأعيد من جديد المشروع إلى الدول الأعضاء لدراسته من الجهات الفقهية المختصة، واجتمعت اللجنة خلال شهر فبراير 1988 ودرست المقترحات الجديدة وادخلت التعديلات المطلوبة.

وبتاريخ 1988/4/4 قرر وزراء العدل العرب في الكويت ما يلي : اعتماد مشروع القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية مع الأخذ بعين الاعتبار ظروف المجتمع في كل قطر عربي وفق خطة صنعاء، وسمى بوثيقة الكويت للقانون العربي الموحد للأحوال الشخصية.

القانون العربي الموحد

يشتمل المشروع على 284 مادة موزعة على خمسة كتب :

ــ الكتاب الأول : الزواج، المواد (1 –82)

ــ الكتاب الثاني : الفرقة بين الزوجين، المواد (83–139)

ــ الكتاب الثالث : الأهلية والولاية، المواد (140–199)
ــ الكتاب الرابع : الوصية، المواد (200–233)
ــ الكتاب الخامس : الإرث، المواد (234–286)

وجاء في الفقرة (ب) من المادة الختامية ما يلي :

«اذا لم يوجد نص في هذا القانون يحكم بمقتضى قواعد الشريعة الاسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون، وتسترشد المحاكم في كل ذلك بالعمل القضائي العربي».

جاء في الفصل الثاني والسبعين بعد المائة من المدونة المغربية ما يلي :

«كل ما لم يشمله هذا القانون يرجع فيه إلى الراجح أو المشهور أو ما جرى به العمل من مذهب الامام مالك.

جاء في المادة 222 من القانون الجزائري، الصادر بتاريخ 9 يونيو 1984 ما يلي :

«كل ما لم يرد النص عليه في هذا القانون يرجع فيه إلى أحكام الشريعة الاسلامية».

وجاء في المادة 343 من القانون الكويتي الصادر بتاريخ 7 يونيو 1984 ما يلي :

«كل ما لم يرد له حكم في هذا القانون يرجع فيه إلى المشهور من مذهب الامام مالك فان لم يوجد المشهور طبق غيره، فان لم يوجد حكم أصلا طبقت المباديء العامة في المذهب».

وجاء في المادة 183 من القانون الأردني الصادر بتاريخ 1976/9/5 ما يلي :

«ما لا ذكر له في هذا القانون يرجع فيه إلى الراجح من مذهب أبي حنيفة».

جاء في القانون اليمني الشمالي في المادة 159 ما يلي :

«كل ما لم يذكر في هذا القانون يعمل فيه بأقوى الأدلة في الشريعة الاسلامية المنتزع منها هذا القانون».

جاء في الفقرة «ب» من القانون الليبي الصادر بتاريخ 19 أبريل 1984 مايلي :

«فإذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه فيحكم بمقتضى مباديء الشريعة الاسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون».

جاء في المادة الأولى من القانون العراقي :

إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه فيحكم بمقتضى مبادىء الشريعة الاسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون.

* * *

وبعد هذه المقدمة التي عرضت فيها لنشأة فكرة تقنين الأحكام الشرعية والمراحل التي قادت إلى صدور القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية، سواء من خلال صدور قوانين عثمانية منظمة للأحكام الشرعية أو من خلال جهود الجامعة العربية، والكليات الحقوقية، أو من حيث الجهود التي رافقت نشأة قيام مجلس وزراء العدل العرب الذي هيأ الأسباب لقيام اللجان المختصة باعداد هذا القانون، الآن أعرض لبعض الأحكام التي وردت في القانون العربي الموحد، واعرض في نفس الوقت لبعض ماجاء في القوانين العربية.

ويمكننا من خلال هذه المقارنة أن نستنتج ونستخرج الخصائص المميزة لهذا القانون، وهي خصائص تتمثل بما يلي :

1 – مراعاة الظروف التي تفرضها التقاليد المرعية في كل قطر عربي.

2 – وضع الحد الأدنى المتفق عليه بين القوانين العربية، بحيث يمثل هذا القانون الخط المشترك الذي اتفقت عليه مختلف الدول العربية.

3 – اعتبار هذا القانون المنطلق والمصدر للقوانين المستحدثة بحيث يضيف كل قانون أحكاما جديدة تلائم الأوضاع الاجتماعية بحسب ما يراها كل قطر عربي.

مع العلم أن قانون الأسرة يعتبر من القوانين التي يصعب توحيدها نظرا لأن الأحكام تمثل قيما اجتماعية سائدة وأعرافا قائمة ولا يمكن توحيد الأعراف والقيم السائدة، لأن لكل بلد عربي مذهبا معتمدا يعتز به ويتمسك بأحكامه.

ومهما يكن من أمر فإن هذا القانون يعتبر خطوة على طريق توحيد القوانين العربية، ونرجو أن تكون الخطوات اللاحقة أقل صعوبة، لكي تكون وحدة القوانين العربية لبنة في طريق التقارب العربي.

* * *

دراسة مقارنة بين القانون العربي الموحد والقوانين العربية

المثال الأول : ثبوت النسب بالفراش

1 – الموحد : المادة 75

أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثرها سنة.

2 – المدونة : الفصل 84

أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثرها سنة مع مراعاة ما ورد في الفصل 76 فيما يخص الريبة.

3 – السوري : المادة : 130، اليمني الجنوبي 39.

لا يثبت النسب لأكثر من سنة إلا إذا ادعاه الزوج أو الورثة.

4 – الكويتي : المادة 166، الليبي 53، التونسي 67

موافق للقانون العربي الموحد.

5 – الجزائري : المادة 42

أقل مدة الحمل ستة أشهر وأقصاها عشرة أشهر.

6 – اليمن الشمالي : المادة 120

أقل مدة الحمل ستة أشهر وأغلبها تسعة أشهر ولا حد لأكثرها مع ظهور القرائن الدالة عليه واستمرار وتقرير الطبيب المختص.

آراء الفقهاء

ـــ أبو حنيفة ورواية عن أحمد : أقصى مدة الحمل لا تزيد عن سنتين، لقول عائشة : لا تزيد المرأة في الحمل عن سنتين.

ـ الشافعي:أقصى مدة الحمل أربع سنوات

ـ مالك : هناك روايات أربع وخمس وست سنوات

ـ الظاهرية : أقصى مدة الحمل تسعة أشهر

ـ ابن رشد : هذه المسألة الرجوع فيها إلى العادة والتجربة

المثال الثاني : التطليق بسبب الغيبة

ـ الموحد : المادة 112 : يجوز للزوجة أن تطلب التطليق بسبب غياب زوجها.

ـ المدونة : الفصل 57.

أقرت حق الزوجة في طلب التطليق بشرطين :

1 – أن يكون الغياب بلا عذر مقبول.

2 – ان تتضرر الزوجة من ذلك.

السوري 109، الكويتي 136–137، الأردني 123، الليبي 41.

يشترط في الغياب أن يكون بلا عذر مشروع.

ـ اليمني : المادة 50

لم يشترط العذر المشروع.

ـ العراقي : المادة 43

جواز التفريق بسبب الهجر لمدة سنتين فأكثر من غير عذر مشروع.

ـ الجزائري : المادة 53

جواز طلب التطليق في حالة الهجر في المضجع فوق أربعة أشهر، وبعد الغيبة لمدة سنة فأكثر من غير عذر ولا نفقة.

المثال الثالث : التطليق لعدم الانفاق

ـ الموحد المادة : 111

ـ اثبات حق التطليق لعدم الانفاق

ـ لا يثبت الحق في التطليق إذا كان الاعسار بسبب خارج عن إرادة الزوج.

لا تطلق الموسرة على زوجها المعسر.

ــ المدونة 53 : السوري : 110، الأردني : 127، الكويتي : 120

- اثبات حق التطليق لعدم الانفاق
- عدم وجود مال ظاهر
- عدم اثبات العجز عن النفقة، فإن أثبت العجز امهله ثلاثة اشهر.

الجزائر : المادة 53

يثبت الحق بالتطليق ما لم تكن عالمة بالاعسار قبل الزواج.

العراقي : المادة 43

يثبت الحق في طلب التفريق إذا امتنع عن الانفاق بغير عذر مشروع.

الليبي : المادة 40

لا يثبت الحق إلا بشرطين :

الا تعلم بالعسر قبل الزواج.

الا يكون الاعسار طارئا بسبب خارج عن ارادة الزوج وتلزم الزوجة الموسرة بالانفاق على زوجها.

آراء الفقهاء

- مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور : الاعسار بالنفقة يجيز التفريق.
- أبو حنيفة والثوري وداود : الاعسار بالنفقة لا يثبت التطليق لأن العصمة ثابتةبالاجماع، ولا تفسخ إلا بدليل قاطع.

المثال الرابع : التفريق للضرر

ــ الموحد : المادة 103، والمادة 109

- لكل من الزوجين طلب التفريق للضرر الذي يتعذر معه دوام العشرة
- اذا كانت الاساءة كلها أو أكثرها من الزوجة سقط مهرها المؤجل، وحدد القاضي ما يجب أن تعيده من مهرها المقبوض.
- إذا كانت الاساءة كلها أو أكثرها من الزوج بقي المهر من حق الزوجة.

ـــ المدونة : 56

أقرت حق الزوجة في الدعوى على زوجها بسبب الضرر الذي لا يستطيع معه دوام العشرة بينهما، ويطلق القاضي بشرطين :

- ثبوت ما ادعته من ضرر
- عجز القاضي عن الاصلاح

ـــ العراقي : المادة 40، السوري 112، الأردني 132، الكويتي 126 التونسي 31.

لكل من الزوجين أن يطلب التفريق بسبب اضرار الآخر به.

ـــ الجزائري : المادة 53.

من أنواع الضرر الذي يوجب التفريق

- حالة الغش والخداع
- عدم رضاها بالزواج بزوجة ثانية

اليمن الشمالي : المادة 52

أجاز فسخ الزواج للكراهية ولادمان الزوج الخمر

المثال الخامس : شروط الحاضن

ـــ القانون الموحد : المادة 128

يشترط في الحاضن ما يلي :

العقل ـــ البلوغ ـــ الأمانة ـــ القدرة على تربية المحضون ـــ السلامة من الأمراض

ـــ المدونة : الفصل 98

لم ترد كلمة الأمانة، واشترطت «الاستقامة».

ـــ الجزائري : المادة : 62

عرف الحضانة بقوله :

رعاية الولد وتعليمه والقيام بتربيته على دين أبيه والسهر على حمايته وحفظه صحة وخلقا.

ويشترط في الحاضن أن يكون أهلا للقيام بذلك.

ـــ الأردني : المادة 155

اشترط في الحاضنة : البلوغ والعقل والأمانة والقدرة والا تكون مرتدة.

ـــ السوري : المادة : 137

اشترط : البلوغ والعقل والقدرة على صيانة الولد صحة وخلقا

المثال السادس : حضانة غير المسلمة لولدها المسلم

ـــ جمهور الفقهاء : أجازوا حضانة غير المسلمة لولدها المسلم

ـــ الشافعي : لم يجز ذلك

القانون العربي الموحد : 130

أجاز هذه الحضانة، وتسقط ببلوغ المحضون السابعة من عمره

المدونة المغربية : 108

غير الأم : تتوقف الحضانة في سن الخامسة

الأم : تستمر الحضانة بشرط الا يتبين استغلالها للحضانة لتنشئة المحضون على غير دين أبيه.

السوري والعراقي : اغفلا هذا الشرط

ـــ التونسي 59

اشترط : في غير الأم الا يخشى على الطفل من أن يألف غير دين أبيه أما بالنسبة للأم فلا يسري هذا الشرط.

* * *

ونلاحظ من خلال ما ذكرناه في أحكام القوانين العربية أن الأحكام متقاربة و متماثلة، وذلك لأن الأحكام الفقهية واضحة، وغالباً مااتجه القانون إلى الأخذ بالرأي الذي يحقق مصلحة ويدرأ مفسدة، ولو كان ذلك الرأي لا يمثل الرأي الراجح في المذهب السائد، وهذا اتجاه سديد وجدير بالتشجيع، لأن غاية الأحكام الشرعية تنظيم الحياة الاجتماعية، وتخفيف المفاسد، ودفعها ما أمكن، وضبط العلاقات بين أفراد الأسرة بطريقة لايقع فيها ظلم على أي فرد، وهذا ما نجده في اتجاه القوانين العربية إلى تحديد الحد الأعلى لمدة الحمل، بألا يتجاوز سنة، مالم يقر به الزوج أو الورثة.

ولعل البعض كان يتوقع من القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية أن يأتي بأحكام جديدة، يسبق بها القوانين التي سبقته، وهذا احتمال بعيد، وتوقع غير ممكن، لأن القيود التي تضبط حركة القانون العربي الموحد أشد من القيود التي تضبط حركة القوانين الأخرى، فالقانون العربي الموحد مطالب بأن يستجيب لكل القيم السائدة في المجتمعات العربية، وبأن يحترم كل الآراء الفقهية، وبألا يخرج عن قاعدة فقهية مقررة أو حكم راجح، فإن تجاهل هذه الضوابط والقيود رفضت الجهة التي تجاهل مطالبها التصديق عليه، وبناء عليه كان من المتوقع أن يأتي هذا القانون بمعجزة ترضي الجميع، لكي تكفل المصادقة عليه والمعجزة هي أن يجرد هذا القانون من كل حكم مخالف للاجماع، وأن لا يطمح في أي حكم اجتهادي، مما هو مختلف فيه، وأن يتوقف عند حدود مااتفقت عليه القوانين، تاركاً للقوانين العربية المحلية أن تضيف ماتراه محققاً للمصلحة، مراعية في ذلك ظروف المجتمع متأثرة بما اتجه إليه الفقه المذهبي السائد من آراء، أخذه بعين الاعتبار ما يراه فقهاء وقضاة كل بلد عربي من آراء جديرة بالاهتام.

ومن جديد تتوجه الأنظار إلى القوانين العربية المحلية لكي تشق الطريق للقانون العربي الموحد، تعبد له الطريق، وتمهد له السبل، وتتخطى حواجز التقليد، فهي أجدر على التحديد والاجتهاد وهي ألصق بالمجتمع، لأنها وليدة قضاياه ومشاكله.

المجتمع الاسلامي في مواجهة التحديات الحضارية الحديثة

أبو بكر القادري

اختلفت المعايير الاجتماعية وتعددت، وأصبحت المجتمعات الاسلامية، ومنها المجتمع المغربي، مستهدفة لكثير من المفاهيم والأفكار والنظريات البعيدة البعد الكبير عن المفاهيم والنظريات الإسلامية، نظرا لاحتكاكها واتصالها بالمجتمعات الغربية، وتقليدها لها، وأخذها عنها كثيرا من المفاهيم والأفكار، الأمر الذي انعكست آثاره على التصرفات في المجتمعات الاسلامية، فأصبحت تفقد خصائصها وما يميزها عن غيرها من المجتمعات. وسواء أكان هذا التغيير الذي تسرب إلى المجتمعات الإسلامية، نتيجة مخططات استعمارية، وضعت لمحو معالم الوجود الحضاري الخاص بالمجتمعات الإسلامية، أو كان نتيجة تخلّف اجتماعي أصاب مجموع الأمة الإسلامية، نظرا لابتعادها عن حقائق الدين الحنيف، وعدم ادراكها للأصول التي أراد الإسلام أن تبنى المجتمعات على أساسها أو كان نتيجة تقليد المغلوب للغالب، كما وقع لدى كثير من المجتمعات في القديم والحديث سواء كان هذا السبب أو ذاك فإن النتيجة واحدة، وهي أن المجتمع الإسلامي صار يفقد خصائصه المميزة، ويندمج راضيا أو مغلوبا على أمره، في مجتمعات بعيدة عن روحه ومكوناته الأساسية.

وقبل أن أُبين الأسباب التي جعلت مجتمعنا يفقد خصائصه، لابد أن أعطي تعريفا للفظة المجتمع. إن المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس، قدر لها أن تعيش في بقعة جغرافية محددة، ويتجلى نشاطها وعملها في مجالات مختلفة، من أجل أن تحقق أهدافاً مشتركة، لها مصلحة في تحقيقها، ومن أجل أن تعيش عيشة راضية هنيئة تشعر معها بالسعادة والهناء، والتعاون الوثيق فيما بينها. ولعل الأسرة بمعناها الضيق تمثل البذرة الأولى لقيام المجتمعات، ثم يأتي من بعدها تجمع القبيلة والدولة.

إنه إذا كانت المجتمعات الانسانية، متعددة الأشكال والألوان والمعتقدات، فإن لكل منها مميزاته الخاصة، وروابطه المحكمة وملامحه المميزة، فللمجتمع الإسلامي ملامحه الخاصة وللمجتمع الجاهلي قبل ظهور الإسلام ملامحه الجاهلية، وللمجتمع الغربي الحديث ملامحه الخاصة به أيضاً.

لقد كان المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام مجتمعاً جاهلياً، تتجلى جاهليته في كثير من التصرفات والعوائد، والتقاليد، فلما جاء الإسلام غيّر كل تلك الملامح الجاهلية، والروابط التي كانت بين الجاهليين، وأبدلها بروابط بنيت على أساس العقيدة والأخوة، ولذلك صار المسلم مهما كان جنسه أو لونه، يشعر برابطة قوية تربطه بأخيه المسلم، سواء أكان عربيا من جزيرة العرب أو فارسياً أو رومياً أو عبدا حبشيا، فسلمان الفارسي وَصهيب الرومي وبلال الحبشي لا يختلفون جميعهم في أخوتهم وانتمائهم للمجتمع الإسلامي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهم أجلاء الصحابة الكرام.

وإذا كان للعوامل الجغرافية والطبيعية والعِرقية وغيرها أثر في تكوين المجتمعات، فإن الإسلام يقفز عليها جميعها ويجعل من العقيدة أساس ارتباط المجتمعات الاسلامية، والأخوة لحمتها وسداها.

إن المسلم من أي جنسية كان، يشعر في أعماق نفسه أنه مرتبط ارتباطا وثيقا مع أخيه المسلم كيفما كان جنسه أو لونه أو لغته، إن الجنسية تضعف أمام العقيدة، والشعور بالأخوة متمكن من قلوب المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا مع اخوانهم المسلمين، ويتجلى هذا أعظم تجلّ في مواسم الحج، حيث يشعر المسلمون من جنسيات مختلفة أنهم متساوون متقاربون، اخوة متحابون، مهما بعدت ديارهم عن بعضهم، وحتى إذا لم يستطيعوا التفاهم مع بعضهم لاختلاف لغاتهم، وتباين لهجاتهم، وتعدد جنسياتهم، فالرابطة الحقيقية العميقة التي تربطهم مع بعضهم بعضاً، هي رابطة الدين الذي يدينون به، وليست رابطة الجنس ولا رابطة النسب ولا حتى رابطة اللغة. وليس معنى هذا أن المسلم يتنكر لجنسيته أو نسبه أو لغته ، ولكن الرابطة القوية المسيطرة هي رابطة العقيدة والدين. ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن هناك مجتمعا اسلامياً يختلف في عمقه عن بقية المجتمعات الانسانية الأخرى، وان له خصائص تميزه عن بقية المجتمعات.

لقد تساءل الأستاذ هـ. ا. د. جيب في كتابه «وجهة الإسلام» عن الأجناس التي تعتنق الإسلام هل ترتبط برابطة مشتركة من الشعور والمصلحة والأفكار ارتباطا

ناشئا عن دينهم ؟ وأجاب بنعم، ثم قال : فرغم كل النزاعات الجديدة والآراء التي تسربت من أوروبا إلى المسلمين، ورغم الانحلال السياسي والتفاوت الثقافي لا تزال لجميعهم رابطة واحدة من الشعور والمصلحة والأفكار. هذه فيما يظهر قضية لا ريب فيها، كما لا ريب في أن أساس الوحدة يتلخص في اعتناق دين واحد، وفي الاشتراك في أصل واحد من الثقافة الدينية[1].

إن لكل مجتمع أصولا ومباديء يقوم عليها، ونظما يسير طبق توجيهاتها، وقواعد تحدد علاقات أفراده بعضهم مع بعض، ومع غيرهم من المجتمعات. والمجتمع الإسلامي الحق، هو الذي ينبعث ويؤسس ويكوّن ويسير طبق المنهاج الذي أراده الإسلام لحياة الانسان في هذا الكوكب الأرضي، فهو مجتمع إلاهي ديني، يختلف كل الاختلاف عن المجتمعات التي ترمي الدين وراءها ظهريا، لأنه مرتبط بالاسلام الذي أتى يهدف إلى اصلاح نهج الحياة الانسانية، مثل ما يهدف إلى التقويم الروحي في الانسان، فليس الاسلام مطلق عقيدة صوفية أو فلسفية مثالية لا ارتباط لها بالسلوك الانساني في الحياة، ولكنه كما يقول محمد أسد : «نهج من الحياة، حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الانسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام، تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضا أساسيا بين حياة الانسان الجسدية، وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلا، أمر «يؤكده الاسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة»[2].

فنظرة الإسلام إلى الحياة تختلف كل الاختلاف عن نظرة غيره، وتصور المسلمين الديني يختلف عن تصور غيرهم من الأوروبيين وغيرهم.

ويعبر عن ذلك أيضا المستشرق الانجليزي «هاملتون جيب» فيقول : «أما لفظة الإسلام فإنها تشير أساساً وفي المقام الأول إلى تصور ديني للحياة، ومهما يتسرب إلى المصطلحات الدينية والإجتماعية من عناصر وعوامل ثانوية، فإن اللب أو العامل المحقِّق للبناء ــ لا العناصر الدخيلة الثانوية ــ هو السر الباطني لمعنى الحياة، ولقصارى غايتها في هذا العالم، أياً كانت الصور والأشكال التي تتخذها الحياة.

(1) «وجهة الاسلام» ص 204.

(2) «الاسلام على مفترق الطرق». ص 22.

وكل امرىء حاول استكناه طبيعة المواقف الدينية لدى ناس تختلف نظريتهم إلى الكون اختلافاً بعيداً عن نظرتنا، ناس وجّهت نظرتهم ـــ كلياً أو جزئياً ـــ مأثورات مباينة لمأثوراتنا. كل امرىء حاول ذلك لا يستطيع أن يهوّن من شأن الصعوبة التي تواجهه في محاولته.

إلا أن العقل الغربي الحديث يعسر عليه ـــ بوجه خاص ـــ أن يقوم بتلك المحاولة، لأن الدين سواء أكان في صورة قوة محسوسة أو قوة ذات أثر روحي، يتطلب تدريب ملكة الإدراك الحدسي، أي يتطلب طفرة العقل التي تعبر خضم كل المعلومات والمناهج المتبعة في التحليل العقلي والمنطقي وتتخطى حدوده، لتستكنه بالتجربة المحسوسة وعلى نحو مباشر، عنصرا ما من العناصر القائمة في طبيعة الأشياء مما لا يستطيع التعقل أن يصفه أو يحدد هويته (الايمان هو الثقة بما يرجى والايقان بأمور لا ترى) أما الرجل الغربي النموذجي الذي ورث الفكر الانجليزي العقلاني وقيم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأصبح موجها عقليا بقوة ذلك الفكر، أو بقوة الفكر الألماني وقيم السنوات المائة والخمسين الماضية، فقد هزلت وأهملت لديه ملكة الحدس حتى أنه ليأبى أن يسلم بمحض وجودها، ولا يستطيع أن يتصور كيف تؤدي عملها، ولذلك أصبحت أحكامنا الدينية ـــ نحن الغربيين ـــ شديدة الاختلال»[3].

إن الإسلام يؤكد على ضرورة الخضوع لقوة عليا مسيطرة تدبر شؤون هذا العالم، وتحيط بأسراره، ولا يجوز التنكر لها، أو غض الطرف عن سيطرتها المطلقة، وان المجتمع الإسلامي الحق لابد أن يبقى ملتزما بالتعاليم الاسلامية والمنهج الإسلامي في الحياة، لأن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة وأخلاق، وهو تشريع ومعاملات أيضاً، فلا يكفي أن يعتنق المسلمون الإسلام بأفواههم، دون أن يكون مدلول الإسلام واقعاً ملموساً في حياتهم، ولا يكفي أن يقول المسلمون أنهم يؤمنون بالله والرسول مع ابتعادهم عن اتباع نهج الاسلام في الحياة.

إن المجتمعات المنتمية حقيقة إلى الاسلام، لا يمكنها أن تنفك عن تعاليمه وتوجيهاته في كل تصرفاتها وجميع مظاهر حياتها، وهذا عكس ما انبنت عليه المجتمعات الغربية، حيث أنها ترفض عمليا وفكريا كل انتماء إلى الدين، وتبعده عن كل تعامل في الحياة، وحيث أصبح هدفها الأساسي التعلق بالعلم، والاحتكام إلى العقل واكتشاف كوامن

(3) «دراسات في حضارة الاسلام»، ص 235 و236.

الحياة من غير اعتبار قريب أو بعيد لأية حقيقة أدبية، وبحيث أصبحت حياة الغربيين حياة مادية صرفة، فالغاية هي الرقي المادي والسيطرة على الطبيعة، دون اعتبار لأي شيء آخر.

إن للمجتمعات الإسلامية مميزات لا يقبل ولا يصوغ أن تنفك عنها، وتتجلى بعض هذه المميزات في النقط الآتية :

1) عقيده راسخة في الايمان بالله وما أتى به رسول الله.

2) ممارسة العبادات التي تربط الانسان المسلم بربه من صلاة وصيام وحج.

3) اتباع التعاليم الإسلامية القرآنية والنبوية في السلوك العام وهو ما يعبر عنه بالأخلاق القرآنية.

4) الخضوع للتوجيهات الاسلامية في تنظيم الأحكام والأخذ بمباديء العدل والشورى وصيانة كرامة الفرد والجماعة.

5) ابراز فكرة التعاون التي أتى بها الاسلام وتطبيقها مع المسلمين وغير المسلمين شريطة أن يكون على الخير وصلاح المجموع البشري، واحترام حقوق الانسان وسياسة عدم العدوان.

6) اتباع نهج اقتصادي سليم وعادل يضمن العيش السعيد لكل بني الانسان ويراعي فيه جانب الكسب الحلال الرافض للربا وكل أنواع الاستغلال، واعتبار الزكاة واجبا عينيا يحقق التكافل الاجتماعي ويضمن حقوق الفقراء.

7) تطوير المجتمع لما هو أفضل وفرض نظام اجتماعي يقوم على العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات وابعاد كل تمييز أو تفرقة على أساس من الجنس أو اللون أو الدين أو المركز الاجتماعي والاقتصادي.

8) تكوين الفرد المسلم على أساس نظام تعليمي سليم باعتبار أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأن الله لا يعبد بجهل.

9) المحافظة على العقل وتنمية مواهبه.

هذا من حيث تقرير الخصائص المميزة للمجتمع الإسلامي أو لمجموع المجتمعات الإسلامية. وهو مدخل للموضوع كان لابد أن نستوفيه حقه من الشرح والايضاح والتحليل قبل الانتقال إلى القضية الأساس.

واستناداً إلى هذه القواعد فإن الإسلام يفرض الاهتمام بالتقدم المادي في الحياة، ويدعو إلى اكتشاف كوامن الطبيعة ولكن غير بعيد عن الاعتراف بأن هناك قوة عليا مسيطرة سيطرة كاملة على أسرار الطبيعة، والطبيعةُ مسخرة لها، وهذا ما يجعل نظرة الإسلام متخالفة مع نظرة العالم الأوروبي للحياة، ومن هنا فان ما يسير عليه العالم الغربي في حياته، يتنافى تنافيا كليا مع ما ينبغي أن تسير عليه المجتمعات الاسلامية في تعاملها مع الحياة. ومن هنا فان المجتمعات الاسلامية لا يقبل منها أن تسير في نفس النهج الذي تسير عليه الحياة في الغرب، فالمدنية الغربية «لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي ان الأوروبي الحديث ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك فإن العقل الأوروبي يميل بداءة إلى اسقاط «الله» من دائرة الاعتبارات العملية»[4].

المجتمع الأوروبي ينسب إلى المسيحية، والمسيحية في حقيقتها ديانة روحانية سامية أتت من عند الله لتزكية البشرية وتطهيرها من أدران الشرك والمادية والخضوع لغير الله، وأتت تدعو إلى الأخلاق السامية والفضائل المثلى، ولكن الأوروبيين ومدنيتهم ليسوا ملتزمين بالتعاليم التي أتى بها المسيح عليه السلام، فمدنيتهم في حقيقتها ليست نتاج تعاليم المسيح، ولكن أسسها الفكرية الحقيقية، مأخوذة عن (فهم الرومانيين القدماء للحياة) فهي مدنية لا دينية في حقيقتها، بعكس المدنية الإسلامية يقول محمد أسد في كتابه : «الاسلام على مفترق الطرق» : «ان المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثيقة، وهي لم تأخذ من النصرانية التي اعتنقتها لأسباب قاهرة، سوى الطلاء الخارجي فحسب، ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية، لا تؤمن بغير القوة، من أجل ذلك نرى فرقاً عظيماً بينها وبين الإسلام الذي بني على الروح والأخلاق والمثل العليا، تلك الأسس التي خلقت في الإسلام مناعة ذاتية جبارة»[5].

إن واقع الحال يثبت أن المجتمعات الإسلامية أصبحت تتأثر كثيرا بالمجتمعات الغربية المادية، وأصبح التوجيه الديني يفقد أثره في منهاج الحياة التي يحياها المسلمون، وأصبحنا ننظر إلى الدين وكأنه مطلق عبادة نتعبد بها إلى الله، دون أن نطبق تعاليمه

(4) «الاسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد، ص 39.

(5) «الاسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد، ص 39.

في تعاملنا مع الحياة، وأصبح بعض المثقفين يعتبرون الدين مجرد اعتقاد وجداني لا ينبغي أن تكون له أية علاقة بتصرفات الحياة وتوجهاتها، وانه يتنافى مع الحقائق العلمية التي لا تخضع إلا للتجربة وان «الأحداث أو الظواهر النفسية في الانسان، هي تابعة في وجودها لطبيعته المادية، وان التغيير المادي لديه يصحبه تغير نفسي»[6].

ومن ثم كان التوجيه في نظر هؤلاء للعمل لا للدين، وللتجربة دون ما عداها، إننا لا ننكر قيمة العلم وضرورته وعطاآته المتنوعة والمتعددة، سواء في مجال التجربة أو غيرها، ولكننا نعتقد أنه وحده لا يصل بالانسان إلى الكمال، وإلى الاطمئنان كما أنه لا يستطيع أن يكون الضمير والقلب السليم الذي به يسعد الانسان، يقول الدكتور محمد البهي : «ان العلم الحديث، لم يستطع أن يوجد حتى الآن، القوة الذاتية في نفس الانسان، وهي ما نسميها بالضمير، ويستحيل عليه كذلك أن يوجد هذه القوة، للتناقض بين ما يأتي به هو، والجو الذي تنشأ فيه»[7].

إن اتصال كثير من المثقفين المسلمين بالثقافة الغربية، وتأثرهم وتفاعلهم مع الحضارة الغربية جعلهم يبعدون دور الدين في توجيه الحياة الانسانية، ويتوجهون في حياتهم، ويريدون أن يوجهوا مجتمعاتهم توجها علمانياً محضاً، سواء في المجالات الادارية أو السياسية أو التشريعية أو التعليمية أو الأدبية أو الاجتماعية، معتقدين أن حياة العصر تفرض ذلك، وان عدم مسايرة الحياة العصرية الغربية يعتبر تخلفاً وتشبثاً بأفكار بالية، ولدى مناقشتهم في الموضوع لا يرفضون الدين كلية، ولكنهم يعتبرون مهمته أصبحت محدودة في مجال الاعتقاد والتعبد.

ويجب هنا أن نوضح الحقيقة التالية وهي :

إننا لا نرفض الرفض القاطع مستحدثات الغرب الأوروبي في ميادين الحياة والفكر والتطور والعلم ولكننا بعكس ذلك نرغب في تنظيم مجتمعاتنا تنظيماً عصرياً نستنير فيه مما هو موجود لدى الأوروبيين سواء في ميادين الاقتصاد أو السياسة أو مختلف أنواع المعرفة على أن لا ينحرف مجتمعنا عن عقيدته الثابتة وعن الأهداف المثلى الذي يدعو إليها الاسلام في مختلف مجالات الحياة الانسانية وعلى أن لا نفقد شخصيتنا وذاتيتنا وحضارتنا وتقاليدنا السليمة الصحيحة.

---

(6) «الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر» للدكتور محمد البهي، ص 340.
(7) «الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر» للدكتور محمد البهي، ص 346.

إن ما نرفضه هو الأخذ بقشور الحياة الغربية والتقليد الأعمى لكل ما غمرتنا به وما صدّرته إلينا من أفكار وتقاليد وأخلاق لا تمت إلى حقيقتنا الاسلامية بصلة، نحن نستفيد ونأخذ المفيد ولكننا نرفض الاستغراب والتبعية المطلقة والاندماج ونقاوم إبعاد الاسلام عن توجيه الحياة.

ومن هنا فإن ما سار فيه البعض من المثقفين من إبعاد الدين عن مجالات الحياة العامة سواء في ميادين التشريع والتقنين، أو في مجالات توجيه المجتمع السياسي والثقافي، يعتبر من الأخطار التي تهدد مستقبل مجتمعنا، والتي يجب أن تتكاثف جهودنا لتفاديها. إن دور الاستعمار كان خطيراً في الترويج للأفكار الدخيلة، وان المخططين للاستعمار من بعض رجال الاستشراق والقساوسة وحكماء صهيون، كانوا من العاملين الأساسيين على ترويجها وتركيزها في عقول بعض المتعلمين والمثقفين، معتمدين على المدرسة والمعهد والأستاذ والكتاب والأفلام ووسائل الاعلام وغير ذلك من أدوات التوجيه والتأثير، فتضعضع الالتزام بالمفاهيم والقيم الاسلامية وانساق بعض المثقفين الانسياق الأعمى لمفاهيم الغرب بعد توليهم لمسؤوليات التسيير في مجتمعاتهم واتجهوا بالحياة الاتجاه العلماني الذي لم يبق يعير أي اهتمام لمفاهيم الاسلام، وهكذا صارت المجتمعات الاسلامية تبتعد شيئا فشيئاً عن مفاهيمها وأصالتها وحضارتها وقيمها وتسير في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، طبق المنهج الغربي في الحياة. وبرزت للوجود فكرة فصل الدين عن الدولة، وابعاد الدين عن مجالات الحياة وصار تعليمنا وكأنه تعليم علماني رغماً عن بعض الحصص الدينية التي تلقى على التلاميذ والتي لا يكون لها تأثير مجد في حياتهم العامة، وقل مثل ذلك في قضايا التشريع والتقنين ومختلف المعاملات، حيث أصبحت القوانين المعمول بها في قضايا الأحكام ــ غير الأحوال الشخصية ــ بعيدة كل البعد عن التشريعات الاسلامية، وحتى في قضايا الأحوال الشخصية والإرث أصبحنا نسمع من يطالب بمراجعتها أو التراجع عنها، بل تعدى ذلك إلى عدم اعتبار المقاييس الخلقية في الأخلاق العامة، بحيث أصبحت المعايير الخلقية لا تلتفت إلى ما أتى به الاسلام وما نهى عنه من تصرفات.

ويضاف إلى ذلك كله ما غزا المجتمعات الاسلامية من أفكار ونظريات وايديولوجيات إلحادية مادية صرفة أصبح معتنقوها وكأنهم في مجتمع لا يمت إلى الاسلام بصلة.

ولعل من المناسب أن نقول إن الحركة الوطنية المغربية بعد الاستقلال اهتمت بقضايا التحرير الوطني والتنمية الاقتصادية ودستورية الحكم والدفاع عن المستضعفين

بتمكينهم من حقوقهم في الحياة الكريمة الهنيئة، ولكنها لم تهتم ــ كما كانت في السابق ــ الاهتمام الكبير بقضايا التحرر من رواسب الاستعمار الفكري والثقافي واللغوي والفرنكفوني، وأصبحنا نرى بأم أعيننا، ان ما عجز عنه الاستعمار أيام وجوده وغطرسته، يسير بنجاح في عهود الاستقلال، أن لا مناص لنا إذا ما أردنا أن نصون مجتمعنا من الذوبان في مجتمعات الغربيين أن نرجع لحقيقتنا الاسلامية، فبدون الرجوع إلى حقائق الاسلام، لا يمكننا أن نصون مجتمعنا أبدا، إن اعتماد الاسلام ــ كما يقول علال الفاسي ــ هو الذي سهل علينا معرفة أدوائنا التي أوجزناها وبذلك فلن نحتاج لأكثر من تذكير أمتنا بضرورة التفكير في اصلاح ما أفسدته الأجيال من مجتمعها الذي حاد عن مثلها السامية[8]. إن المجتمع في الاسلام إنما ينبثق من التلازم الوثيق بين التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي، ذلك التلازم الذي لا ينفصل ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة[9].

إننا نقرر من منطلق الوعي بواقعنا الفكري والاجتماعي وموقعنا الحضاري المتخلف ومن واقع ادراكنا لخصوصية ديننا الموحد للأمة الاسلامية الواحدة، أن الوحدة الفكرية العقائدية هي نقطة التلاقي بين مختلف المجتمعات الاسلامية في مختلف الأقطار الاسلامية، وإذا كانت هناك اختلافات في بعض العوائد والتقاليد والتصرفات، فإن تلك الاختلافات لا تمس جوهر الوحدة الفكرية العقائدية التي ركزتها العقيدة وثبتتها وصانتها في نفوس وعقول كل المسلمين مهما بعدت ديارهم عن بعضهم، ومهما تعددت جنسياتهم ولغاتهم، فليس هناك اسلام في آسيا يختلف عن الاسلام في افريقيا وليس اسلام الماليزيين يختلف عن اسلام المصريين، وإنما هناك اسلام واحد، حقيقته الايمان بالله والرسول وعن هذا الايمان تكونت عقلية المسلمين، وبهذا الايمان توحدت مجتمعاتهم.

والتحديات التي تواجه الاسلام، والمجتمعات الاسلامية، تواجههما في كل مكان في المعمور، لأنها تواجه العقيدة الأساس التي التقت حولها المجتمعات الاسلامية في كل مكان في المعمور.

وخلاصة القول فإن المجتمع الاسلامي كما عبر عن ذلك الامام المودودي رحمه الله «يختلف عن سائر المجتمعات، لأنها انما تتكون نتيجة لحوادث مفاجئة، على حين

(8) «النقد الذاتي»، ص 255.

(9) «نحو مجتمع اسلامي» لسيد قطب، ص 62–70.

أنه يتكون بفعل ارادي، ولا يبرز تنظيمه إلى حيز الوجود، إلا حسب ميثاق يتم بين الله عز وجل وعباده، على شعور منهم يعترف العباد في هذا الميثاق، بأن الله حاكمهم، وان هُداه هو الدستور لهم، وأحكامه هي القانون لحياتهم، وانهم لا يكون الخير عندهم إلا ما يرشدهم إليه، ولا الشر إلا ما ينهاهم عنه، وانهم لن يأخذوا المقياس للصحيح وغير الصحيح، والجائز وغير الجائز، والحلال وغير الحلال، إلا منه وحده، وانهم سيحدون حريتهم بحدوده»[10].

* * *

قرأت لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة قال فيها :

«من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم، لم يكن أوفى الاسلام حقه، فيقمع باطلهم بالعقل، ويبين صحة مذهبه بالعقل والنقل». إن التحولات التي تقع في المجتمعات الاسلامية، والانتكاسات التي تقع داخل بلاد الاسلام، ان هي الا نتيجة لركود وجمود بعض الأفكار في البلاد الاسلامية من جهة، وللحملات والتهجمات والمكائد التي ينصبها أعداء الاسلام لديننا الحنيف من جهة أخرى، فمن واجبنا ونحن نعتبر أنفسنا خير أمة أخرجت للناس، أن نصحح مفاهيمنا، ونوضح حقائق الاسلام كما أتى بها القرآن والحديث الصحيح، توضيحا لا لبس فيه ولا زيف ولا تضليل، ومن واجبنا أيضا أن نتعرف إلى الأكاذيب والدعاوي المغرضة والأفكار الهدامة التي تهاجمنا في عقر ديارنا، وداخل حدودنا، لنرد عليها ونبين زيفها وبعدها عن الحق والصواب.

إن التحديات الحضارية الضارية التي تواجهنا انما تأتي من أن خصوم الاسلام واعداءه والمتربصين به الدوائر يعرفون عن تراثنا الشيء الكثير، ويعرفون عن حقائقنا ما يعرفه الكثيرون هنا، انهم يعقدون الاجتماعات والمؤتمرات، ويؤسسون الأكاديميات والمعاهد، ويضعون المؤلفات والنشرات، ويرصدون الأموال الطائلة، لدراسة أحوالنا، وتتبع نواحي الضعف في مجتمعاتنا، لابراز مكامن الضعف والتخلف في حياتنا، ولحمل معاول الهدم والتحقير لعقيدتنا، هادفين إلى فصل امتنا عن عقيدتها وتراثها ولغتها، وعاملين على خلق اتباع وتلاميذ لهم، يتبعون نهجهم، ويسيرون على هديهم، وينفذون مخططاتهم، ويأتمرون بأوامرهم، ويسخّرون لنخر كيان الأمة المنكودة بوجودهم، ويوهمونهم أن تطور الأفكار، ومسايرة التقدم الحضاري، يفرضان الابتعاد عن التعاليم الدينية التي من شأنها أن تقف حجر عثرة في سبيل التقدم المنشود، والرقي الحقيقي.

(10) «نظرية الاسلام» للمودودى، ص 152.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أنه يأتي في طليعة هؤلاء الخصوم (مسيو هانوتو) وزير خارجية فرنسا في عهده، فلقد كتب عن الاسلام مقالين كلهما كذب وبهتان ضد الاسلام وادعى أن المسلمين ليست لهم أية ثقافة أو معرفة، وان ما لديهم من الثقافة إن هو الا بعض ما أخذوه عن «البيزنطيين وليست ثقافة أصلية ابتدعوها»، ويقول في مقاله الطويل الذي ناقشه مناقشة علمية ورد عليه الرد القوي الأستاذ الامام محمد عبده رحمهُ الله في كتابه : «الاسلام دين العلم والمدنية» يقول هانوتو : «وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه، ديانتان : احداهما ربانية، والثانية بشرية، أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين، والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية، وان كانت مشتقة منه، وغصناً من دوحته، ومن خصائص هذه الديانة، ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية، على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام، المشوبة بتأثير مذهب السَّامية، تحط بالانسان إلى أسفل الدرك، وترفع الاله عنه في علاء لا نهاية له»[11] ويكتب خصم ألد للاسلام هو المسيو «كيمون» في كتابه «باتولوجيا الاسلام» فيقول : «إن الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث الانسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمع في القبائح، وما قبر محمد في مكة (كذا) إلا عمود كهربائي، يبث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات»[12] ويزيد فيقول : «إن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع، وان الواجب إبادة خمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف «اللوفر» هو حل بسيط، وفيه مصلحة للجنس البشري»[13].

وزيادة في سوق الأمثلة نشير إلى أنه يأتي بعد هاذين الخصمين الألدين الباحث المجري : «جولدزيهر» فيكتب عن القرآن والحديث ما شاء له هواه ويكتب عن التفسير الاسلامي ويساهم في وضع دائرة المعارف الاسلامية، ويصبح كتابه عن عقائد المسلمين

(11) «الاسلام دين العلم والمدنية»، ص 29.
(12) نفس المرجع، ص 30.
(13) نفس المصدر، ص 30–31.

مرجعا من المراجع الأساسية التي يستقي منها بعض المثقفين المسلمين. وهناك المستشرق «فينسينك» العدو الألد للاسلام الذي يضع كتابا حول : «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» الذي يصبح أيضا مرجعا أساسيا أيضا لدى بعض الجامعات الاسلامية، ويكتب اليهودي «فون جروبناوم» الأستاذ بجامعة «شيكاغو» كتابين عن الاسلام، ويسمى أحدهما : «إسلام العصور الوسطى» والثاني يسميه «محاولات في شرح الاسلام المعاصر».

أما الراهب البلجيكي «لامنس» فلقد استغل دائرة المعارف الاسلامية التي صدرت في مدينة «ليدن» الهولاندية باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية بعنوان «Encyclopédie de l'Islam» ليتقول على الاسلام، ويخون أمانة العلم، ويحرف آيات القرآن، ويخلطها بآيات من شعر العرب، ويطعن الطعن الفاحش في كتب الثقاة من المؤلفين المسلمين، ويأتي بأفكار لا تمت إلى الحقيقة بصلة حتى اضطر الباحث الكبير درمنغم أن يردَّ عليه قائلا : «ان كتب الأب لامنس الجيدة قد شوهت محاسنها بما بدا في تضاعيفها من كراهة الاسلام ورسوله، فاستعمل في التاريخ طرقاً بالغ فيها بالنقد»(14).

وغير هؤلاء كثير سواء من القدامى أو المحدثين لقد حمل هؤلاء واضرابهم حملة شنيعة ضد الاسلام ودعوته وضد شخص الرسول الأمين محمد عليه السلام وأصحابه الميامين رضوان الله عليهم أجمعين، واستعملوا من الوسائل والأساليب المكذوبة، ما يندى له جبين تاريخ الفكر الانساني، الأمر الذي دفع كاتبا فرنسيا اعتنق الاسلام ووضع كتابا عن السيرة النبوية وهو (المسيو إتيان دينيه) أن يقول : «ليت شعري ما عسى أن يكون منشأ البغض الذي يضمره المسيحيون الغربيون للاسلام، وهو مع عدم قابليته للتغيير، يقدم لهم كثيراً من الأدلة على احترامه لعيسى، هذا البغض استمر في عصرنا هذا عصر التسامح الديني، ان لم نقل عصر عدم اللامبالاة بالدين ـــ أَلِكَوْن نشأته آسيوية ؟ ولكن ألم تكن المسيحية آسيوية ؟ في جوهرها قبل تخليصها من اليهودية بواسطة بولس الرسول، فقد قال عيسى نفسه إني لم أرسل إلا لخراف بني اسرائيل الضالة (انجيل متى 15) ام من شريعته ؟ ولكن شريعة الاسلام تكاد تكون مطابقة لمذهب بعض اشياع المذهب البروتستاني (كذا) أم من ذكرى الحروب الصليبية ؟ نعم إن هذه الذكرى رغما من تقادم الزمن لا تزال تفعل فعلها المشؤوم في نفوس كثير من الجهلاء، ولكنها لا تكفي

(14) «الاسلام والحضارة العربية» لكرد علي، ص 31.

ولكنها لا تكفي وحدها في تعليل حكم الاعدام الذي قضى به على الاسلام في أوروبا، فلابد إذن من تلمس سبب آخر[15].

هذا ضرب من التحديات الفكرية يشكل أسس التحديات الحديثة، ولكن لابد أن نتساءل عن الأسباب الحقيقية والدوافع التي جعلت هؤلاء الكتاب وأضرابهم، يقفون هذا الموقف المزري من الاسلام ونبي المسلمين، ومن القرآن والحديث النبوي الشريف، لماذا اتجهوا إلى الاسلام يفترون عليه المفتريات، ويخلقون من حوله الأكاذيب، سواء في العصور الوسطى أو في عصور النهضة، وحتى في العصور الأخيرة إلى يومنا هذا

لقد التقت الصهيونية العالمية، والاستشراق المغرض، والكنيسة الحاقدة، والاستعمار البغيض، والالحاد الخبيث، في خندق واحد ضد الاسلام، فكان لليهود الدور الأساسي قديماً وحديثاً في محاربة الاسلام واضعاف المسلمين، وكان للاستشراق دوره أيضاً وتلاقى جميع ذلك مع الأغراض الاستعمارية التي جندت الكنيسة لتحقيق أهدافها، ولقد ادركوا بعد دراساتهم العميقة ــ أن الاسلام بأصالته وسمو تعاليمه، لابد أن تقوم قومته، ولابد أن يستعيد مكانته في الوجود. ولهذا هبوا كل بطريقته ووسائله، ليعيقوا قومته ويعرقلوا تقدمه ونشاطه، ويحولوا بينه وبين الانبعاث من جديد. وهكذا صاروا يعقدون المؤتمرات ويقومون بالدراسات، ويوجهون الارساليات التبشيرية، ويخططون للمستقبل الذي كانوا يعتبرونه رهيبا إن لم يتداركوا الأمر.

لقد خطب القسيس الشهير «زويمر» في أحد المؤتمرات فكان من جملة ما قال : إن الاسلام قد بدأ ينتبه لحقيقة موقفه، ويشعر بحاجته إلى تلافي الخطر، وهو يتمخض الآن بثلاث نهضات إصلاحية، الأولى : إصلاح الطرق الصوفية، الثانية : تقريب الأفكار من الجامعة الاسلامية، الثالثة : إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب معقول، ومصدر هذا الشعور بالحاجة إلى الاصلاح واحد، وهو التغيير الذي حدث في الاسلام عندما اكتسحت أهله الأفكار العصرية والحضارة الفرنجية، ولا يمنع هذا أن يكون الشعور مؤديا إلى عاطفة الاحتجاج والحذر، أو إلى التوفيق والتحكيم، لأن كلا العاطفتين تجتمعان عند جعل الاسلام في مستوى الأفكار العصرية. ثم قال مشيراً إلى كتاب كان قد ظهر تحت عنوان : «حقيقة الاسلام» وألفه محمد بك بدر المتخرج من جامعة (ادنبرج) ان هذا الكتاب يدل على أن أشياع الاسلام الجديد، يريدون أن يرموا من السفينة مشحونها، لينقذوها من الغرق، ثم اشار إلى قول أحد الدكاترة من أن

(15) عن «الاسلام ومشكلات السياسة» الصابر طعيمة، ص 339–340.

الاسلام يتحكك في كل قطر بالمدنية العصرية ومبادئها، وملاحظته لهذه الانقلابات، يتوقف عليها بقاؤه، فتساءل عن نتيجة ذلك، وعما إذا كان في الامكان مجاراة تيار الحضارة مع الاحتفاظ بمبادىء القرآن وتعاليمه، وعمّا إذا كان التقدم الاجتماعي والعقلي المجرد من كل صبغة دينية كافياً لسد الحاجة الروحية للملايين من المسلمين، أو أن العالم الاسلامي، رجاله ونساءه ينهض من كبوته ليتسلق معالم المجد الذي أبقاه على الأرض يسوع المسيح ابن الله ؟

وفي موضوع الارساليات التبشيرية كتب القسيس السالف الذكر صموئيل زويمر منشيء مجلة (العالم الاسلامي) الانكليزية ما يلي :

«إن لنتيجة ارسالية التبشير في البلاد الاسلامية مزيتين مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالأحرى مزيتي تحليل وتركيب، والأمر الذي لا مرية فيه، هو أن حظ المبشرين من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد الاسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وجهات أخرى، هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه، ولا ينبغي لنا أن نعتمد على احصائيات التعميد في معرفة عدد الذين تنصروا رسميا من المسلمين، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور، ومتحققون من وجود مآت من الناس، انتزعوا الدين الاسلامي من قلوبهم، واعتنقوا النصرانية في طرف خفى»[16] وجاء في مقدمة كتاب نشره القسيس «زويمر» المذكور وجعل عنوانه : «العالم الاسلامي اليوم» مايلي : «إن الكنيسة المسيحية ارتكبت خطأً كبيراً بتركها المسلمين وشأنهم، إذ ظهر لها أن أهمية الاسلام في الدرجة الثانية بالنسبة إلى ثمانمائة مليون وثني، رأت أن تشتغل بهم، رأت هذا وهي لم تعرف عظمة الاسلام وحقيقة قوته، وسرعة نموه إلا منذ ثلاثين سنة فقط، على أن أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن في ممالك الاسلام الواقعة تحت سلطة النصرانية»، ومن جملة النصائح التي جاءت في المقدمة المذكورة : «إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها»[17] وكتب المسيو «شاتلييه» يقول : «لاشك أن ارساليات التبشير من بروتستانية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولاندية والفرنسية يتحكك الاسلام بصحف

(16) «الغارة على العالم الاسلامي»، ص 16 و17.

(17) نفس المصدر، ص 78 و80.

أوروبا،وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها، إلى أن يقول : ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى، إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية، إذ الضعف التدريجي، في الاعتقاد بالفكرة الاسلامية، وما يتبع هذا الضعف من الانتفاض والاضمحلال الملازم له، سوف يفضي ـــ بعد انتشاره في كل الجهات ـــ إلى انحلال الروح الدينية من أساسها، لا إلى نشأتها بشكل آخر، على أن المناقشة في هذه المسألة لا طائل تحتها، لأن الآراء تنبعث من وجهة التفكير، فلنقتصر إذن على القول بأن سير العالم الاسلامي تدرج نحو انحلال أفكاره الدينية وزوالها، وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق»[18]. وكتب القس «كالهون سيمون» مفصحا عن رغبة التبشير القوية في تفريق المسلمين التي عبر عنها «لورانس براون» فقال : «إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركات، ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة».

ولا يمكننا أن نغفل الدور الخطير الذي قام به الراهب الفرنسي «شارل دوفوكو» الذي كان يتجول في الصحراء بصورة يهودي، والذي قال عنه ضباط الأمور الأهلية (انه يساوي أكثر من طابور احتلال كامل) لقد كانت الغاية الأساسية التي جند نفسه لها طوال سنوات عديدات هي تنصير مسلمي الشمال الافريقي، ولقد جاء في مذكراته التي نشرت ترجمتها مجلة «البينة» التي كان يصدرها الزعيم الراحل علال الفاسي ما يلي : «أعتقد أنه إذا لم يتم تنصير السكان المسلمين في مستعمراتنا بشمال افريقيا فإن الحركة الوطنية ستقوم بها على غرار ما حدث بتركيا، إن نخبة من المثقفين ستكون بالمدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي دون أن يكون لها احساس الفرنسيين ولا طيبوبتهم، وان هذه النخبة ـــ عندما تتاح لها الفرصة بسبب صعوبات داخلية أو خارجية تحدث ـــ ستحتفظ بمظاهر الاسلام، رغم ضياع روحه لتؤثر على الجماهير، ومن جهة أخرى، فإن جمهور الشعب من البدو والرّحل، سيبقى جاهلاً عديم الصلة بنا متمسكا باسلامه، حاقداً على الفرنسيين، محتقراً لهم بدافع من وازعه الديني واشياخه ومعاملة الفرنسيين من رجال السلطة ومعمرين وتجار ممن لا يلمس فيهم دافعاً على محبتنا، ولهذا فإن الروح

(18) نفس المصدر، ص 17-19.

الوطنية ستشب في نفس النخبة المثقفة التي عندما تتاح لها الفرصة بسبب صعوبات داخلية أو خارجية تحدث لفرنسا، فإنها ستستخدم الاسلام لتحريض الشعب الجاهل على الثورة، وتحاول خلق امبراطورية افريقية مستقلة اسلامية. إن ثلاثين مليوناً من البشر يسكنون في مستعمراتنا بشمال غرب افريقيا بما فيها الجزائر والمغرب وتونس وافريقيا الغربية، وإن هذا العدد سيَتضاعف بعد خمسين سنة وتصبح هذه البلدان غنية مزدهرة، وقد تعود سكانها على استعمال أسلحتنا وتكونت منهم نخبة بمدارسنا، وإننا إذا لم نجعل منهم رعايا فرنسيين فإنهم سيطردوننا وان الوسيلة الوحيدة ليصبحوا فرنسيين هي أن يصيروا نصارى»[19].

* * *

من خلال ما أوردناه من أعمال وأقوال بعض المبشرين المسيحيين ندرك تمام الإدراك أن الغاية التي يعملون لها جاهدين هي استئصال العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين وابدالها بعقيدة التثليث، والقضاء على الشخصية الاسلامية لتندمج في الشخصية الأوروبية المسيحية، وانهم يتوسلون لتحقيق أغراضهم بكل الوسائل المتاحة لهم، مستعينين بالمدرسة والمستوصف والاغراء ونشر الأفكار المصادمة للأفكار الاسلامية، والتشكيك في الأديان عموماً ليصلوا إلى هدم الاسلام والطعن في القرآن وانه ليس كتاباً منزلا من عند الله وانما هو من وضع محمد عليه السلام، إلى غير ذلك من الأساليب والوسائل التي تحقق لهم أغراضهم، وهم يلتقون في مخططاتهم مع أساطيل الصهيونية الماكرين الذين يخططون بدورهم لتحقيق أهدافهم ونشر مبادئهم الرامية إلى تحطيم الأخلاق وافساد الذمم وتعميم الأفكار الهدامة، وترويج النظريات الالحادية التي من شأنها أن تقضي على الأسس الدينية والمباديء الأخلاقية.

فلقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون : «في تطبيق مبادئنا علينا أن ننتبه إلى الشعب الذي تقيمون بين ظهرانيه وتعملون ببلاده، وهذا الانتباه يتعلق بأخلاق ذلك الشعب، فإننا إذا أخذنا بتطبيق مبادئنا عليه، تطبيقا ظاهريا عاما وعلى نسق متماثل دون تمييز، وجرينا على هذه الوتيرة إلى أن نكون قد عدلنا وأصلحنا مادة التعليم لذلك الشعب، تعليما ينطبق على أهدافنا ومنوالنا، فعلى هذا الوجه لا مطمح لنا في ادراك النجاح، لكن إذا أخذنا نرعى التطبيق بيقظة واحتراس، فلن يمضي على ذلك أكثر

(19) راجع مقالا عن شارل دوفوكو في مجلة البينة العدد 8 للدكتور عز الدين العراقي والتعليق عليه من الزعيم علال الفاسي في كتيبه الصغير عن التبشير المسيحي وبعض الوثنيات الطائفية الهندية ص 11 و12.

من عقد من سنين، حتى يكون طور ذلك الشعب قد تغير حتى في اصلب ما يعرف عنه من خلق العناد والمشاكسة، وبذلك نضيف شعبا جديداً إلى صفوف الذين قدتم لنا اقتيادهم واخضاعهم لنا» (بروتوكولات حكماء صهيون ص 216) وجاء في الصفحة الموالية (217) : «وأما شباب الغويم فقد فتناهم في عقولهم ودوخنا رؤوسهم، وأفسدناهم بتربيتنا اياهم على المبادىء والنظريات التي نعلم أنها فاسدة، مع أننا نحن الذين لقنّاهم ما تربوا عليه». وجاء فيها أيضا :[20] «ولما ادخلنا اسم الليبراليه على جهاز الدولة، تسممت الشرايين كلها ويا له من مرض قاتل، فما علينا بعد ذلك، إلا انتظار الحشرجة وسكرات الموت، إن الليبرالية انتجت الدول الدستورية التي حلت محل الشيء الوحيد الذي كان يقي «الغويم» السلطة المستبدة ــ والدستور كما تعلمون جيداً ــ ما هو الا مدرسة لتعليم فنون الانشقاق والشغب وسوء الفهم والمنابذة وتنازع الرأي بالرد والمخالفة والمشاكسة الحزبية العقيمة والتباهي باظهار النزوات، وبكلمة واحدة : مدرسة لاعداد العناصر التي تفتك بشخصية الدولة، وتقتل نشاطها، ومنبر الثرثارين، وهو ليس أقل فسادا من الصحف في هذا الباب».

لقد اتجه الاستعماريون والصليبيون والصهاينة من أول وهلة إلى قضية التعليم باعتبار أن المدرسة هي الطريقة العملية المؤثرة والحساسة لتغيير العقلية وقلب المفاهيم وتوجيه الفكر التوجيه الذي يخدم اغراض الاستعمار والصليبية، فلقد كتب مسيو «شاتليه» في مجلة كانت تصدرها جمعية (الارسالية العلمية المغربية) كتب يقول : «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل، والتثبت من فائدته، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها، لأن لهذه المشروعات اغراضاً اختصاصية، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة في هيئتنا الاجتماعية التي من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الاقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التي يقوم بها الافراد، فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض الذي نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية : والعملية المبنية على قوة الارادة، وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل، ليبث في دين الاسلام التعاليم المستمدة من مدرسة الجامعة الفرنسية»[21].

---

(20) «بروتوكولات حكماء صهيون»، ص 224 و225.

(21) «الغارة على العالم الإسلامي»، ص 3 و4.

ان المراقب للمخططات التي كانت تضعها الدول الاستعمارية على اختلافها لتوجيه الدول المستعمرة (بالفتح) يلاحظ الاهتمام الزائد بقضية التوجيه التعليمي والثقافي والمراقبة الصارمة لمناهج التربية في مراحل التعليم المختلفة، حتى يسير التعليم طبق ما يهدفون إليه من القضاء على مكونات الأمة الحضارية والثقافية والاجتماعية، ولقد ادركوا كل الادراك وعلموا حق العلم أن الثقافة الاسلامية في حقيقتها ثقافة دينية قرآنية، فأساسها الذي بنيت عليه هو الدين الاسلامي الذي استطاع في كل مراحل التاريخ الاسلامي أن يوجه الانسان المسلم، ويكيفه طبق ما ترمي إليه حقيقة الاسلام، سواء في الناحية العقلية والفكرية أو فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية وإذا كان المنبع الذي ينبع منه الاسلام هو القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام فلقد اتجهوا كذلك إلى محاربة القرآن والسنة محاربة قوية، لقد كتب أحدهم يقول : «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعدهم عنها الا محمد وكتابه»[22] ويقول «امرى ريفر» في كتابه «قضية السلام» : «فالوحدة التي احتفظ بها القرآن قرونا بين الشعوب الاسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الاسلامي قوميات شتى» إلى أن يقول : «وقد نسي الجميع الصبغة التي كانت أساس الدين الاسلامي العظيم» لقد تخوفوا من تزايد عدد المسلمين وتوفر الامكانيات في بلدانهم، فهذا المستشرق الألماني صاحب كتاب «الاسلام قوة الغد» يقول : «إن العالم الاسلامي إذا توفر له المال والطاقات والامكانات المادية، إلى جانب تكاثر السكان الذي يتميز به المسلمون إلى جانب العقيدة ذات الجذوة الايمانية الموجودة في القرآن، إذا توفر للمسلمين ذلك، فإنهم يصبحون لعنة على العالم، ولابد من ضرب هذه القوة قبل أن تنضج وتكتمل وتنظم»[23].

لقد خطط الاستعمار والصليبية للقضاء على الاسلام ومحوه من الوجود، وسخروا كل امكانياتهم لتحقيق ما يرمون إليه سواء بتوجيه برامج التعليم ومحاربة اللغة العربية والقضاء على المحاكم الشرعية وتأسيس محاكم أجنبية ذات تشريع أجنبي أو بنشر الأفكار الالحادية، واستعمال مبدأ حرية الفكر للطعن في الاسلام والاخلاق الاسلامية والتشكيك في أن القرآن كلام الله المنزل من السماء، وانه من كلام محمد وصنعه، وان السنة الواردة عن الرسول عليه السلام لا يجب الاعتماد عليها أو تصديقها إلى غير

---

(22) ص 94، من نفس المصدر والتصريح لواسيم جيفورد بالكراف.

(23) عن كتاب : صابر طعيمة.

ذلك من الطعون التي تؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأن مقصودهم هو إزاحة الاسلام من الطريق مدركين أن بقاءه يهدد مستقبلهم الاستعماري والصليبي.

وهنا اثبت ما جاء في المحاضرة التي كتبها الرئيس المرحوم علال الفاسي عن (التبشير المسيحي وبعض الوثنيات الطائفية الهندية) قال علال : «ولقد قرأت في كتاب «ما لم يقل عن دوغول» خبراً طريفاً نروي ملخصه هنا، ذلك أن مؤلف هذا الكتاب يقول : إن دوغول بعد الهزيمة الفرنسية حاول الانتحار وأرسل يطلب الراهب الذي يعترف عادة لديه، فقال معللا ما عزم عليه : (إن أوروبا الغربية الآن تنهار ازاء النازية، ومعنى ذلك انهيار الحضارة النصرانية بصفة نهائية، إن امريكا اختنا في الدين وفي الحضارة، وسوف تعمل ما تستطيعه لانقاذ الموقف شيئاً ما، ولكن حضارتنا مع ذلك ستنتهي. وهناك في الصين شعب قوي، نسميه تارة الخطر الأصفر ولكني لا أعتقد أنه يكون البديل الصحيح، فالحضارة الصينية لا تبلغ درجة حضارتنا المسيحية ولكن الذي أخاف منه، هو هذا الخط الذي يمتد من طنجة إلى كراتشي، ان الاسلام ذو حضارة وثقافة، وهو جدير بأن يكون الوارث لنا، فإذا تحالف مع الصين فإنه لن يوجد أحد يوقف المسلمين عند بواتييه»[24].

* * *

إننا لا نعدو الحق ولا ننساق مع عواطفنا ومشاعرنا الذاتية حينما نؤكد على أن التحديات الحضارية التي تحاصرنا هي تحديات عقائدية فكرية ثقافية في المقام الأول. وما التحديات الحديثة الأخرى إلا مظاهر متطورة لهذه التي ذكرت، ان هناك فروقاً أساسية بين الحضارة الاسلامية وغيرها من الحضارات، فالحضارة الاسلامية آخر حضارة قامت باسم الله، وأثبتت أن الاستمدادات الانسانية كلها منه، وأن مبدأ الانسان منه، ومنتهاه إليه، بينما الحضارة الحديثة انطلقت باسم الانسان، وسارت بهدي العقل، ونظمت قوانينها على الأساس الوضعي، فروح الحضارتين متباين كل التباين، وطابعهما مختلف. يقول الفيلسوف الفرنسي «رجاء كارودي» «اعتمدت الحضارة الغربية النظرة العلمانية الصرفة التي تؤكد أن العقل يحل كل المشاكل وأن كل المشاكل الأخرى هي مشاكل لا هوتية زائفة وأنها لم تستطيع إلى الآن أن تحدد غايات الانسان الحقيقية، ولا أن تسيطر على الوسائل التي توصله إلى تلك الغايات وهي تحيل الانسان إلى العمل

(24) حديث عن التبشير المسيحي، ص 43.

والاستهلاك وتحيل الفكر إلى ذكاء آلي، فيتجرد من الايمان والحب والشعور الخفي وتحيل اللانهائي إلى الكم، ولذلك فهي مؤهلة للانتحار.

إن الجنرال دوكول يتخوف من حضارة الاسلام وثقافته، ولست أجد مبررا لهذا التخوف من حضارة الاسلام إلا الرواسب التي بقيت كامنة في نفوس كثير من الأوروبيين والتي ورثوها عن أجدادهم الذين حاربوا الاسلام وتقولوا عليه ما هو منه بريء براءة الذئب من دم يوسف.

إننا إذا ما عرفنا الحضارة الاسلامية التعريف الصحيح نجد أنها حصيلة تاريخ حياة المسلمين على أرضهم وأوطانهم وأنها استمدت مقوماتها من الاسلام نفسه، فالاسلام الذي بسط نفوذه على كثير من أصقاع الأرض استطاع أن يضفي عليها (لونا مشتركا من الفكر الديني في الحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والاجتماعية والسياسية حتى أصبح هناك قدر حضاري مشترك بين المسلمين في مختلف أقطارهم وديارهم) إن الفكر الديني الأصيل الذي بلغ أسماع وبصائر المسلمين في مختلف الأقطار استطاع أن يغير أوضاع المجتمعات المختلفة ويدفع بها إلى الرقي بالمادي والأدبي والروحي ويخلق فيما بينها قائما مشتركاً جعل منها أمة واحدة تشعر بشعور واحد وتتفاعل مع بعضها بعضا تفاعلا عز نظيره وهو مالم نجد له نظيرا في أية حضارة أخرى.

لقد تحدث الباحث الكبير «ول ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» عن الحضارة الاسلامية فقال: «لقد ظل الاسلام خمسة قرون من عام 700 إلى عام 1200 يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسطة الملك وجميل الطباع والأخلاق وفي ارتفاع مستوى الحياة وفي التشريع الانساني الرحيم والتسامح الديني والآداب والبحث العلمي والعلوم والطب والفلسفة، وفي العمارة اسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوروبية، ولم يجد فنّ النحت القوطي منافسا له في بلاد الاسلام التي كانت تحرم صنع التماثيل، أما الفن الاسلامي فقد أفنى قوته في الزخرفة وعانى الشيء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة. ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فنّ سواه، وكان الفن والثقافة في بلاد الاسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى، فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين وتجاراً وكانوا كالأطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة[25]

(25) «قصة الحضارة» تأليف (ول ديورانت) جزء 13، ص 382 ترجمة محمد بدران.

وبعدما يتحدث بتطويل عن تأثير الحضارة الاسلامية في العالم الأوروبي وأخذ هذا العالم عنها يقول : «لكن نار الحقد لم تطفىء لظاها هذه الاستدانة العلمية، ذلك أن لا شيء بعد الخبز أعز على بني الانسان من عقائدهم الدينية لأن الانسان لا يحيا بالخبز وحده بل يحيا معه بالايمان الذي يبعث في قلبه الأمل، ومن أجل هذا فإن قلب الانسان يتلظى غيظا على من يهدده في قوته وعقيدته، ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحي في اثر قطر، ويمتصون شعباً مسيحياً بعد شعب، وكانوا يحسون بأيدي المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة، وأمست المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية، فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية»[26]، هذه الحروب التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين فورثت الاحقاذ التي بقيت دفينة في النفوس، وغطت على الحقائق التي كان يجب أن تفتح أمامها العيون والقلوب، وهي التي جعلت «دوكول يتخوف» من قيام حضارة إسلامية يعم تأثيرها العالم كله وتخلف الحضارة الأوروبية التي كان يخشى عليها.

والواقع أن التجارب التي مرت منها الانسانية يجب أن تجعل العقلاء من مختلف الأجناس والأديان ينظرون إلى الحضارات نظرات مختلفة عن نظرات الماضي، فلا ينبغي مطلقا أن ندوس أي حضارة من الحضارات ونرفضها ونتخوف منها ما لم نتعرف إلى جوهر حقيقتها فنأخذ الصالح وننبذ الطالح. إن الحضارة متعددة الأصول، وهي في الواقع نتاج لكثير من الأمم والشعوب فالتخوف من أية حضارة مهما كانت لا يسوغ في عصر التقدم والعرفان وما كان لنا أن لا نستفيد مما أعطته عقول غيرنا ما لم يتصادم مع الأسس التي أتت بها عقيدتنا وحضارتنا.

إن موقفنا من الحضارة الحديثة لا ينبغي أن يفهم منه أننا ضد معطياتها الايجابية، فذلك ما لا يخطر ببالنا ولكننا في الواقع ضد أية حضارة لا تومن إلا بالمادة والتي لا تومن بالأخلاق كعامل أساسي في ترقية الجانب الانساني في الحياة، ومن هنا فإننا ندعو إلى التشبث بأخلاقنا الاسلامية التي دعا إليها ديننا الحنيف، سواء في حياتنا الخاصة أو في تعاملنا مع بعضنا أو مع غيرنا من الأمم والشعوب ومن هنا أيضا فإننا حريصون كل الحرص على أن تبقى مجتمعاتنا موحدة، وروابطنا الاجتماعية متينة وقوية، ومن أجل ذلك فلابد من العمل على تحقيق الوحدة الثقافية بين البلاد الاسلامية جميعها لتقف

---

(26) نفس المصدر، ص 386.

سداً منيعاً أمام الغزو الثقافي الوارد علينا من الغرب المسيحي والذي حاول ويحاول أن يجتث أصولنا الثقافية، ويقضي عليها القضاء المبرم. إن تجديد ثقافتنا وإحياءها وتطعيمها بالمفيد واستمدادها من الأصول الاسلامية الحية هو السبيل الوحيد للوقوف أمام مدّ الاستعمار الفكري الذي يرد علينا بصور متعددة وأسماء متنوعة «يجب القضاء على مخلفات الاستعمار الفكرية بتخطيط ثقافي تعليمي يعمّم في سائر البلاد الاسلامية، ويزيل الفوارق الثقافية التي تجعل أبناء المسلمين ينشؤون تنشئة متباينة مع بعضهم بعضاً ووضع برنامج تعليمي موحد يربط الناشئة الاسلامية بعضها ببعض ويوحد اتجاهاتها الثقافية والفكرية ويجعلها مرتبطة برابطة الأخوة الاسلامية وحدها، وفي هذا المجال يجب الأخذ بعين الاعتبار أن العالم الاسلامي توجد فيه آراء ومذاهب مختلفة ولذلك فإنه من الضروري الأكيد تقريب وجهات النظر، والنظر في تلك الخلافات بالمنظار التسامحي»[27].

ونظرا لأن الاقتصاد يلعب دوراً أساسياً في تطوير المجتمعات الانسانية، ونظراً لأن امكانيات الأمة الاسلامية امكانيات متعددة ومتنوعة وهائلة ولا يستفيد الاستفادة الأولى منها إلا الدول المصنعة فإننا ندعو إلى أن تستفيد المجتمعات الاسلامية من امكانياتها بنفسها ولا تبقى عالة على غيرها وأن تفرض سيطرتها الكاملة على منابع ثرواتها الطبيعية وتستغل مواردها بنفسها وذلك لا يكون إلا إذا كونّا أطراً اسلامية كفؤة واتبعنا سياسة اقتصادية تعاونية تكاملية وحدوية «إن التنمية الاقتصادية ضرورية لكل تطور سليم، وإن مقاومة الفقر ونشر العدل الاجتماعي بين طبقات المجتمع الاسلامي، يصونان مجتمعاتنا من الانحراف والتعلق بأفكار الدخلاء الذين يعرفون كيف يستفيدون من التمايز الواقع بين المواطنين»[28].

إن الغرب الأوروبي يراجع مخططاته السياسية والاقتصادية ليبقي فارضا سيطرته على العالم بأجمعه، وإن العالم الاسلامي لكي يفرض وجوده ويحتفظ بشخصيته، ويضمن مصالحه لابدّ له من الحفاظ على وحدته الثقافية والفكرية ولابدّ له من أجل أن يمتن ويقوي هذه الوحدة أن يخطط لوحدة اقتصادية تضمن مصالحه، وتقف حاجزاً أمام أطماع المغيرين والمستغلين، وتجعله واقفاً على رجليه يمشي عليهما دون اعتماد على غيرهما.

---

(27) من بحث لأبي بكر القادري تحت عنوان : اليقظة الاسلامية.

(28) مب بحث لأبي بكر القادري تحت عنوان : اليقظة الاسلامية

فالعصر الذي نعيشه عصر التكتلات ولا يليق بالعالم الاسلامي ــ وقوّته في وحدته ــ أن يبقى متأرجحا بين التكتلات الأجنبية عنه، بل عليه أن يحقق تكتله وتضامنه لمصلحته ومصلحة الانسانية جمعاء، فمن حقه ومن واجبه أيضاً كي يساهم مع الآخرين في انتشال الحضارة الانسانية من السقوط، ويدفع بها إلى السعادة والرقي أن يتكتل ويتضامن ويتعاون مع جميع الدول والشعوب التي تتوق إلى السعادة والهناء.

نحن نؤمن بأن لدى الاسلام من القوة الروحية والمبادىء الانسانية ما من شأنه أن يسعد الانسانية كلها إن سارت في المنهج الذي يدعو إليه وان العصر الذي نعيشه والأزمات الحادة التي تمر بها الانسانية المعذبة تفرض على المفكرين والمصلحين من جميع الأمم والشعوب أن يبحثوا عن الطريق الأسلم لصلاح الانسانية وليس هناك من طريق الا طريق التعاون على الخير والاستفادة من المبادىء التي أتى بها الاسلام.

نحن لا نقول إن الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا ولكنا نقول : إن الحضارة الغربية بمعطياتها العلمية والفنية والتقنية أفادت الانسانية، ولكنها بتجردها عن الروحيات والأخلاقيات صارت تحكم على نفسها بالتلاشي والاضمحلال فلابد لها من الاستمداد من الحضارة الاسلامية في سمو أخلاقها ومبادئها ودعوتها إلى الحق والخير وعدم التمايز بين البشر، فتعاون الحضارتين ضروري وحتمي ولابد من تحقيق هذا التعاون لسعادة بني الانسان ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾ صدق الله العظيم.

إن المجتمع الاسلامي مستهدف لحروب ضارية تتضافر فيها جهود أقوام وأجناس وعقائد وايديولوجيات ومدارس فكرية ومؤسسات ودول ذات قوة ونفوذ وبطش. وان التحديات الحضارية سواء منها المادية أو الأدبية تستهدف غاية واحدة وهي افراغ المجتمع الاسلامي من اسلامه، ليصير مجتمعا لا هوية له، ولا قاعدة يستند إليها. ولذلك لا ينبغي أن تخدعنا العناوين والشعارات والبضاعة المروج لها في وسائل الاعلام الأجنبية فنحسب اننا نواجه تحديات مادية محضة باعتبارنا دولا وشعوباً نامية. إننا فعلا مجتمعات نامية في المجال الصناعي والتكنولوجي والاقتصادي حسب المقاييس السائدة ولكننا على النقيض من ذلك في مجال الفكر والعقيدة والشعور بالذاتية وبدورنا في هذا العالم.

وعلى هذا الأساس، فالتحدي الأكبر هو في أن نكون مجتمعا إسلاميا أو لا نكون... هو في أن نحافظ على هويتنا الحضارية أم نفقدها، هو في أن نأخذ من الغرب

والشرق وسائل التطور المادي مع الاحتفاظ بأسباب التطور الفكري في دائرة خصوصياتنا ومميزاتنا.

أعتقد أن هذا هو التحدي الحضاري الضخم الذي يستحق قوة المواجهة وشرف الجهاد الثقافي والسياسي والحضاري بالحكمة العاقلة وبالوعي الرشيد وبالارادة الحازمة وبالبصيرة النافذة.

المؤتمر العالمي حول التربية للجميع

عبد الهادي بوطالب

بعدما تحررت بلدان عديدة من العالم الثالث من الاستعمار حاولت أن تحرر المفهوم السابق للعلاقات الدولية وفق منظور جديد يرتكز أساسا على القيم والمساواة بين الأمم. ولبلوغ هذه الغاية تأسست منظمات جهوية ودولية علّها تؤثر في هذه العلاقات خاصة في الميدان الاقتصادي للحد من الفوارق القائمة بين الشمال والجنوب. وقد امتاز فعلا عقد الستينات بدينامية ملحوظة في ميدان التنمية سيما وأن الظروف في العالم آنذاك كانت ملائمة للتوسع الاقتصادي.

وقد استفاد التعليم في العالم من هذا التوسع حيث قفز ما يرصد له من موارد من 51,6 مليار دولار سنة 1960 إلى 47,7 مليار دولار سنة 1978 أي بزيادة 9,6 أضعاف. وفي نطاق هذا المجهود امتازت البلدان النامية بتخصيص قسط أوفر (8,5 %) من ميزانيتها بالمقارنة مع ما خصصته البلدان المصنعة (6,5 %) غير أن الفوارق البنيوية بين كتلة الشمال والجنوب لم يطرأ عليها أي تغيير ملموس لأن مجهود البلدان كان يلغيه ما عرفته هذه البلدان من تضخم سكاني. وفي مجال الأمية على الخصوص، فبالرغم مما قامت به الدول النامية لمعالجة هذه الظاهرة فإن عدد الأميين ما طفق يتزايد حتى أصبح يمثل أهم المعضلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها الدول النامية.

وإن العالم الاسلامي وهو يضم 432,000.000 أميا من بين سكانه البالغ عددهم حسب آخر التقديرات 1200 مليون نسمة، ليدرك تمام الادراك مدى جسامة المسؤولية المعنوية الملقاة على عاتقه إزاء معضلة الأمية في الوقت الراهن التي لا يخفف من أثرها كون أغلب الاحصاءات المتوفرة لا تأخذ بعين الاعتبار الأشخاص الذين

تعلموا بلغات غير اللغات الكبرى للاتصال، والذين يدرجون في زمرة الأميين، وإن كانوا قد تعلموا القراءة والكتابة بلغتهم الوطنية أو بأية لغة ثقافية كبرى غير المستعملة رسميا.

ولا شك أن هناك أسبابا موضوعية عديدة تكمن وراء هذا الوضع القاسي، فالأمية شأنها شأن أي ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى الجهد المتواصل والعمل الدؤوب الطويل الأمد لاجتثاثها. وبفضل ما كان للمنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة من سبق في الاعداد لما فكرت فيه المنظمات الدولية الأخرى، لم يكن من الصعب عليها أن تندمج في الخطة الدولية لانعقاد المؤتمر العالمي حول التربية للجميع وأن نضمن مساهمة المجموعة الاسلامية على الصعيدين الأدبي والمادي.

أ) وضع الأمية والتربية الأساسية في العالم

لم تعد الأمية أمرا تنفرد به دول العالم الثالث بما فيها الدول الاسلامية، فوفقا للتقديرات الأخيرة يوجد في العالم أكثر من 960 مليون من الراشدين، ثلثاهم من النساء، أميون، لكن بالرغم من تحسن الوضع بشكل ملحوظ من حيث النسبة المئوية، فإن نصف هؤلاء الأميين تقريبا في العالم الاسلامي إذ يبلغ تعدادهم 432 مليون أمي. ويجدر التنبيه إلى أن وضع النساء أسوأ من وضع الرجال، إذ يقدر أن تصل نسبة الأمية في العالم العربي على الخصوص 60 % من النساء من ضمن 40 مليون أمي. ولم يحدث أي تغيير ملحوظ في الفوارق بين الجنسين فيما بين 1980–1990، إذ ازدادت هذه الفوارق كلما كانت نسبة الأمية أكثر ارتفاعا. وهكذا تبرز الاحصاءات عددا من الاختلافات في التوزيع الجغرافي لنسب الأمية بين المناطق الجغرافية. إذ نجد في العالم الاسلامي أكثر من 45 مليون طفل من بين 100 مليون طفل في العالم لا يلتحقون بالمدارس الابتدائية، وفي العالم العربي وحده 8 ملايين من الأطفال خارج المدرسة الابتدائية. ومما يستلفت النظر على وجه الخصوص ارتفاع نسبة التسرب من المدارس الابتدائية في الأقطار العربية والاسلامية الأكثر فقرا بحوالي 65 % من المسجلين في السنة الأولى الابتدائية، علاوة على ذلك فإن كثيرا من الراشدين بدأوا يرتدون إلى الأمية بعد ترك المدرسة أو برامج تعليم الكبار بسبب عدم ممارستهم القراءة والكتابة لفترة طويلة.

وهذه الظاهرة التي تتزايد باطراد ملحوظ حتى في الدول المصنعة التي تتراوح فيها نسبة هذا النوع من الأمية بين 2 % و5 % من السكان. ونتيجة لذلك فإن أكثر من ثلث سكان العالم لا يستطيعون الاندماج في مسار التطور إذ لا يمكنهم انتقاء المعرفة المطبوعة والمهارات والتقنيات الجديدة.

وجملة القول إن وضعية الأمية والتربية الأساسية في العالم، بالرغم من الجهود التي بذلت خلال السنوات الأخيرة لازالت تعاني من تباطؤ وتيرة نمو المعرفة، وإن التأمل في التطورات المستقبلية المحتملة ليعطي فكرة عن حجم المشكلات والقيود الناجمة عن هذه الحالة.

ب) المعوقات

لاشك أن ما يلزم من تزايد مستمر للنفقات العامة للتربية أخذت تعترضه عوائق سياسية واقتصادية لا يستهان بها. لكن تباطؤ المجهود المبذول في مجال التربية يرتدي طابعا إقليميا خاصا فإذا كان مجموع النفقات العامة للتعليم في العالم، قد قفز من 51,6 مليار إلى 474 مليار أمريكي بين 1960 و1980، فإننا نلاحظ قلة أو ندرة الاعتمادات المالية في بعض دول العالم الثالث، إذ لا تتجاوز ميزانية التعليم 10 % من مجموع الميزانية العامة. ولئن اعتبرت التربية كمرآة للتقدم الاقتصادي للمجتمع فإن تراجع النمو الاقتصادي في العالم الثالث قد جعل نسبة النمو الاقتصادي في بعض بلدانه تنخفض بين العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن من 3 % إلى 1,5 % تقريبا. تدل كذلك الخبرة المكتسبة في مجال التنمية الاقتصادية على عدم التناسب بين التضخم السكاني والنمو الاقتصادي، ففي الدول الافريقية مثلا كان معدل نمو السكان في الثمانينات 3,2 % سنويا بينما لم تتجاوز نسبة نمو الناتج الداخلي الاجمالي لهذه الدول في تلك الفترة 1,6 % ويتزامن هذا كله مع الفترة التي تضخمت فيها مديونية هذه الدول، تضخما بلغ عام 1988 ما مقداره 1284 بليون دولار (حسب تقديرات البنك الدولي). وهذه الديون تراكمت على إثر ما سمي باللغة الدبلوماسية مساعدات، وبلغة المصارف قروض، لم تطلبها الدول النامية وإنما دفعت إلى قبولها من لدن البنوك الغربية في سنوات السبعينات عندما اكتظت تلك البنوك بالدولارات البترولية، فسعت إلى التخلص منها في شكل قروض تدر عليها الربح بفعل الفوائد ونفقات الخدمات البنكية.

ومن جملة العوائق التي اعترضت كذلك تطور التعليم وتوسعه ما عرفته كثير من الدول النامية من هزات اجتماعية كالجفاف والمجاعات والحرب والصراعات الأهلية. وهذه كلها عوامل جعلت التعليم يتقهقر سيما وأن تجربة ثلاثين سنة لم تبرهن للمجتمعات المعنية على جدوى هذا التعليم كوسيلة فاعلة لتحقيق التنمية مما أدى إلى نزوع بعض الأهالي إلى الامتناع عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة وللاستعانة بهم فيما يقومون به من أعمال.

ولاشك في أن عدم تناسب البرامج والطرائق المدرسية في الدول النامية مع البيئة وحاجات المتعلمين مما أدى إلى هذه الظاهرة وإلى تزايد التسرب المدرسي.

ولاعطاء فكرة وجيزة عن البون الشاسع بين الدول المصنعة والدول النامية نشير إلى نسب الطلاب في مستويات التعليم المختلفة في فرنسا مثلا هو كالتالي :

الابتدائي	الثانوي	العالي
100 %	100 %	68 % من التعليم الثانوي

في حين أن نسبة الأمية في إفريقيا تبلغ 51 % ولا تتجاوز 46 % في آسيا، وأن نسبة الانتقال من الابتدائي إلى الثانوي لا تتعدى 22 % بالنسبة للقارة الأولى و30 % بالنسبة للقارة الثانية.

أما التعليم العالي فلا يلجه إلا 2 % من المنخرطين من التعليم الثانوي بالنسبة لأفريقيا و3,4 % بالنسبة لآسيا.

ج) خطة المنظمات الدولية حول التربية للجميع

أمام تدهور حالة التعليم الابتدائي للأسباب السالفة الذكر سعت أربع منظمات دولية وهي البنك العالمي واليونسف وبرنامج الأمم المتحدة الانمائي واليونسكو إلى إثارة الرأي العام باستدعاء مؤتمر عالمي حول التربية للجميع، وأعدت لذلك وثيقة تضمن بعض الحلول وقدمت هذه الوثيقة إلى استشارة عشر اجتماعات جهوية قبل أن تطرحها للنقاش أمام المؤتمر العالمي الذي انعقد بجوم تيين (تايلاندا) من 5 إلى 9 مارس 1990.

وتتضمن هذه الحلول مايلي :

1 — زيادة عدد التلاميذ في الصف المدرسي مستدلة بذلك على أن بعض التجارب برهنت على استيعاب فصل واحد لـ 120 تلميذا بدل 30 أو 40 لا يؤثر في نسبة التحصيل.

2 — تخفيض رواتب المعلمين بنسبة 20 %.

3 — استخدام معلمين مساعدين برواتب أقل من رواتب معلمين متفرغين.

4 — التخفيض من النفقات الادارية.

5 — اتباع نفس الاجراء للتخفيض من نفقات التعليم الثانوي.

وكما يتضح فإن المشروع الذي تقدمت به المنظمات الأربع يطرح مشكلة الأمية والتعليم الابتدائي من منطلق اقتصادي محض غايته رفع المقدرة من الانتاج والحد من النفقات. وفي هذه المعادلة مثاليب شتى منها تقليص دور التعليم الثانوي والتعليم العالي، الأمر الذي قد يؤدي بالدول النامية إلى التخلي عن مطامحها في الوصول إلى مستوى حضارة العصر.

ولم يفت الجهات التي استشيرت، بما في ذلك الايسيسكو بعد انضمامها برعاية المؤتمر العالمي أن تحاول تعديل هذا الاتجاه سيما وأن المشروع غفل في صيغته الأولى عن أهمية القيم في مفهوم التعليم وكذا عن المطامح الشرعية للدول النامية في مجال البحث العلمي واكتساب التكنولوجيا.

د) المبادرة التصحيحية للإيسيسكو

لم يفت المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن تشعر منذ بداية عملها بضرورة التصدي للأمية حيث أنها خصصت لهذه المشكلة برامج فرعية في كل خطة من خططها السابقة. وقد توصلت بحكم هذه التجربة إلى الاقتناع بضرورة وضع تصور شامل يعتمد أساسا على تعبئة كل الامكانات الأهلية، وينفذ خارج الميزانية العادية، وهذا المشروع طرح على الدول الاسلامية في شكل برنامج (إسلامي خاص) لمحو الأمية وللتكوين الأساسي للجميع في البلدان والجماعات الاسلامية. وقد صادق عليه المؤتمر الثالث للمنظمة الذي انعقد بجوم تيين (تايلاندا) يوم 3 مارس 1990. وإثر انضمام الايسيسكو إلى المنظمات الدولية الأربع لرعاية المؤتمر العالمي حول التربية للجميع توصلت إلى إدراج البرنامج الاسلامي الخاص ضمن الوثائق التي عرضت على المؤتمر العالمي وهكذا جعلت منه برنامج إقليميا تبناه المؤتمر العالمي بجانب برنامج البنك الدولي وبرنامج اليونسكو ومما يمتاز به البرنامج الاسلامي عن سواه أنه :

1 – يقوم البرنامج الاسلامي الخاص على تنظيم آليات التنفيذ الممثلة في إحداث لجان محلية وجهوية، وسلطة وطنية من الوزراء وممثلي القوى الحية وفتح حسابات خاصة لتمويله تتلقى مواردها من المساهمات التطوعية كالهبات والأوقاف والزكاة.

2 – يدعم هذا المجهود الوطني من طرف صندوق مركزي تشرف عليه «هيئة عليا» أقامتها الإيسيسكو بجانبها وتتكون ـــ حتى الآن ـــ من 11 منظمة ومؤسسة إسلامية.

3 – يمتد البرنامج الاسلامي الخاص على عشر سنوات، السنة الأولى لإقامة الآليات، ثم ثلاث فترات ثلاثية.

4 – يهدف البرنامج الاسلامي الخاص إلى نشر المعرفة على أوسع قاعدة دون أن يكون ذلك على حساب طموحات الشعوب في تطوير التعليم الثانوي والعالي.

5 – يطرح البرنامج الاسلامي إشكالية الأمية، لا كجهل بالكتابة والقراءة فحسب، بل كمعوق يحول دون الفرد وممارسة واجب طلب العلم كفريضة على كل مسلم.

6 – يجعل من تعميم التعليم الابتدائي إحدى الأولويات المنشودة من أجل التنمية وقد شجعت منظمة الإيسيسكو هذه السيرورة عن طريق عدد من الندوات الاقليمية التي جاءت لتحض الدول المشاركة فيها على الالتزام بتحقيق هذا الهدف خلال مهلة محددة.

7 – يؤكد على الفاعل الاقتصادي وعلى الدور الذي يلعبه فيه العلم والتكنولوجيا وذلك بإتاحة إمكانات واسعة في مجال التعليم التقني والثانوي والعالي.

8 – يؤكد على دور القرار السياسي من جهة، وعلى المشاركة الشعبية من جهة أخرى، حتى تصبح محاربة الأمية قضية وطنية فوق ما عداها من القضايا المبرمجة في الخطط العادية لكل بلد.

9 – يسعى بتوظيف مبدإ التعاون والتكافل بين الأقطار الاسلامية إلى إعطاء بعد عملي لمفهوم الأمة.

10 – يضمن بالتخطيط للمتابعة وللتقييم المستمرين أن تكسب عملية محو الأمية ديناميكية دائمة بالتقويم والاغناء والتعديل إن اقتضى الحال.

هـ) الأثر الدولي للبرنامج الاسلامي الخاص

1 – قبل أن تدخل الإيسيسكو عملية رعاية المؤتمر العالمي حول التربية للجميع، اشترطت كما سبق على البنك الدولي واليونسف وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي واليونسكو أن يكون البرنامج الاسلامي إحدى الخطط المعتمدة من المؤتمر (إلى جانب خطة البنك الدولي وخطة اليونيسكو).

2 – ضمنت حضورها داخل مجموعة الإعداد (Steering group) مما مكنها من المساهمة في تعديل نص التصريح العالمي.

3 – نجحت في إدخال عدة تعديلات ترمي أساسا إلى الاعتراف بالقيم من جهة وبسيادة الدول في ميدان التربية من جهة أخرى.

4 – بمساهمتها في لجنة الصياغة التي عينها المؤتمر أمكنها باسم المجموعة الاسلامية ومع جهات أخرى (أمريكا اللاتينية) أن تثبت حق دول العالم الثالث في الطموح إلى أرقى مستويات التعليم العلمي والتقني.

5 – باختيارها لأن تكون عضوا في جهاز المتابعة المزمع إنشاؤه، تضمن الإيسيسكو حضور العالم الاسلامي في التخطيط للعمل الدولي المقبل.

و) خلاصة

1 – علاوة على مضمونه العلني والرسمي، وما تم خلاله من التزامات ووعود بمضاعفة الامدادات للتربية الأساسية، سواء من طرف الدول المعنية أو من طرف مصادر التمويل، فقد كرس المؤتمر العالمي حول التربية للجميع معادلة جديدة لم تعد معها اليونيسكو المنظمة العالمية المهتمة الأولى، بل تم الاعتراف كذلك بدور المؤسسات الثلاث الأخرى، وكذا بفعالية المنظمات غير الحكومية، وكلها تنتمي إلى مجموعة الشمال.

2 – داخل هذه المعادلة، برزت الإيسيسكو وحدها باسم الجنوب لتفرض نفسها في محفل ربما كان لا يتوقع مبادرتها. وقد كلفها ذلك جهدا أدبيا وماديا أكبر مما تحملته الهيئات المساهمة الأخرى بالمقارنة لما تتوفر عليه هذه الأخيرة من إمدادات من الدول الأعضاء فيها.

3 – رغم كسب الرهان الذي حققته بفرض الشخصية والهوية الاسلاميتين خلال المؤتمر العالمي، يبقى على الإسيسكو أن تبرهن على مقدرتها على مسايرة الركب. وهذا يتوقف على مدى التزام دولها الأعضاء بخطة البرنامج الاسلامي الخاص التي أقروها والتي هي قبل كل شيء تحدي حضاري وإثبات للهوية، كما يتوقف كذلك على اقتناع جميع المؤسسات الاسلامية بضرورة العمل المشترك لرفع التحديات التي ستداهم أكثر فأكثر العالم الاسلامي، سيما بعد التحولات الأخيرة التي برزت في الكتلة الشرقية.

أثر التغذية في نمو الدماغ خلال حياة الجنين في الرحم وفي السنوات الأولى من حياة الانسان

عبد اللطيف بربيش

يعرّف التغذيةَ معجمُ «روبير» بأنها :

«مجموعةُ مسلسَلاتٍ من التمثُّل أو من عدمَ التمثّل التي تَحْدُث في جهاز الكائن الحّي، وتُتيح له العيشَ السليم، وتُزوِّدُهُ بالطاقات الحيويّة اللاّزمة».

يَعْنِي لفظُ **النمو** لدى الطفل مجموعةً متتاليةً ديناميكية من المسلسَلات التي تُفضِي إلى التّطور التّدريجي للإنسان منذ بداية خَلقه إلى سِنّ البلوغ.

يَتِمُّ النّمو العامّ للطفل باقترانِ نموِّه الجسمي بنموِّه العقلي، بمعنى شُمولِ هذا النّمو، عدّةَ ظَواهر : من بينِها ازديادُ نموِّه الجسدي، نُضْجٌ في تركيب الخلايا وفي وظائفها المختلفة، كما يشمَل هذا النموُّ أيضا نُمُوَّ دِمَاغِ الطفلِ على أوسعِ نطاق، في نشاطِه العقلي والنفسيّ والحركيّ والجِسميّ والمعرفيّ والاجتماعي والعاطفيّ.

كما يعرِّف المعجمُ سوءَ التغذية بأنها «عَدَمُ الملاءمةِ التي تَحْدُثُ في إرضاءِ حَاجَاتِ الفرد أو حَاجَاتِ الجماعة إلى الطّعام، وفي الكَيْفِيَةِ التي يَتِمُّ بِهَا إِرْضاءُ هذه الحاجات».

يمكنُ أن يؤديَ سوءُ التغذية لَدَى الطفلِ إِلَى عَواقبَ مباشرةٍ تُؤَثِّرُ على مُعَدّلاتِ نِسَبِ الأمراضِ والوفَيات، كما يُمْكِنُ أن يكون لَهَا تَأْثِيرٌ سَيِّءٌ على نُموِّهِ الجسَدي والعقلي.

ولعلّ سوءَ التّغذيّة من أكبر الآفاتِ انتشاراً في عالَم اليوم، إذ أنّها تمثّل أهمَّ مشكلةٍ يُوَاجِهُهَا المسؤولُون عنِ الصّحةِ العموميةِ فِي الدّول السّائرةِ في طريق النّموّ.

لقد قَدَّرتْ إحصائياتُ منظمةِ الأممِ المتحدة لسنةِ 1976 عددَ الأطفال دون الخمسِ سَنَوَات الذين يُعانُون أحدَ أشكالِ سوءِ التَّغذيةِ في العالم بثلاثمائةٍ وعشرين مليون طفل(1). ويمكن تقديرُ عددِهم اليوم على الأقلّ بخمسمائةِ مليون طفل، من بينهم عشرون مليون من المصابين بأشدِّ أنواعِ الحالاتِ المَرَضيةِ خطورةً كالسّغَل العادي «MARASME»، والسَّغَل الحادّ «ATHREPSIE»، وظاهرة الكواشيوركور أو ما اصطُلِح على أن يُطلَق عليْه «الكُساح».

تُمثِّلُ إصابةُ الأطفال بالسّغَل العاديّ أي المتوسطِ الخطورة والناشيءِ عن قلّة التغذية أكثرَ الحالات انتشاراً في العالَم، وتُعتبَر من الاصاباتِ التي ترافقها أعراضُ هُزالٍ مُفرطٍ مع انكماشٍ عضَلي وضَعْفٍ في الحواسّ.

وتُمثِّل إصابةُ السّغَل الحادّ إحدى الحالاتِ الخطيرةِ النَّاجمةِ عن قلَّةِ التغذيةِ لدى الأطفال الرُّضَّع، ويرافق هذه الحالة ذَوبانٌ تامٌّ للنّسيج الدُّهني، كَمَا تجتمِع على المُصاب اضطراباتٌ في الجهازِ الهضمي، وتعفّناتٌ واضطراباتٌ استِقْلابية، تهمُّ توازنَ الماءِ والأملاحِ وعناصرَ أُخرى ضروريةً لنموّ الجسم.

أما الكُساح أو الكواشيوركور فَيُمَثِّلُ إصابةً نَاجِمَةً عَنْ إفْراطٍ في انعدامِ التغذية، يَظهر في نُقصانِ البروتيناتِ الملحوظِ لدى عددٍ كبيرٍ من الأطفالِ في افريقيا السَّوداءَ شَمال وجنوبَ خطِّ الاستِواء.

وتَّصفُ هذه الإصابةُ ببُطْءٍ في النّمو يظهر في نهايةِ مرحلةِ التغذية بالثّدْي وبعدَ الفِطام، كما تتّصف بتغيُّراتٍ تَلحَقُ لَوْنَ جِلْدِ الطِّفْلِ وَلَوْنَ شَعْرِهِ الأمرُ الّذي يجعل الطفلَ الافريقيَّ الأسود ذَا لَوْنٍ أحمَرَ أو أشقر. وتُرافِقُ هذه الحالةَ أضرارٌ جلديةٌ وانتفاخاتٌ واضطراباتٌ في جهاز الهضم، وبكيفية خاصَّةٍ في المعدةِ والأمعاء، من بَينِها الاسهالُ وفقدانُ الشّهيّة.

إن الكلمةَ الدالَّةَ على هذه الإصابة، كواشيوركور «KWA SHIORKOR» كلمة آتية من لغةِ سَاكِنِي غانا في إفريقيا وهي تَعْنِي لديْهم «الطفل الأحمر». وقد دلّتْ بعضُ الدراسات اللغويةِ الحديثةِ على أنَّ هذهِ الكلمةَ تَعْنِي الطفلَ المفطوم أو الطفلَ الذي أهملتْ رعايتُه عندما يولَد للأسرة وليدٌ جديد.

تظهر حالاتُ سوءِ التغذية في الغالبِ الأعمِّ على شكلِ نُقصانٍ في البروتيناتِ والحراريات. وقد تكون هذه الحالاتُ منعزلةً ! كما قد تكون مجتمعةً أحياناً بنُقصانٍ

هامٍّ في الڤيتامينات كـ VITA أو في الأملاح المعدنية أو في الحديد، أو الحامض الفولي، أو اليود مثلاً، مِمّا قد يتسبّبُ في العمَى وفَقْر الدّم وأمراضِ الغدّة الدّرّقية منها : الذُّراق والفَدامة (Crétinisme) أي البلاهة والتأخُّرِ في الادراكِ العقلِي.

وقد يتجلّى من بحثٍ وَقَع في المغرب أوائِلَ السبعيناتِ أنّه من بيْن ستةِ آلافٍ وتسعمائةٍ وعشَرَةِ أطفال (6710) يوجَدُ حوالْي 40 % منهم مصابين بسوءِ التغذيةِ، النّاشِيءِ عن نَقْصٍ في البروتينات والطاقةِ الحرارية مع عجْزٍ في الوزن يتراوح بين 20 و40 %، وأن 5 % من هؤلاء الأطفال مصابون بكيفيةٍ فظيعة بعجْزٍ في الوزن يفوق 40 %.

كما تجلَّى من بحثٍ آخرَ أُنْجزَ خلال سنةِ 1976 بأنّه من بين 183 طفلاً تَتراوحُ أعمارُهم بيْن أربعةِ أشهر وأَربعِ سنوات، أقول تَجلَّى، أن سوءَ التغذية تَسبَّب في وفاةِ 39 طفلاً أي ما يمثّل 3,30 % من معدَّل الوفيات عند هؤلاءِ الأَطفال (2).

هذا، وقد حدَث الآن تطوّرٌ مدهشٌ في وسائِل عِلاَجِ حالاتِ سوءِ التّغذية : حيث أصبحَ بالامكان التخفيضُ من معدَّل الوفيات النّاجِم عنه، بشكل محسوس، نظراً للتّقنياتِ العصرية المحقَّقةِ في ميْدان الانعاش الطبي، والتقنياتِ الحديثةِ المتعلقةِ بتصحيحِ الاضطراباتِ الحاصلةِ في ماء الجسم وأملاحِه، والإمكانيات المتوفّرة للزيادة المنتظمةِ في مقاديرِ البروتينات والطاقياتِ التي يتناولُها الطفل.

ورغمَ كلِّ هذه الانجازات لَعَلَّ مِنَ المفيدِ أن يُشارَ في هذا المجال إلى أنّ قضيةَ سوءِ التّغذيةِ لدى الطفلِ ليستْ من القضايا التي يُمكِن أن يُصَرَّح بأنه قد تمَّ اليومَ إيجادُ الحلولِ الناجعةِ لَهاَ بصورةٍ نِهائية.

إن إصابةَ غَالبِيةِ الأَطفال بسوءِ التّغذية، ومرورَ ملايين الأَطفال الكبارِ بهذه المرحلة، مرةً واحدة على الأقل خلال صِباهم، مِمَّا يوجِبُ علينا البحثَ جِدّياً في عَقَابِيل سوءِ التّغذية المبكِّرِ، وأثَرِه على النّمو العقلي، وفي اكتسابِ المعارِفِ، وما يمكن أن يَلْحَقَ تصرفاتِ الطفل من آثارٍ آجلةٍ من جراء تلك الاصابات.

ذلك أن الدّماغَ، وهو الجهازُ العجيبُ والخارقُ للعادة لدى الانسان يُعتبر أكثَرَ أجهزةِ الجسمِ تعرضاً لاصاباتِ سوءِ التّغذية.

نحن نعلمُ جميعاً أنَّ الوزنَ المُتوسّطَ لدِماغ الانسان هو 1450 ج. ويَأْتِي الدّماغ، بهذا الوزن، في المرتبةِ الثالية بين أدمِغة المملكةِ الحيوانية بعْد وزْن دماغِ الفيل الافريقي، الّذي يصل ورنُه إلى 5 كغ، والحوتِ الأزرق الذي يزن دماغه 7 كغ، في حين أن دماغ القرد من نوع (الكوريل) لا يتجاوز وزنُه 400 غ، علماً بأن وزن الفيل يقدر بـ 5 طن ووزن الحوت 100 طن والكوريل 250 كغ. وإذا كان دماغ الانسان يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الوزن، فإنّه يأتي في المرتبة الأولى من حيثُ علاقةُ وزْنِ الدماغ بوزنِ الجسمِ كلِّه (17). إنّ هذه العلاقةَ تمثل 1/35 عند الانسان، و 1/560 عند الفيل، و 1/15 000 عند الحوت الأزرق (12).

والملاحَظ أنّ وزنَ دماغ الانسان يخضَع لبعضِ الاختلافات من حيثُ الوزن من شخصٍ لآخر : إذْ صادَف أن كان وزنُه لدى اللورد بايْرون 2,300 كغ، و1,100 كغ فقط عند السيد كامْبتا (17). نعلَم أن اللورد بايرون كان من كبارِ شعراء الانجليز، في حين كان ليون كامْبتا أحدَ كبار رجال الدّولة في فرنسا، وقد عاشا في فترةٍ زمنيةٍ واحدة، في ظُروفٍ اجتماعيةٍ واقتصادية متشابهة، وكان عمُرُ أحدِهما يقارب عمُرَ الآخر.

إن النشاطَ الوظيفيَّ للدّماغ الانساني لا يتعلَّق بوزنه وحسْب بل إنه يتعلَّق كذلك بغنى بِنْياتِه الأساسية. إذ من المعلوم أن الدماغ يحتوي على عشْر مليارات من الخلايا العصبية النبيلة أو العصبونات (كما يطلق عليها علميا NEURONES)، كما يحتوي الدماغ أيضا على أكثرِ من مائةِ مليارات من الخلايا الدَّاعمة المدعوة علميا خلايا النِّيفْرُوكلِي (Cellules NEVROLGIQUES). وتجدُر الاشارةُ هاهنا إلى أن العصبون النّبيلَ الواحد يستطيعُ أن يقوم في المتوسط بربْطِ حوالْي عشَرَة آلاف اتّصال مع الخلايا العصبونية المماثلة. وبذلك يستطيع الدّماغُ أن يمتلك شبكةً كثيفةً من الخلايا الواصلة (RAMIFICATIONS DENDRITIQUES) والأنابيبِ الرابطة التي تمثِّلُ طاقتُها الوظيفيّةُ أكثرَ من ضِعْفِ الطاقة التي يَتوفّر عليها مجموعُ شبكات الاتصالات السلكية واللاّسلكية المعروفةِ في العالم (17).

إن الصُّنعَ البديعَ الذي يوجَد عليه الدماغ الانساني، والامكانياتُ الهائلةُ التي يتوفَّر عليْها، سعةً ودِقّةً، تفوق في الأَهَمِّيَةِ أقوى جهازِ حاسوبٍ متصوَّر في الوجود.

إن الدماغ البشريَّ هو الجهاز الوحيد الذي يتوافر على مثل هذه الطاقات الهائلة، التي يقرّر العلماء أنّ الانسانَ البالغَ العاديَّ لا يستغِلُّ منها في تصرفاتِه إلا نسبةً ضئيلةً جداً. وإنَّ استغلالَ هذه الطاقات يكتسي أهميةً كبرى في تصرفاتِ العناصر الأكثرِ ذكاءً من الناس : إذْ أَخَذَ يظهَرُ أن لِذَلِكَ ارتباطاً وثيقاً بالعدَد المرتفِع من خلايا الدّعم التي يتوفّرون عليها. ذَلِك أن لهذه الخلايا اتصالاً بشرايين الدّماغ وَهِيَ الّتِي قَدْ تَعْمَلُ عَلَى تَأْمِينِ تَغْذِيَتِهِ.

في سنة 1955، السنةِ التي تُوُفّي فيها صاحب نَظرية النِّسْبية إينشتاين تمَّ إحراق جسَدِه، باستثناء دِمَاغِهِ الذي احتُفِظَ به سليما من قِبَل الطبيب الذي أشرفَ على تشريح جثته.

وفي سنة 1986 تمكنت السيدة «ماريون دياموند» العالمةُ الأمريكية الاخصائية في علم التشريح، الباحثةُ في جامعة بيركلي في كاليفورنيا، بعد سنواتٍ عدّة من التفاوض مع الطبيب، من الحصولِ على بضعةِ أجزاءٍ صغيرة من دماغ العَالمِ الشّهير، ثم عكَفتْ خلالَ سِتَّةِ أَشْهُر على عَدِّ الخلايا العُصبونيَة وخَلاَيَا النِّيفْرُكلِي التي يحتوِي عليها. وقد أسفرتْ بحوثُها عن اكتشافِ أنَّ نِصْفَ الدِّمَاغِ الأيسر لاينْشْتاين يحتوي على 73 % من خلايا الدّعم أكثر ما يحتوي عليه دماغُ الشخص العادي (11).

ولقد وقعتْ مراقبةُ ملاحظةِ هذه الباحثةِ على بعض الفئران الأذكياء، فأثبتت المراقبة صدقَ ملاحظةِ هذه الباحثة.

إلا أنَّه من الصعب في الوقت الحاضر، التّسليمُ بمطابقةِ هذه المراقبةِ التجريبية للواقعِ، واستخلاصُ نَتَائِجِهَا، وإنَّمَا يُكتفى بأَخْذِ العِلْمِ بنتائجِها على سبيلِ الاستئناس.

ولكي يبلُغ الدماغ الانسانيّ مبلغَه من النمّو لابدّ له من عدّة سنوات تبدأُ مع مُدةِ الحمْل (تسعة أشهر) وتمتدّ من الولادة حتّى البلوغ، مستغرقةً حوالْي خمسة عشر عاماً، يبلغ الدّماغ خلالها تمامَ نموِّه.

والملاحَظُ، مع هذا، أن الدماغ لا يكبُر بصفةٍ خَطّيةٍ منتظمةٍ، بل يتميز نموُّه بوُجود مرحلتيْن تُدْعَيَان عادةً بمرحلتيْ النمو السَّريع (8 و16).

تبدأ المرحلة الأولى خِلالَ الأشهرِ الثلاثة الأولى للحمْل، وبصفة مدقّقة، في الأسبوع السادس لغِياب العادة الشهرية عن المرأة الحامل أي بعد مضي شهريْن على وجه التقريب من الحمل.

ففي هذه المرحلةِ من النّمو السّريع يمكن أن تَظْهَرَ بعضُ التشوّهات في الأنبوب العصَبي (TUBE NEURAL) وهي المعبَّر عنها علمياً بحالةِ سبينا بِفيدا (SPINA BIFIDA) أو السِّنسنة المشقوقة.

ويبدو أن سوء التغذية، الذي تتعرَّض له الأمّ، في هذه المرحلة، هو الذي يُمكِن أن تُعزَى إليه مثلُ هذه العوارضِ لدى الجنين : حيث أظهرتْ بعضُ الدّراساتِ الّتي أُجْرِيَتْ عَلَى بعضِ الحوامِلِ اللّوَاتِي وَضَعْنَ طِفْلاً مُصاباً بعَوَارِضَ مِن هَذَا القَبيلِ أنَّه بالامكانِ تَجَنُّبُ الاصَابةِ في الولاداتِ الموالية، عن طريقِ تَنَاوُلِ الحامضِ الفولي، ومجموعةِ مركبات فيتاميناتٍ خِلالَ الأسابيع السَّابقةِ للإخصاب، وكذلك في الأسابيعِ اللاَّحقة، في حين أنَّ بعضَ الحواملِ الموجوداتِ في نفْس الوضعيّة من سوءِ التّغذية و لم يَقَعْ تَدَارُكُ وضْعِيَّتهن بتَناوُلِ الأدويةِ المشارِ إليها، فقد وقَعَتْ مواليدهُنّ في المحذور (10).

لاتُوجَدُ بين أيدينا حُجَجٌ دامغة تمكّننا من ربْط الخَلَل الملْحوظِ في الأُنبوبِ العصبيّ بنَقْصٍ في الحامضِ الفولي أو نَقصٍ في بعض الفيتامينات، إلاّ أن نتائجَ الدِّراسَةِ المُحَصَّلِ عليْها ذاتُ أهميّةٍ في الموضوع وَمِنْ شأْنِها أن تُبَرِّرَ مُواصلةَ اتّخاذِ التدابير الوِقائيةِ لدَى الحواملِ المتوقَّعِ تعرضُ الأجنةِ في بُطُونِهِنَّ لِمِثْلِ هَذِهِ الأخطارِ، إذا كنَّ خاضِعاتٍ لسوء التغذية.

أما المرحلةُ الثانية لنمو الدماغ السريع فَتَتَمَيَّزُ بما يُعبَّرُ عنه علميّا بدَفْقةِ النُّمو أو انفِجَارِهِ الشبيه بما هو معروفٌ عند الأنواع الأخرى من الكائنات الحيوانية.

إنّ انفجار النّمو هذا يَبْدأُ من منتصفِ مدّة الحَمل إلى حينِ بلوغِ الصبيِّ سنتيْن أو سنتيْن ونصف (8) إلاّ أنّ هذه المرحلة لا تبدأ، وهذا مهمّ جدّا، إلاّ حين يكون الدماغ قد استكمل سائرَ خلاياه العصبيّةِ التي يبقى عددها ثابتا مدى الحياة.

ومعلومٌ أنَّ وزنَ دماغ الطفل عند الولادة يصلُ إلى 350 غ، ويتضاعف ثلاثَ مرات على رأْسِ السنةِ الأولى للحياة، وفي سِنِّ الثالثة يبلُغ وزنُ دماغِه 80 % من وزنِه النهائي.

في حين أنّ وزنَ الجسد يتطلّب 18 سنة من النمو، قبل أن تصِل هذه النسبة إلى 80 % من وزنه النهائي.

وفي هذه المرحلة يتمّ نموُّ أكبر عددٍ مُهمٍّ من البِنْيات الدّماغيةِ الأَسَاسِيَّة، وكذا نموُّ الشبكاتِ العضوية الكيمائية.

أما أَجهزةُ الربْطِ والاتصالِ فَتَأْخُذُ أماكِنَها مع نُمَوِّ التغصُّنات وتكوين المشابك (SYNAPSES)، ثمّ يأخذُ حجمُ الخلايا العصبية (العصبونات) في الكِبَر، وتَتَضَاعَفُ خلاياها الواصلةُ بشكلٍ غريب لِتَصِلَ إلى مائةِ ألفِ خليّةٍ واصِلةٍ مُقابِلَ كلِّ خليةٍ عصبية (عصبون) كما أوضحتْ ذلك الدراساتُ الحديثة بواسطة المكروسكوب الالكتروني واستريوتاكسي (STEREOTAXIE) (7).

وخلال هذه المرحلة من النمو السّريع تتضاعف حاجياتُ الدماغ بشكلٍ مُثير، إذْ أن الدماغ يستهلك حوالي 50 % من الأكسجين والعناصرِ المغذية الأخرى لدى الولادة من مجموع ما يحتاج إليه الجسم، في حين يُلاحَظ أنه لا يَستهلِك من هذه العناصر إلاّ حوالْي 20 % أثناء البلوغ.

كما تتميَّز هذه المرحلةُ من نموِّ الدماغ السّريع بحساسيةٍ مُفرطة، وتأثُّر بليغ بالعوامل الخارجية كالتغذية الناقصة، والتعفنات والتسممان، وغيرِها من الأعراض المضرة (7 و8).

ومع هذا، فإنه لا يمكِن القطعُ بأنّ آثارَ عواملِ التغذية هي وحْدَها العواملُ التي تُسهِم في نموّ الدماغ وعلى الأخص في نموِّه النفسيّ والحَركيّ كما سنرى فيما بعد.

ويبدو أن العنايةَ بتنمية مواهبِ الطفل في هذا المَجال لا تَقِلُّ في أهميتها عن العنايةِ بتغذيته. تجدُر الاشارةُ ها هنا إلى الدّوْر المُهِمّ الّذي يجب أن يلعبَه المحيطُ في هذا المَجال. ومع ذلك فإن العنايةَ بأَحَدِ هَذَيْنِ العُنْصُرَيْنِ لا يُغْنِي عن الآخر، إذ أنّه مهْما كانتِ العنايةُ بالبيئة المحيطة بالطفل تامةً وقائمةً، فإنها وحْدَها لا تَكْفي، وتَبْقَى عديمةَ الأَثَر، إذا ما كانتِ العنايةُ بالتغذية ناقصةً أو كانت التغذيةُ غيرَ ملائمة.

فلقد أظهرَ العالِمُ جون دوبينغ (J. DOBBING) (6) من قِسم نموّ الطفل وتطوره بمانْشِستر في إنجلترا من خلالِ بُحُوثِه التجريبية على الحيوانات سنةَ 1968 بأنّه تُوجَدُ مفارقةٌ مثيرة ملحوظة في الحساسيةِ المُفْرِطَةِ للدّماغ من جرّاء سوءِ التغذية في مرحلةِ النمو هذه، وبيْن مقاومةِ الدماغ مقاومةً شبهَ تامّة لسوء التغذية لدى الانسان البالغ.

وهكذا ظهر من التجربة التي أُجرِيَتْ على الحيوان أنّ نُقصانَ التغذية الخفيفَ الذي يمكن مقارنتُه بما نُصادِفه عادةً في البِلاد السائرة في طريق النمو، أو بما نصادِفه

أحياناً حتى لدى بعض الدول المصنَّعة، قد تنشأُ عنه مُضاعفاتٌ أو اختلالاتٌ مستديمة في الدماغ إذا ما لَحِق نقصانُ التغذية بِبنياتِه الأساسية في مرحلةٍ من مراحل نموّه الحرِجة.

وبالمقابل، فإنَّهُ يمكِنُ حِرمانُ بعضِ الحيوانات في طَوْر البلوغ من تغذيتِها خلال مدةٍ طويلةٍ جداً قد تصِل بها إلى الهُزالِ الذي تَفْقِدُ معه النّصف من أوزانها أوْ تَمُوتُ جُوعاً دون أن تُمْكِنَنَا ملاحظةُ أيّ تأثيرٍ على وزْن الدماغ أو على بِنياتِ خلاياه الأساسية من جرّاء ذلك كلِّه.

فإذا ما عُدْنا إلى الانسان الّذي نحن بصدَدِ دراسةِ آثارِ التغذية على دماغِه، فإنه يُمكننا القول بأن الصِّحَةَ العامة للأطفال ونُموَّهم ونموَّ أَدْمِغَتِهِمْ مُرْتَبِطٌ على العموم أشدَّ ما يكون الارتباطُ بانتظام أشكالِ التغذية التي تتناولُها الأمهاتُ الحواملُ أثناء مدة الحَمْل وخلال فَتْرة الإرضاع (14).

ومع هذا كلِّه، فإنه على الرَّغم من سوء التغذية الشّديد الذي تَتَعرّضُ له المرأةُ الحامل في بعضِ الأحْيان فإن الجنين يُواصلُ استخلاصَ البروتيناتِ اللاّزمة لنُموّه ونموِّ الأنسجة الضرورية لحياته جَهْدَ مَا يَسْتَطيع، إعْتِمَاداً على التَّحولاتِ الغَذَائيةِ الطبيعيةِ لَدَى المرأةِ الحَامِلِ التي تعملُ على توفيرِ أقْصى قدرٍ من الحمايةِ للجنين في هذه المرحلة، ذلك لأن المرأةَ الحاملَ كيفما كانت ظروفُ تغذيتِها في بدايةِ حملِها، تَعمَل، بامكانياتها الخاصة، على خَزْنِ بعضِ أنواعٍ من الدهنيات التي تصلُح، من جهَة لسَدِّ حاجةِ الجنين في الرّحم أثناءَ مرحلةِ نموِّه السريع، كما تَصْلُح، من جهةٍ أخرى، لمواجهةِ الجهودِ الطاقية التي يتطلّبها إرضاعُ الطفل.

فإذا كانت الأم مصابةً بسوءِ تَغْذِيَة متوسط فإن أُولَى الأَعضاء التي يمكن أن تتضرَّر من ذلك هي الكبدُ والتوتة (Thymus) وكذا الوزنُ الاجمالي للجنين وطولُه، ويبقى الدماغ نِسْبياً بمَعْزِلٍ عن هذه الاصابة.

وإذا كانتِ الأُمُّ مصابةً بسوءِ تغذيةٍ شديدةٍ قَبْلَ الحملِ وأثناءَه فإنّ قُدْرتَها الطبيعية على خَزن هذه الأنواع من الدُّهنياتِ الضرورية للجنين تكون جدَّ محدودة وغيرَ مُجْدِيةٍ من الناحية العمَلية. وعلى هذا، فإن النموَّ التامَّ للجنين وكذا نموَّ دِمَاغِهِ يكون معرضاً لكثيرٍ من الأخطار. فإذا ما استمرَّ سوءُ التغذية لَدَى الأُمّ حتى وَضَعَتِ الصبيَّ عَلَى هَذِهِ الحَالة، ولَمْ يَتِمَّ تَدَارُكُ نَقْصِ التغذية الملحوظِ خلالَ الفترة الحرجةِ التي يجتازُها نموُّ الطفل، فإن نموَّ الدماغ لديه، قد تُصيبُه عقابيلُ وخيمةٌ لا شِفاءَ معها.

إن تأخُّرَ نموِّ الجنين في بَطْنِ أُمِّهِ، يَنْتُجُ عنه على صعيد التَّشريح نقصانٌ في وزن الدماغ وحجمِه، وكذا في دائرة الجُمْجُمة. ويلاحَظُ أن هذا النقصان يَلحقُ بصفةٍ أخصَّ المُخَيْخ الذي يُصابُ بعجزٍ فيما يتعلق بالخلايا العُصبونية، كما يلاحَظ صِغَرٌ في حجْم هذه العُصبونات مع نُقصانٍ في عددِها العام.

وبما أن المخَيْخ هو الجهازُ المسؤولُ عن تنسيقِ الحركات فإن النقصان في عددِ خلاياه النبيلةِ قد تَنْتُجُ عنه اضطراباتٌ في تنسيق حركات الطفل من جراء ذلك، ممّا قد يفقدُ معه الطفلُ القدرةَ على التحكُّم السَّليم في بعضِ الحركات والأفعال (Maladresses). (13).

أمّا على صعيدِ التَّحليل الدّقيق للأنسجة، فلا يُمكنُ العُثُورُ علَى إصاباتٍ واضحةٍ أو ضُمُورٍ مَوْضِعِي في مَتْنِ الدِّماغ، إنما يُلْحَظ فقط تعذّرُ بلوغ بعضِ البنيات الدِّماغيهِ كاملَ نموِّها بأعدادٍ كافيةٍ وبخاصة على مستوى المخيْخ كما وقعتِ الاشارة إلى ذلك آنفاً.

ومن جهة أخرى لَنْ نَجد مَوَاضِعَ مُتَضَرِّرَة ولا أَماراتٍ عُصابيةً كالشَّللِ أَوْ بَعْضِ الاختلالات الحِسِّيَّة. وفي الحالات التي نَعْثُرُ فيها على هذه الأَماراتِ لن يكونَ سوءُ التغذية بالضرورة هو المسؤولَ عنها وحدَه، بل إنه يُصارُ إلى البحثِ عن مَنْشإٍ هَذِهِ الاختلالات في عِلَلٍ أخرى كما في حالاتِ النقصِ المطوَّل لمادة السكر (Hypoglycérine prolongée) بعد الولادات، أو في إصاباتٍ أخرى مِمَّا يمكن تحديدُه، أو تبقَى أسبابُه غيرَ محدَّدة طبياً. كالتعفّنات الفايروسية والمكروبية والطفيلية. وكثيراً ما تَنْجُمُ هذه التعفّنات عَنِ التِهَابِ **السّحايا** (Méninges) ORL، وأجهزةِ السّمع والشم والحلقوم (4).

إن الاصاباتِ الوحيدةَ التي يمكن التعرُّف عليها بواسطة الميكروسكوب الالكتروني تَنْحَصِرُ في قلّة عَدَدِ «الخلايا الواصلة» أو المشابك (SYNAPSES) التي قد تصل إلى 40 % كما تظهر في نَقْصِ مِقْدَار النُّخاعين الموجود في المحاور العصبونية وفي التغصنات، وكذا في الأنسجةِ العصبيَّة، علماً بأن مادةَ النخاعين هذه تقوم بدور مهم في نمو التوتر العضَلي لدى الطفل (3).

وعلى الصعيد البيوكميائي هناك إمكانيةُ حدوثِ اختلالٍ في تكوينِ الشحميات الفوسفورية التي تأخذ في التناقص والتعثُّر وخاصة منها الشحميات التي يَدخُل قسمٌ

منها في التركيب الكميائي لمادة النخاعين الآنفةِ الذّكر. يُلْحَظُ هنا كذلك تناقصُ الخلايا العصبية الناقلة (5).

إن مجموع هذه التغيُّرات الملحوظة على مختلفِ الأَصعدة السَّالفة الذكر : إنْ على الصَّعيدِ التّشريحي أو على صعيد التّحليل الدقيق للأنسِجة أو على الصعيد البيوكيميائي ستكون مسؤولة عن سائر العَوَارِضِ الوَظيفِيَّة لِدِمَاغِ الطِّفلِ أثناء نموِّه، كما ستَكُونُ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ وخيمة على مستقبله.

أما من جهةِ النموِّ العقلي والنفسي والحركي فيكاد يكون من المُؤَكَّد أن نُمُوَّ الجِهازِ الدماغي لَدَى الطفل وبلوغَهُ دَرَجةً كاملةً من التفتُّح يَنْشَأُ عنهُ العديدُ من المكتَسباتِ الحِسيّة والحركية والمعرفية والنفسية والعاطفية التي يَتَكَوَّن في مجملها في المرحلةِ الأولى لنشأة الطفل.

إن مُخْتَلِف الأشكالِ التي يَتَّخِذُهَا نُمُوُّ الصَّبِيِّ أشدَّ ما يكون الارتباط بعِدَّةِ عَنَاصِرَ تَشْريحيَةٍ وَوِراثيَة وهُرْمُونيةٍ ... إلا أن تأثير البيئة المحيطة بنموّ الصبي لا يمكِن أن يُنكَرَ في هذا المجال، ونعني بذلك إلى جانِبِ آثار التغذية، ظروفَ العيش صحيًّا، ومشربا، ومسكنا، وما يَتْبَعُ ذلك من مُنْشآت صِحِيَّةٍ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَابَ بِهِ مِن أمراضٍ، وَكَذَلِكَ إِمْكَانِيَةُ تَلَقِّي العِلاج، ونوعيةُ هذا العلاج وفَعالِيَّتهُ، وكذا حجمُ الأسرة (تباعد ما بين الولادات) ونظامُ العيش، والحالةُ الصحية للوالدين، ومستوى تكوينهما، ومستواهما الاجتماعي والاقتصادي، ونوعُ العلاقات الموجودة بين الأم وأولادها والجوُّ العاطفيّ العامُّ الذي يسودُ داخلَ الأُسرة.

وإنَّ من الصعب جداً إفرادَ كلِّ عنصرٍ من هذه العناصرِ بمقدار الأَهَمِّيةِ التي يَكْتَسيهَا نَظراً لتَدَاخُلِهَا مَعَ بَعْضِهَا بعضًا. وينبغي أن يُعادَ إلى الذَّاكرة أن التغذية تُؤَثِّرُ في النُّمُوِّ كمًّا وكيفاً بحَسَبِ أنواع الطعامِ الذي يتناولُه الطفل، كما يَتَأَثَّرُ نُمُوُّ الطفل كذلك بنوْعِ العَلاَقَةِ بَيْنَهُ وَبَينَ أُمِّهِ المُتَمَثِّلَةِ في عدَّةِ عناصِرَ عاطفيةٍ وتربوية وتعليمية كَتَعَلُّمُ اللغةِ والحركات وبعضِ التصرفات. ويرتَبِطُ النمو الحركي والعاطفي للطفل ارتباطاً وثيقاً بنُضْجِ جهازه العصبي.

إن اندماجَ مادة النخاعين في الأنسجةِ العصبية الحركية يَتمّ تدريجياً شيئاً فشيئاً، ويُتيحُ على التَّوالي الحصولَ على التوتُّر العَضَلِي، والقُدْرةَ على المشيِ، وتعلُّم الاشارات، والتنسيقَ بين الحركات، وبموازاةٍ مع هذا تَنْمُو بالتّدريج، الأجهزةُ الخاصة بالحواسّ :

(السمعُ أولاً ثم البصرُ ثم الشم...) وينبغي أن يشار بهذا الصدد إلى أنه ثَبتَ من بحوثٍ عديدة أُنْجزَتْ في المكسيك (18) والجامايك (15) والهند (1) أن سوءَ التّغذية يُعيقُ نُمُوَّ الطفل من حيثُ الحركاتُ والحواسُّ إعاقةً تَكُونُ أخطرَ بكثيرٍ مَمَّا تُحدِثُهُ الوِلاداتُ السابقةُ لأوانِهَا عَلَى نُموِّ الطفل.

وَيَشْمَلُ النموُّ المعرفيُّ سائرَ المكتسباتِ المعرفيّة التي يَنْشَأُ عَنْهَا نموُّ الذّكاء الذي يَعتبره بعضُ الاخصائيين بمَثَابَة «نَمَطٍ من السّلوك يُميّزُ الانسانَ عَنْ سَائِرِ أَنْواعِ الحَيَوَانَاتِ الأخرى بِحاسَّةِ التقدير، والعَقْلِ، وقَابِليَّةِ التَّأقلُم مَعَ الأَوْضاعِ المُسْتَجَدّة».

ويلاحَظُ أن النموَّ الاجتماعي ــ العاطفيّ يتنامى بكيفية تدريجية : فخِلال السّنة الأولى من حياةِ الطفل تَنْشأُ العَلاَقَةُ أولاً وقَبْلَ كُلِّ شيء، مع الأُمّ، ثم تنتقِل تدريجياً لتشمَل بقيّةَ العناصرِ المحيطة به.

وتَتَميَّزُ السنةُ الثانية بتكوُّنِ علاقاتٍ عَاطِفِيَّةٍ مَعَ أَشْخَاصٍ آخرين غيرِ الأم، كما تَتَمَيَّزُ بظهورِ رغبةٍ عند الطفل في العبيرِ والاتصال عن طريق اللغة والكلام.

إن القدرة على الكلام واللّغةِ مُكْتَسَبٌ ثقافيٌّ مرتبطٌ أشدَّ ما يكون الارتباط بالجوِّ الاجتماعِي والثقافي والعاطِفي المحيطِ بالطفل، بحيث نُلاحِظُ أن الطفل المنعزِل تَمَاماً عن النّاس لا يمكنه أن يتعلّم الكلام. وقد يستحيل في بعض الأحيان على الطفل اكتسابُ ملَكة الكلام إذا ما فَاتَ سن الثامنة أو العاشرة من العمر وهو مُنْعَزِلٌ عَنِ النّاسِ، كما في حالات الأطفال المتوحشين (10). تَجدُرُ الاشارة إلى أن مسلسَل التعلُّم يمرُّ وَفْقَ نظامٍ مُعَيَّنٍ بِمُوَازَاةٍ مَعَ نُمُوِّ الدماغ : إن السنواتِ الأولى من حياة الطفل هي الأكثرُ ملاءمةً لظروف التَّعلُّم، وكلَّما تَأَخَّرَتْ بالطِّفْلِ السنواتُ أصبحتْ ظروفُ التَّعَلُّم صَعْبَةً بالتَّدَرُّج وقديما قيل بحَقٍّ : «التعلّم في الصِّغَر كالنّقش على الحجر».

هل بالامكان علاجُ الآثارِ الناشئةِ عن سوء التغذية التي يُصاب بها الدماغ ؟

يلاحَظ عند الحيوان أن تصحيحَ آثارِ سوءِ التغذية يمكنُه أن يمحُوَ التغيراتِ التشريحيةَ اللاَّحقةَ بالدماغ، وكذا التغيراتِ النسيجيّة، إلا أنه من العسير أن نعرِفَ ما إذا كان بالامكان علاجُ الأضرارِ الوظيفية. كما أنّ ما ينطبقُ على الحيوان لا يمكن الزَّعمُ بأنّه ينطبق بالضرورة تَمَامَ المطابقةِ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يحْدُثَ لدى الانسان، إذْ أن التّجارِبَ الخاصَّة بِزَرْعِ البروتيناتِ والحراريات التي تُطبَّق على الحيوان لا يمكنها أن

تُطبَّق على الانسان ضِمن نفْس البْرُتُوكُولات والظروف، كما أن العواملَ الاجتماعية والبيئيةَ للإنسان لا يمكنُ أن تتوافَرَ لدى الحيوان (6).

وخلاصةُ القول يمكن التأكيد بأنَّ سُوءَ التغذية التي يُصَابُ بهَا الأطفالُ حالةٌ منتشرة بكثرة في العالم وبخاصّةٍ في البلاد المتخلفة. وبغَضٍّ الطرف عَمَّا يَنْشأُ عَنْها مِن آثارٍ مباشرةٍ مَرضيةٍ أو مسبّبةٍ لِلْوَفيات فإنَّها تَتْرُكُ لَدَى الطفلِ عواقبَ سَيّئةً تَمَسُّ مَرَاحِلَ نُمُوِّهِ كُلَّها.

ويمكن التأكيد بأن الطفلَ يتأثرُ نُمُوُّه على المدى الطّويل من جرَّاء سوء التغذية : فتقِلُّ مُقَاوَمَتُهُ لِلأمْرَاضِ، وتَتَأَثَّرُ قُدُراتُهُ الجَسَدِيةُ بِذلك، وكذلك سَائِرُ إمكانياتِه عَلَى وَجْهِ العموم.

هذا علاوةً على مايُصابُ به الطفلُ من اختلالاتٍ في نموّ دِمَاغِهَ من جرّاء مُعَانَاتِهِ لِسُوءِ التغذية خِلالَ مرحلةِ النّمو السَّريع التي أُشيرَ إليها في هذا الحديث، وخاصّة خلال فترةِ الحَمْلِ والأَيَّام الأُولَى لِحَيَاتِه.

ويبدو من عِدّة ملاحظاتٍ أجريتْ في البلاد المتقدمة والبلاد السائرة في طريق النمو أنه عندما يَكُون سوءُ التغذية لم يُحِق بالطفل خِلال مَرْحَلَةِ نُمُوِّ دِمَاغِهِ الحَرِجةِ المُشَار إلَيْها فإنَّ بالامْكَانِ مُعَالجَة الاختلالاتِ الناشئةِ عن ذلك شَريطةَ أن يُصَار إلى العلاج، بسرعة وَقُوَّة وَفي آن واحد، على مُسْتَوَى سُوءِ التغذية وعَلَى مُسْتَوى البيئة العامّة المحيطةِ بالطّفل. ذَلِكَ، أَنَّ العَجْزَ المَلْحُوظَ في غَالبِيَّةِ الأَحْيَانِ يَكُونُ أَيْضاً نَاشِئاً عَن نَقْصٍ في الجَانِبِ الاجتماعي والعاطفي وكذا التربوي.

لذلك يجب الالحاحُ كثيراً عَلَى العِنَايةِ التَّامَّةِ بالبيئَةِ العَامَّةِ المُحيطَة بالطفلِ، إلَى جَانِبِ الاهتمامِ التامِّ بالسَّهَرِ عَلَى حُسْنِ تَغْذِيتِه الغِذَاءَ الكامِلَ الملائِم.

BIBLIOGRAPHIE

1) – BANIK, N.D.D. et al :

Effect of malnutrition on psychomotor development in Indian babies. Arch. of Child Health. Calcuta, 1973, 15, n° 3, p. 119-126.

2) – BOUAICHA Abou BAkr :

Malnutrition protéïno-calorique : devenir psycho-somatique lointain. Thèse doctorat en médecine, n° 88/1976, Rabat.

3) – BOURRE J.M., MORAND O., CHANEZ C. et al.

Influence of intra-uterine malnutrition on brain development : alteration of myelinisation. Biology of the neonate. 1981, 39, n° 1-2, p. 96.

4) – BRANDT Ingeborg :

Brain Growth, foetal malnutrition, and clinical consequences. J. Périn. Med. 9 (1981) 3.

5) – COHEN, E.L. et WURTMAN, R.J. :

Nutrition and brain neurotransmitters in Winick M (Ed) : Nutrition : Pre and postnatal development. vol. 1, N.Y. 1979.

6) – DOBBING J. :

Retard de croissance d'origine nutritionnelle et système nerveux. Actes du XXVIème Congrès de Pédiatrie, 1981, Toulouse.

7) – DOBBING, J. et SANDS, J. :

The quantitative growth and development of the human brain. Dis. Child 48, 757-767, 1973.

8) – DOBBING, J. ET SANDS, J. :

Vulnerability of developing brain : IX, the effect of nutritional growth retardation on the timing of the brain growth Spurt. Biology of Neonate, 19/1971, pp. 363-378.

9) – GLUGSTON, G.A. :

Effet de la malnutrition sur la croissance cérébrale et le développement intellectuel. Rev. Centre International de l'Enfance, 1981-11, n° 1.

10) – L'enfant en milieu tropical.

C.I.E. n° 177/1988 (Thème : Alimentation, Environnement, Développement de l'Enfant).

11) – L'homme futur - Science n° 1, Tome 6, p. 14-15.

12) – L'Universelle Bordas (Encyclopédie)
Biologie-Ordre des Cétacés p. 120.

13) – LYNCH A., SMART J.L. et DOBBING J. :
Motor coordination and cerebellar size in adult rats undernourisched in early life. Brain Res., 83, p. 249-259, 1975.

14) – MAUVAIS-JARVIS P. :
Sémiologie endocrinienne et métabolique. Ed. Delachaux, 1972, p. 22.

15) – RICHARDSON, S.A. et al :
The contribution of differing degrees of acute and chronic malnutrition to the intellectuel development of Jamaïcan boys. Early Hum. develop. 1978, 2, p. 163.

16) – SCHULTE, F.J. :
Foetal malnutrition and brain development. Symposium 27 Ciba-Fondation : Size and birth, London, 1974.

17) – SHNEOUR, E.A. et SCHNEOU J.B. :
Malnutrition et acquisition des connaissances : in Perspectives, Vol, VII, n° 1, 1977.

18) – URRUSTI-SANZ, J. et al :
Post natal growth of children with intra-uterine malnutrition. Arch. Invest. med., Mexique. 1978, 9, p. 439-446, n° 2.

القســم الثانــي

الملـخـصـات

الواقع المر للوضعية التجارية والمالية الدولية

أناتولي غروميكو

ان انخفاض وتيرة النمو نتيجة الأزمة التجارية والمالية الدولية، والذي تدفع ثمنه بلدان العالم الثالث خاصة، يهدد ليس فقط أمن بعض الدول، بل استقرار العلاقات الدولية عامة. فالأزمة اذن عالمية.

واذا كانت أسباب هذه الأزمة كثيرة ومتنوعة فان أهمها هو عدم اشراك جميع الدول، وخصوصا دول العالم الثالث، في النظام الجديد لتوزيع الانتاج والذي أحدث على اثر الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة.

ورغم محاولات البنك وصندوق النقد الدوليين اصلاح هذه الوضعية عن طريق برامج اعتمدت قانون السوق وتقنين العلاقات التجارية، إلاّ أن هذه التدابير باءت بالفشل وأدت إلى تفاقم أزمة مديونية العالم الثالث.

وهكذا فان التدويل المتزايد للقضايا الاقتصادية وتداخل مصالح الدول يفرض اليوم مواجهة قضايا التنمية من منظور جديد. ان تقدم العالم يمرّ عبر اقامة نظام اقتصادي دولي جديد يعتمد المباديء الديمقراطية في العلاقات الدولية والمسؤولية الجماعية في مواجهة القضايا ذات الطابع العالمي.

* * *

الأخلاق وطب السرطان

محمد علال سيناصر

عمّق تقدم علوم الحياة الهوّة بين طب السرطان ومتطلباته الأخلاقية، ذلك ان الادعاء بامكان علاج المرضى بحساب الاحتمالات ادعاء مبالغ فيه، لأن هذا الحساب قد يؤدي إلى الظن الخاطيء أحيانا ممّا ينجم عنه الاستخفاف بحقوق المريض.

قد يتساءل متسائل وما دخل الأخلاق هنا ؟ ان الأخلاق ضرورة لا بديل عنها لصدّ الانغماس الآلي في العادات والانزواء إلى التقليد. ان الأخلاق تربية وباعتبارها كذلك لا يمكن للعلم (والطبيب على الخصوص) أن يستغني عنها لأنّها تقعّد وتضبط علاقات العلم بالأهداف الانسانية.

يصحّ اذن صياغة هاته العلاقات كما يلي :

– اعمل حتى يكون عملك في جميع عواقبه موافقا لاحترام كرامة الانسان.

– اعمل حتى يكون عملك بجميع عواقبه مرضيا لزملائك وموفيا بأغراضهم جميعا.

– اعمل حتى يكون عملك مثالا يحتذى به في تصرف الانسان الطبيب كطبيب انسان.

– اعمل حتى يكون عملك مساهمة في المحافظة على الصحة من التلوث وخطورته على حياة أحفادنا على هذه الأرض.

ولابد من التذكير هنا بأن الناحية الأخلاقية اكتست في التراث العربي والاسلامي شمولية شكلت المصدر الغني الذي اغترف منه الفلاسفة والعلماء فيما بعد.

* * *

دور المؤسسة العسكرية في تقدم العلــوم والتكنولوجيــا

ادريس خليل

تتوافق أهداف المؤسسات العسكرية والعلمية في أكثر من ناحية، وعلى الخصوص في العمل من أجل وضع حدّ للاختلالات وإقامة نظام جديد لصالح الانسان واستمرار وجوده وأمنه وصيانة كرامته.

لقد وصل الأمر بمفكري القرن الثامن عشر (هوبز مثلا) إلى حد اعتبار العلم، ليس فحسب مظهرا للقوة، بل هو القوة في حدّ ذاته، وهذا ما يفسر التداخل الذي حصل فيما بعد بين العلوم والفنون العسكرية.

هكذا برزت التأثيرات المتبادلة فيما بين المجالين العلمي والعسكري بشكل غير مباشر قبل الحرب العالمية الأولى، إذ اهتم العلماء باستعمالات القذائف في تلك الحرب مما وجه أبحاثهم وجهات جديدة في المجالات الفيزيائية والرياضية والميكانيكية. كما لاحظ العلماء آثار النظام الصناعي في القرن التاسع عشر ففتحت أمامهم ميادين أخرى للبحث والتطبيقات.

تطورت التأثيرات المتبادلة بين العلم والمؤسسة العسكرية فيما بين الحربين العالميتين فأصبحت مباشرة، إذ اندمج العلماء في المؤسسات العسكرية كمستشارين وموّجهين. وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ظن البعض أن العلاقة بين العلم والمؤسسة العسكرية ستخبو، ولكن الذي حدث هو العكس، فقد تعززت تلك العلاقة بأن أقدمت المؤسسة العسكرية على إحداث مراكز بحث متخصصة توسع اهتمامها ليشمل ميادين متعددة بفضل الامكانيات المالية الهائلة المرصودة.

ورغم المواقف الانسانية لبعض العلماء المنذرة بويلات الحروب فإن نشاطهم العلمي لتطوير المعارف والتقنيات، بما في ذلك الأسلحة، لم يتوقف وبقي أثر ذلك محصورا في النداءات الأخلاقية والدعوة للسلام الذي يصبح مكلفا أكثر فأكثر واقتراح اتفاقات للحدّ من استعمال الأسلحة الفتاكة.

القسم الثالث

أنشطة الأكاديمية

نص التقرير الذي ألقاه السيد عبد اللطيف بربيش أمين السر الدائم للأكاديمية في الجلسة العمومية الرسمية للدورة الأولى لسنة 1990/1410

تتمّ أكاديمية المملكة المغربية، في هذه الأيام المجيدة، عقدها الأول من عمرها المديد، بإذن الله. ويسعدني في هذه اللحظات التاريخية أن أتقدم باسمكم إلى مقام أمير المومنين، مؤسس الأكاديمية وراعيها الأمين جلالة الملك الحسن الثاني بالتهنئة والتبريك بمناسبة حلول الذكرى العاشرة لتأسيس هذه المعلمة الحضارية من معلمات عصره الزاهر، شاكرين لجلالته رعايته المتوالية، وعنايته الكاملة بشؤون هذه المؤسسة وأعضائها، داعين له بالنصر والتأييد والرفعة والمجد، إن ربِّي سميع مجيب.

كلما مرت سنة جديدة، إلا ويغتني الرصيد العلمي والحضاري لأكاديمية المملكة المغربية بانضمام مجموعة من الرجال العاملين بصدق ووفاء وجهاد إليها، لاعلاء صرح الحضارة والعلم، والاسهام، بابداعهم وفكرهم، في الحفاظ على تأصيل القيم الروحية والفكرية للانسان، في عصر أصبحت فيه المكتشفات العلمية والبحوث الموضوعية تدعو الانسان إلى الموازنة الحكيمة بين المادي والمعنوي، وربط ما بين الجسم والروح، ووصل ما بين القلب والعقل، برباط متين، لحمته العلم، وسداه الايمان، في انسجام ووئام لا ينفصلان.

ولعل من شأن انضمام هذه الفئة من الرجال الأكفاء أن يكون معينا لهذه المؤسسة على الاضطلاع بالأمانة الانسانية الملقاة على عاتقها من لدن راعيها ومؤسسها الأمين، جلالة الملك الحسن الثاني، يوم بارك انطلاق أشغالها منذ عشر سنين، حين خاطب، حفظه الله، أعضاء أكاديمية المملكة المغربية المجتمعين وقتها بقوله :

«فإذا كتب الله لهذه الأكاديمية، والظّن بالله جميل، أن تعين على حثّ ركب الحضارة، ونشر الطمانينة، فإنّ الأعضاء المتآزرين في هذه المؤسسة، أرباب الفكر السامي، وأصحاب القلب الطّافح بالخير سينيرون في هذا الزّمان المتبدّل المتحوّل، سبيل ولوج العهد الجديد، ويساعدون على حمل الأمانة الربانية الملقاة على عاتق الانسان.

فلعل جلالة الملك كان يومىء آنئذ، من طرف خفيّ، إلى الآية الخالدة، الواردة في القرآن الكريم، في هذا المعنى : ﴿إنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ...﴾.

وعلى مدى عقد من السنين، زاهر بالعمل الدؤوب حافل بدراسة الموضوعات العلمية والقانونية والاستراتيجية والسياسية المتنوعة ؛ وخلال ندوات علمية مفتوحة للحوار بين أعضاء الأكاديمية وغيرهم من ذوي الاختصاص، عمرت رحاب الأكاديمية بجمهرة من خيرة العلماء والخبراء من داخل المغرب وخارجه، من مختلف الحيثيات والجنسيات.

كذلكم، بدأت المسيرة العلمية لأكاديمية المملكة المغربية، باحثة في تؤدة وصمت عن أسلوب فريد يميّز عملها، ومنهاج قويم يرشد خطوها، وطريق سليم تسير عليه للانفتاح وفتح الجوار مع الآخرين، بغية اكتساب القدرة على قبول النقد، والمران على تبادل الآراء المختلفة وبسطها، والمزاوجة بينها في جو من الصّراحة والحكمة والتعقل.

لا أزعم أن هذه الفترة من عمر هذه المؤسسة كافية لاكتساب الخبرة في هذه المجالات، والمهارة في ميادينها، ولكني أشير بتواضع إلى أننا قد حاوَلنا، خلالها، ارساء ركائز أولية لهذه المبادىء، وعملنا، أثناءها، على رسم المعالم الرئيسية لمسيرة حضارية تاريخية، من المأمول أن تحمد عقباها أجيال الانسانية من بعدنا، وأن يكون التوفيق والنجاح قد حالفا مجمعنا في محاولاته النّبيلة في هذا السبيل.

لذا فإنه يسعدني ويشرفني، أن أرصد وإياكم، في ايجاز سريع، وقائع نشاط أكاديمية المملكة المغربية خلال العقد الأول من حياتها، وهو نشاط واكب مسيرته جمع كريم منكم، ولا يزال.

ويلتحق بنا بين الحين والحين، عضو جديد أو أعضاء من خيرة العلماء العاملين المخلصين الذين يطيب لنا أن نعتز برفقتهم على الدرب ونفاخر بانضمامهم إلى الركب، أداء لواجب العلم، ووفاء لنداء الحضارة.

وتشاء سنة الله في الكون أن تنفصل عن الركب طائفة، تغيب عنا في هذه الأيام أجسامهم، وتتصل فينا أعمالهم، فهم بيننا أحياء غير أموات.

يأتي في طليعة هذا الركب الحبيب زميلنا الراحل أحمد الطيب بن هيمة أول أمين سر لهذا المجمع الموقر، بكل خشوع ننحني في هذه الساعات ترحما على روحه الطاهرة.

وبكل اجلال يليق بزملائنا الراحلين نترحم على أولئك الرجال الذين لبّوا دعوة ربهم تاركين في هذه الأكاديمية من بعدهم ذكرا عطرا نستلهم منه قوة الثبات على المبادىء التي عاشوا لها وعملوا من أجلها.

لقد اكتمل لأكاديمية المملكة المغربية، خلال عَقدها الأول، عِقد تكوينها، إذ بلغ عدد أعضائها ستين عضوا، من بينهم ثلاثون من مواطني المملكة، وهم أعضاؤها المقيمون، وثلاثون من الأعضاء المنتمين لجنسيات مختلفة من أوروبا وأمريكة وافريقية وآسية وهم أعضاؤها المشاركون.

وأنعم جلالة الملك، راعي الأكاديمية، مباشرة بصفة أعضاء مشاركين، على بعض الشخصيات الأجنبية السامية المشهود لها بالتبريز في مجال الحضارة، ويسعدنا أن نرى عددهم يزداد بيننا يوما بعد يوم.

كما ضمّت الأكاديمية عددا من الأعضاء المراسلين من الشخصيات الأجنبية المتميزة بقيمتها الفكرية.

وبإسهام فكري من هذه المجموعة من العلماء، درست أكاديمية المملكة المغربية، أثناء هذا العقد، في دوراتها السنوية، كثيرا من القضايا الحضارية، العلمية والقانونية، والأخلاقية والاقتصادية المتخصصة، وتم استقطاب خبراء مرموقين من ذوي الصيت المتميّز في تخصصاتهم، للمشاركة في أشغال الندوات العلمية العامّة، التي اعتدنا أن نرى جلالة الملك يتفضل بتعيين موضوعات أشغالها، توجيها منه لأعمالها، وإسهاما ملكيا ساميا في ترشيد خطواتها، واستمزاجا لآراء أعضاء الأكاديمية في بعض القضايا الفكرية العلمية والحضارية للتعرف على نظرياتهم في شأنها، وتنوير الرأي العام الدولي بحصيلة نتائجها، بعد المدارسة والمناقشة والتمحيص، وتعميم فوائدها الفكرية على أكثر من صعيد، وفق ما تنص عليه مقتضيات الظهير الشريف الذي أحدثت بموجبه أكاديمية للمملكة المغربية.

إن المتتبع للمحاور التي تناولتها أشغال الندوات العلمية العامة للأكاديمية خلال دوراتها المتعاقبة، يلحظ وحدة فريدة في أسلوب صياغة موضوعاتها، وتناسقا فكريا وظرفيا في تتابعها وتساوقها، حتى لتكاد، في دقة توقيتها تسبق بعض الأحداث العالمية أو تواكب تطوراتها، بحثا عن حلقة تكاد تكون هي الحلقة المنسية، إن لم نقل الحلقة المفقودة، من حلقات الموضوعات المقترحة ألا وهي أخلاقيات الحدث المدروس.

بهذا الأسلوب المغربي الخاص استهلّ مجمعنا ندوته الأولى بالتفكير في أخلاقيات

التقنيات الحديثة للاتصال البعدي «التيليماتك»، ثم تابعت أكاديميتنا مسيرتها الفكرية في اتجاه موضوع كان ولا يزال واحدا من أهم موضوعات الساعة، في محاولة لتوجيه التفكير فيه وجهة إنسانية وأخلاقية حضارية وتاريخية، ذلكم هو موضوع ندوة : «القدس».

وتواصل السير في الندوات الموالية بحثا في القيم الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر وتفكيرا في الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء، مرورا بقضايا الانتداب الرئاسي والاستمرار السياسي في الأنظمة الديموقراطية. ولم تغب عن البال في الندوات المتعاقبة قضايا انمائية ومصيرية ذات أهمية بالغة على الصعيدين الدولي والوطني كموضاعات الماء والتغذية وتزايد السكان، وقضايا القرصنة والقانون الأممي، وإشكاليات الخصاص في الجنوب والحيرة في الشمال تشخيصا وعلاجا، والتدابير التي يجب اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية. وتوالت الموضوعات على هذا النّسق المفيد لتتناول الجامعة والبحث العلمي في إحدى الدورات ثم الشروط الواجب توافرها لتأسيس المجموعات الاقليمية وصولاً إلى موضوع دورتنا هذه عن مفهوم الانسان الاقتصادي وضرورته للاقلاع الاقتصادي في أوروبا الشرقية.

ولم يعد بعازب على أحد من الخبراء المشاركين في أشغال ندوات مجمعنا أن محور «الأخلاقيات» أضحى بإلحاح من راعي أكاديميتنا، وبتوجيهه السّامي، واحدا من المحاور الاعتبارية الضرورية في كل بحث معتبر من بحوث أكاديمية المملكة المغربية خيطاً رفيعاً رابطاً بين موضوعاتها، ممهّدا لبحوثها الحاضرة والمقبلة.

بلغ عدد دورات الأكاديمية تسع عشرة دورة انعقد بعضها في مقرّ الأكاديمية بالرباط عاصمة المملكة، وثلاث منها خارج التراب الوطني، في كل من باريز (مرتين)، ومدريد (مرة واحدة)، وفي مدينة فاس (أربع مرات) وبمراكش (ثلاث مرات) وبأكادير (مرتين)، وبالدار البيضاء (مرة واحدة) وبطنجة (مرة واحدة).

وكان إشعاع الأكاديمية، ونشاطها العلمي، أثناء هذه الدورات يقابل بكثير من التقدير لرسالة الأكاديمية الحضارية، والاعجاب بالموضوعات التي تناولها، والأسلوب الخاص الذي يتم به تناولها.

تجدر الاشارة إلى أن أكاديمية المملكة المغربية تم استقبالها من قبل زميلتها الأكاديمية الفرنسية بمقرها في باريز في احتفال تاريخي مشهود صيف سنة 1987.

على الصعيد الوطني، كانت المدن المغربية التي تنعقد فيها دورات الأكاديمية مجالا

لنشاط ثقافي، شعبي ورسمي متميز، تغمره الفرحة والاعتزاز بالأعمال العلمية المدروسة، وباستقبال الشخصيات الأكاديمية المشاركة.

جاوز عدد الخبراء المشاركين في ندوات أكاديمية المملكة المغربية المائة خبير متخصص في موضوعات الندوات، نصفهم من المنتسبين لهيآت علمية أو من الممثلين لمنظمات دولية حكومية وغير حكومية منتمين لجنسيات مختلفة، والنصف الثاني من مواطني المملكة.

تعارف هذا الجمع الوفير من العلماء الذين تضمهم دورات الأكاديمة وندواتها العلمية، بمن فيهم الأعضاء المقيمون والمشاركون والمراسلون، وكذلك الخبراء المدعوون للاسهام في أشغال الندوات، على اختلاف بلدانهم وألوانهم وألسنتهم ومذاهبهم وآرائهم، وتعوّدوا، فيما تعوّدوا، أن يستمعوا في رحاب الأكاديمية إلى طرق التفكير المختلفة عند كل منهم، وإلى منهجياتهم في البحث والدراسة والحديث والقول، وإلى الرأي الآخر وإلى النّقد النّزيه، مما يمكن معه للمرء أن يزعم بملء الفخر، وبكل تواضع، بأنه تكوّن لنا منه أسلوب أكاديمية المملكة المغربية في الحوار، والانفتاح، وتبادل الآراء، وتوجيه النقد في سماحة المفكرين، وسمو العلماء، واحترام ومودة وتقدير وموضوعية، عزّ لها النظير في أية بقعة من البقاع العلمية الشبيهة.

لقد امتد إشعاع أكاديمة المملكة المغربية إلى كثير من المؤسسات العلمية في البلاد الصديقة والشقيقة :

- عن طريق تبادل المطبوعات والدراسات والتحقيقات العلمية والمنشورات المختلفة إذ بلغت لائحة مبادلاتنا بتاريخه معها حوالي ثمانمائة مؤسسة علمية، منها ما يقرب من مائتي مؤسسة أجنبية جامعية وأكاديمية.
- وتم انتساب أكاديمية المملكة المغربية إلى الاتحاد الدولي للأكاديميات عضواً كامل العضوية، ويحضر ممثل عن الأكاديمية بانتظام كل الاجتماعات السنوية التي يعقدها هذا الاتحاد الدولي.
- كما تمّ انتساب مجمعنا إلى شبكة أكاديميات العالم الثالث المنبثقة من أكاديمية العالم الثالث للعلوم.
- ويتزايد اهتمام الأوساط العلمية والجامعية والأكاديمية والاقتصادية والدبلوماسية والصحافية بنشاط الأكاديمية العلمي، ومتابعته على أكثر من صعيد :

فقد زار وفد من اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية مقر الأكاديمية أواخر سنة 1984 باشراف رئيسها السيد ابراهيم مذكور وحضوره، لربط صلات علمية بين المجامع العربية والأكاديمية المغربية.

وحضر ممثل عن الأكاديمية ندوة نظمها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في عمان سنة 1987.

وزار الأكاديمية صيف سنة 1987 أعضاء مجلس الأكاديمية الأفريقية للعلوم رغبة في توثيق الروابط بين المؤسستين.

من جهة أخرى واظبت أكاديمية المملكة المغربية على عقد اجتماعات بصفة دورية، على مستوى الجلسات العادية التي يحضرها جميع أعضائها المقيمين وكذلك على مستوى لجانها الخاصة التي تأسست أثناء هذا العقد على الشكل التالي :

أ – لجنة التراث.
ب – لجنة القيم الروحية والفكرية
ج – لجنة اللغة العربية
د – لجنة التربية والعلوم والتكنلوجيا.

إضافة إلى الاجتماعات التي تعقدها اللجان الدائمة بدعوة من أمين السر الدائم كلما دعت الحاجة العلمية أو الإدارية إلى ذلك، وهذه اللجان هي :

أ – لجنة الأعمال.
ب – اللجنة الادارية.
ج – لجنة المجلة والمطبوعات.

وتميز النشاط العلمي لأكاديمية المملكة المغربية على الخصوص بما يلي :

أ – اصدار مجلة «الأكاديمية» بلغات عملها الأربع العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية.

ب – إصدار وقائع ندوات دورات الأكاديمية الخاصة ببحوثها ودراساتها ومناقشاتها في لغاتها الأصلية، ونشر مختصرات عنها بلغات عمل الأكاديمة

ج – نشر محاضرات الأكاديمية في كتاب خاص، باللغات الأصلية التي ألقيت فيها.

د – إصدار وقائع الندوات الداخلية التي تنظمها الأكاديمية خلال أيام دراسية خاصة بموضوعات تهم اختصاصات لجانها المختلفة.

ينبغي أن يشار في هذا المضمار إلى أن هذه الندوات الداخلية يشارك فيها أساتذة جامعيون وخبراء من غير المنتسبين إلى الأكاديمية إلى جانب أعضائها المتخصصين في موضوعات الندوات. وقد بلغ عدد الخبراء خمسة وعشرين خبيرا مغربيا.

هـ – نشر تحقيقات بعض أمهات كتب التراث العربي والاسلامي في العلوم والآداب.

وقد بلغ عدد مجموع منشورات الأكاديمية في المجالات المشار إليها حتى تاريخه أربعين عنوانا.

لقد توالت رعاية جلالة الملك لنشاط أكاديميتنا منذ تأسيسها، تقديرا منه أعزه الله لأعضائها وتشجيعا لهم على القيام بالمهمات العلمية الجليلة الموكولة اليهم. وأبى جلالته إلا أن يوسم بيديه الكريمتين أعضاء أكاديمية المملكة المغربية بوسام الأكاديمية في حفل استقبال رسمي خصهم به جلالته مساء يوم الجمعة **10** صفر عام **1403** الموافق **20** نونبر سنة **1982** بالقصر الملكي العامر في الرباط.

لعل كثيرا مما أردت استعادة رصده في التقرير هو حصيلة جهود أعضاء هذه الأكاديمية الصامتة، المتئدة، المتجمعة على مدى عشر سنوات متتاليات :

وقد كانت هذه الجهود تبدو وقت بذلها جهودا بسيطة غير كافية، غير مقنعة، وفي حاجة إلى كثير من المراجعة والتنقيح والتهذيب والنقد.

ولعلها اليوم، على قلّتها، قد اكتسبت من التاريخ جلالا.

وإذ تجمّع بعضها إلى بعض، فإنها تبدو في عين الحقيقة جهودا ذات شأن يصعب على الراصد رصدها في سهولة ويسر، أو اختيار ما هو مهم لتأخيره عما هو أهم.

لذا فإنّي أقترح على حضراتكم وقف الرصّد عند هذا الحد الموحي، أملاً في غد واعد بالدّراسات والبحوث والاتصالات، غزير بالعطاء والتجديد والابداعات، وتلك رغبة مؤسسها وراعيها الأمين التي أودعها أمانة بين أيديكم يوم أعلن عنها في خطابه التأسيسي السّامي في هذا المنطق الكريم حين خاطبكم حفظه الله في هذه القاعدة بالذات بقوله :

«وها نحن اليوم في هذه الجلسة الافتتاحية، نبارك انطلاق أعمال أكاديمية المملكة المغربية، مؤملين من وراء هذه الأعمال الاسهامَ المنشودَ في تألُّق الفكر وازدهارِ العرفان، والتقاربَ بين الأفراد والشعوب، والتفاهمَ المفضيَّ إلى سعادة الانسان».

فليكن لنا حضراتِ الأعضاء الزملاء المحترمين هذا النُّطق السّامي هدفاً دائماً نسعى إليه، ومثلاً أعلى نرمي إلى تحقيقه، وسبيلاً قويماً إلى كلِّ إبداع مقصودٍ، وتجديد مرغوب فيه، في غَمْرة الاحتفالِ بنهاية عَقْدٍ زاهر، والاقبال على عَقدٍ واعدٍ من عقود عُمْرِها السَّعيد بحول الله.

وقائع الاحتفال بالذكرى العاشرة
لتأسيس أكاديمية المملكة المغربية

خطاب العضو الزميل السيد عبد الهادي بوطالب
باسم الأعضاء المقيمين

عندما فكر جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده في تأسيس أكاديمية من هذا النوع الذي أصبح قائم الذات كان ولاشك يهدف إلى أن يقيم صرْحاً ينطلق منه، أي من صعيد الفكر إلى صعيد أشمل وأوسع، وهي فكرة داعبت دائما النوايا الخيّرة والإرادات الحسنة عبر العالم أجمع.

وإن هذه المؤسسة قد أصبحت الآن حقيقة واقعة امتد عمرها عشر سنوات، ابتدأت مكونة من ستين عضوا بين مشاركين ومقيمين ومراسلين لترتفع إلى سبعين عضواًوتشكل صورة مصغرة للعالم الكبير، الذي يحلم به رواد الخير، العالم الواحد.

أنتحدث عن المدينة الفاضلة، ونحن نتحدث عن هذه الأكاديمية ؟ أم عن بيت الحكمة ؟ أم عن زاوية إخوان الصفا الذين تحابّوا في الله وافترقوا عليه واجتمعوا عليه ؟ كل ذلك يصحّ ونحن نتحدث عن هذه الأكاديمية في تكوينها وتأسيسها. ثلة من المفكرين والعلماء والرواد والطلائع تأتي لتختصر قارات العالم الخمس في قارة واحدة أو في مجمع صغير في مظهره، كبير في مخبره، تختلف أصولها العرقية واقتناعاتها الدينية وتبعياتها القارية والقومية، وتخصصاتها الثقافية، ولكن يجمعها الايمان بتمجيد الفكر وتعزيز المعرفة وحرصها على البحث العلمي وسعيها لخدمة الانسان كي يتغلب أولاً على ذاته ثم على تحدياته. مجتمع صغير لتحقيق عالمية الفكر، ما أروع الجو الذي يعيشه من ينتمي إليه، وما أسعد من يحظي بالانتماء إليه ! في عشر سنوات، كم هي قليلة في عمر الزمن، استطاعت هذه الأكاديمية أن تنجز الحصيلة الرائعة التي تحدث عنها الزميل أمين السر الدائم في تقريره منذ قليل. وستكون حصيلتها أروع في ما تبقى من هذا القرن، وهو لا يملك إلا تسعة أنفاس لن يلبث أن يلفظها.

إذا كان نجاحها هو ما أنجزته من اصدارات علمية وفكرية وما حققته من لقاءات وما صدر عن ندواتها من استنتاجات، فإنها أيضاً نجحت في ميدان آخر لا يقل أهمية عن هذا الميدان العلمي الرفيع، ألا وهو أن كل واحد منّا قد اكتسب لنفسه رأسمالاً كبيرا من الصداقات المتبادلة والأخوة التي نشعر بها بعضنا تجاه بعض، بصرف النظر عن انتماءاتنا المختلفة التي أشرت إليها.

ولقد أظهر المغرب بحكمة جلالة الملك وبما قصده من تأسيس هذه الأكاديمية من أهداف، أقول، أظهر جلالة الملك والمغرب الصورة الحقة للمغرب، بلد انفتاح وتعايش وتقارب وتسامح، بلد يؤمن بالتعددية في جميع مجالاتها، وليس فقط التعددية السياسية أو التعددية المجتمعية أو التعددية الحزبية، ولكن أيضاً التعددية الليبرالية الاقتصادية وأخيراً تعددية فصائل المعرفة، وتعددية التخصصات ومناهج الفكر التي تنقرض معها الحدود وترتفع بها الحواجز وحدود الفكر، إذ ما كانت ولن تكون حدوداً مفرقة وإنما هي حدود جامعة.

وكذلك نلتقي جميعاً داخل أسرة واحدة، أسرة أكاديمية المملكة المغربية، بما تحمله كلمة الأسرة من تضامن وتآخ وتعاطف، والأكثر من ذلك، من اقتسام مسؤولية الحدب على استمرار الأسرة ودوامها.

انتظمت هذه الجمعية في عقد واحد، كانت بدايته ستين جوهرة أضاءت بأنوار العرفان لا في سماء المغرب وحده، ولكن في كل مكان. وتلاقت أنوارها بما تحقق معه إشعاع الأكاديمية على ما حولها داخل المملكة التي احتضنتها وخارج حدودها.

أمتدت يد الأقدار فانتزعت من العقد جواهر استأثرت بها العناية الإلهية التي شاءت أن يكون وجودنا فوق هذه الأرض عبوراً سريعاً. ﴿وَمَا جَعَلْنا لبَشَرٍ من قَبْلِكَ الخُلْد، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُون﴾. ومع ذلك فإن العقد لم يندثر وظل متماسكاً رصعته جواهر أخرى فازدان بها وحفل. وليرثن هذا الأمر ماجدٌ عن ماجد وكابر عن كابر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

إن الأعضاء المقيمين يعملون في نَفَس ممدود وجهد متواصل بين الدورتين لا تنقطع لهم حركة داخل اللجان، ولا يخلو أسبوع من اجتماع، ولا يخلو شهر من نشاط ثقافي متميز وإنني باسمهم جميعاً أعرب عن سعادتنا نحن المقيمين بوجود الأعضاء المشاركين وبوجود المراسلين داخل هذه الأسرة، وأعرب كذلك عن عزمنا وإصرارنا

على مواصلة العمل داخل هذه الأسرة المتماسكة بما من شأنه أن يرفع قيمة هذه الأكاديمية ويزيدها اشعاعاً وامتداداً.

لا يصوغ إلا أن أذكر الذكر الجميل وأترحم على أمين السر الدائم الأول المرحوم أحمد الطيب بنهيمة. وكم يسعدني أن يكون على رأس أمانة السر اليوم زميل عزيز هو السيد عبد اللطيف بربيش الذي يقود سفينة هذه الأكاديمية بكفاءة وأمانة تميزانه من بين صفاته العديدة.

أريد في مسك الختام أن أشيد باسم الأعضاء المقيمين وأنوه بما يغدقه جلالة الملك نصره الله وأيده على الأكاديمية عامة من عطف أبوي، وما يشمل به أعضاءها من رعاية متواصلة، ولا غرو في ذلك فإن الملك الحسن الثاني يتميز فيما يتميز به من صفات ومؤهلات، أنه العالم والمثقف الكبير الذي يعرف الفضل لأهل الفضل، جزاه الله خيراً وأعانه وأثابه.

تحية دمشق

شاكر الفحام
الرئيس بالإنابة لمجمع اللغة العربية
بدمشق

جئت من دمشق، أسعى بين يدي نور المحبة والأخوة والأمل الناضر. وفي القلب خفقة الفرح والبهجة، وعلى الفم ابتسامة القادم المشوق يمنّي النفس بلقاء أساتذته وأصدقائه في احتفال أسعدني كل السعادة أن أكون من شهوده، نحتفي جميعا بمناسبة غالية عزيزة علينا هي ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس منارة من منارات العلم الهاديات جمعت بين الأصالة والمعاصرة، بين الهوية والتقدم، بين التراث والتفتح على الثقافات العالمية، وأخذت تشق طريقها صعداً. وكانت سنواتها العشر الماضيات من عمرها المديد حافلة بالجني الطيب والعطاء الخصب، تبشر بمستقبلها الواعد الزاهر المشرق.

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

وإذا كان من المسلمات أن نهوض الأمم وتقدمها ذو صلة وثيقة بما لها من مؤسسات علمية وفكرية وثقافية فإن إقامة أكاديمية المملكة المغربية لهو دعامة راسخة من دعامات نهضة الأمة، وأحد الرموز الشاخصة في رقيها وتقدمها. واحتفال اليوم فيه التعبير الصادق عما تضطلع به الأكاديمية في مسيرتنا الحضارية وفيه الدعوة إلى حفز المؤسسات العلمية والفكرية والثقافية العربية لبذل المزيد من العمل والتعاون الوثيق في سبيل تحقيق التقدم والازدهار.

وشاء الطالع السعيد أن يعقد الاحتفال في ربيع الأزمة، في شهر أيار الذي قال أبو العلاء المعري في صفته :

تشتاق أيار نفوس الورى وانما الشوق إلى ورده

وأن تكون إقامته في ربيع الأمكنة والبقاع، في مدينة فاس العظيمة، ذات الأصالة والعراقة، والمجد الباذخ، والتاريخ الثليد الماجد، والمآثر الكبرى في مسيرة الحضارة الاسلامية. ويكفي أن نذكر واسطة عقدها جامع القرويين تنويهاً وإشادة بما نهضت به وما قدمته.

سألني صديق منذ زمن : أزرت فاس ؟ فقلت : لا، فقال : إن فاس ودمشق متشابهتان كل التشابه. تمشي في فاس فتظن أنك في دمشق، وتتنقل في دمشق فتتمثل لك فاس.

وطالما قرأت عن فاس، وطالما تطلعت إلى رؤيتها. ها أناذا بحمد الله في فاس المدينة الخالدة على الدهر. وقد بدا لي أن فاس ودمشق توأمان حقا وصدقا.

اذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

اني أحمل إليكم التحيات والتهنئات. تحيتي وتهنئتي وتحيات اخوانكم وزملائكم في مجمع اللغة العربية بدمشق وتهنئاتهم بهذه المناسبة الكريمة السعيدة.

بل اني أحمل إليكم تحيات محبيكم في بلاد الشام، واذا قلت : تحيات محبيكم فإنما أعني تحيات أهل الشام جميعا، لأن كل من في الشام لكم محب ودود.

لابد لي قبل أن أختم تحيتي القصيرة هذه لجمعكم الكريم من أن أنوه بالأيادي السابغة لجلالة الملك الحسن الثاني الذي أمر بإنشاء الأكاديمية وو الاها بالرعاية والعناية والتوجيه حتى احتلت مكانتها العلمية والثقافية المرموقة. جزاه الله الجزاء الأوفى.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾. صدق الله العظيم.

تحية تونس

عز الدين باش شاوش
رئيس بيت الحكمة بتونس

إنه لشرف أثيل ومن دواعي الغبطة وأسباب السرور أن تتاح لي الفرصة لأتوجه إليكم جميعا حضرات الأساتذة الأجلاء أعضاء الأكاديمية، بتحية إكبار وتقدير، أنتم أهلها، وإلى سيادة البروفسور عبد اللطيف بربيش، أمين السر الدائم للأكاديمية، بعبارات الشكر كله والامتنان على تفضله بدعوتي للمشاركة في هذا المهرجان العلمي المتميز والاحتفال الثقافي البهيج، ويطيب لي ــ أصالة عن نفسي وباسم أشقائكم ومحبيكم بتونس في «بيت الحكمة»، المؤسسة المجمعية التونسية ــ أن أتقدم إلى أكاديمية المملكة المغربية بخالص التهنئة والتبريك بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيسها مبرزا دورها الريادي الأمثل ضمن مغربنا العربي واشعاعها على الساحة العربية والاسلامية والدولية.

إن هذا العيد لعيدنا جميعا في ربوع اتحاد المغرب العربي ويحق علينا بل يحق لنا أن نعتز بالعمل النافع الجليل الذي قامت به، ولا تزال بعون الله وتوفيق منه، أكاديميتنا مما يشهد لها بالسبق في دروب المعرفة وبالإسهام المحمود في اثراء البحث العلمي وكذلك بالتفوق في مجالات الثقافة عربيا وعالميا.

ويصوغ لي، وأنتم على ما أنتم عليه من فضل وعلم، ونحن نجتمع بفاس في عاصمة التراث العلمي والذاكرة التاريخية يصوغ لي أن أبرز ما يتميز به مجمعكم الموقر بهدي من مؤسسه راعي أكاديمية المملكة المغربية الملك الراشد المنصور، صاحب الجلالة الحسن الثاني أعزه الله.

فالأكاديمية من منطلق رصيدها العلمي والثقافي والأخلاقي تتجه بخطى ثابتة نحو تحقيق المقاصد المنشودة مغربيا ومغاربيا، وهي كذلك من منطلق تسامحها وانفتاحها وتمسكها بروح التعددية في جميع المجالات تناضل، موفقة، من أجل الحوار المسؤول بين الثقافات واقرار التعاون على مستوى العالم بين رجالات الفكر والأدب والفنون.

والله أسأل أن يجدد للأكاديمية العقود بعد هذا العقد المجيد وأن يعيد عليها الأعياد بعد هذا العيد فيطيل مسيرتها ويسدد خطاها حتى المستقبل البعيد كما أنعم عليها بالأمس القريب بالنفع والرشاد. إنه سميع مستجيب للعباد.

تحية الشعر لأكاديمية المملكة المغربية بمناسبة عيدها العاشر

ناصر الدين الأسد
عضو الأكاديمية

كم تغنّيتُ بالعيونِ الحوالـمْ ... وتَرشّفْتُ فيكِ شهدَ المَبَاسِمْ
وهَصرتُ القدودَ باناً رطيباً ... وقطفتُ الثّمارَ وهْيَ بَرَاعـمْ
وتنسمتُ منْ حنَاياكِ رَوْحاً ... وحَناناً... ياطِيْبَ تلك النسائمْ
وتقلّبتُ في نعيـمِكِ رَدْحـاً ... كان للقلب مَرْتعاً ومَـواسمْ
يا بلادا دماؤها من دمـائي ... للبطولاتِ في ثَراكِ ملاحـمْ
من هنا امتدّ للفتوحات أُفْقٌ ... عَبْقَرِيُّ السَّنا عفيفُ المغانـمْ
فيكِ أهلي وفيكِ موروثُ قومي ... وعلى أرضِكِ العُلى والمكـارمْ
والمُروأتُ في رِحابِكِ خُلْـقٌ ... حَفِظَتْهُ الأجيالُ من كلِّ راغمْ
تزدهي بالأصيلِ من كلّ فنٍّ ... وتَشِيدُ الحياةَ : حُلْماً لحالـمْ
وتُعيـد التاريـخَ مجداً تليـداً ... وَرَّثَتْـهُ لنـا الجدودُ الأكارمْ
والحضاراتُ في ربوعِكِ شتّى ... جعلتْ منكِ مُلتقىً للعوالِـمْ
قد تساميتِ بين شرقٍ وغربٍ ... وتوسَّطْتِ بين شتّى العواصمْ
فَتَعَلّى على أديـمِكِ صَرْحٌ ... لا يُدانيهِ في العُلُوِّ مُزاحـمْ
هـي أكّاديميّـة جَمَعَتْنـا ... بين عُرْبٍ وصفْوةٍ من أعاجمْ[1]
بلُغَاتٍ تباعدتْ منـذُ كانتْ ... قرَّبتْ بينها جهودُ التراجـمْ[2]

---

(1) تضمّ أكادمية المملكة المغربية عددا من غير العرب من الفرنسيين والانجليز والأميركان والسوفييت وسواهم.

(2) تُقدَّم الدراسات وتدور المناقشات باحدى اللغات الأربع : العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية ويتولى التراجم (المترجمون) الفوريون نقل ما يقدم ويدور بإحدى هذه اللغات إلى اللغات الأخرى.

مثّلتْ رُوحَ عصرِنا في التلاقي — وحِوارِ الشعوبِ سَخائمْ
ليت ما تبتغيه يصبحُ حقًّا — ويسودُ السلامُ ثَبْتَ القوائمْ
غير أنّ الحياةَ لُغْزٌ خفيٌّ — ما لنا حِيلةٌ بحلِّ الطلاسمْ
ليس يُجْدِي معَ القويّ حِوارٌ — من ضعيفٍ قد مَزَّقتْهُ الشراذِمْ
سيظلُّ الصِّراعُ حتماً علينا — في ظِلالِ القَنا ولَمعِ الصوارمْ
ويظلُّ القويُّ صاحبَ حقٍّ — ويظلُّ الضعيفُ نِضْوَ هزائمْ

* * *

بِنْتُ عَشْرٍ، شبَّتْ عنِ الطّوق لمّا — حَضنَتْها بالحبِّ غُرُّ المكارمْ
مِن مَليكٍ أدامه الله ذُخْراً — لأمانيّ قومِهِ في العظائمْ
هاشميّ الخِصالِ يُرْجَى ليومٍ — لا يُجلّيه غيرُ أشبالِ هاشمْ
ورجالٍ من حوله كالدَّراريْ — قد أناروا على الطريق المعالمْ
من فقيهٍ، وشاعر، وخطيب، — وطبيب، ومن أديبٍ وعالمْ
وسياسيٍّ حنّكَتْهُ الليالي — واداريّ مخلصِ الجُهْدِ حازمْ
يتبارَوْنَ بينهمْ بحديث — هو ممّا تَهْوٰى النفوسُ الكرائمْ
عن صراعِ الأحداثِ يوماً فيوماً — واختلافِ الأفكارِ وهي توائمْ(3)
كلّما اشتدَّ بينهمْ من نِقاشٍ — عاد ـــ في صفوِهِ ـــ هَدِيلَ حمائمْ

* * *

قد قَضٰى مِنْهُمُ رَعيلٌ كريمٌ — ليس ممّا قضى به الله عاصمْ
رَحِمَ الله رُوحَهمْ في الأعالي — في جِنانِ الخلودِ... يومَ المَراحمْ
وَرَّثوكمْ أمانةَ الفِكرِ كيما — تحملوا عِبْئَها.. وتُرْسُوا الدعائمْ
تتوالى الأجيالُ منكمْ تِباعاً — كُلُّ جيلٍ يَرْنُو لِمَنْ هُوَ قادمْ
بُورِكَ الجُهْدُ جُهْدُكمْ حيثُ كنتمْ — وَسُقِينا بكمْ غُيوثَ الغَمائمْ
وهنيئاً لِصَرْحِنا عيدُه العا — شِرُ.. تُزْهٰى به النُّهٰى والعزائمْ

---

(3) تُختار موضوعات كل دورة من دورات الأكاديمية من بين الموضوعات الأساسية للمغرب أو للعالم، وموضوع ندوة هذه الدورة مثلا عن الأحداث في أوروبا الشرقية وآثارها الاقتصادية. والشطر الثاني من البيت يشير إلى تقارب الأفكار وتشابهها فكأنها توائم، على اختلافها في الظاهر.

الاستقبال الملكي لأكاديمية المملكة المغربية بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيسها

على هامش الدورة الأولى لسنة 1990 وبمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس أكاديمية المملكة المغربية تفضل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني راعي الأكاديمية فخص السادة الاعضاء باستقبال رسمي في رحاب القصر الملكي العامر بالرباط يوم الأربعاء 14 شوال 1410 هـ الموافق 9 ماي 1990 م. وهكذا تقدم للسلام على الجناب المولوي الشريف الأعضاء المقيمون والمشاركون والمراسلون والأطر العليا للأكاديمية والخبراء وفريق الترجمة الفورية، كما تفضل سيدنا المنصور بالله فسلم الميدالية الأكاديمية للأعضاء الذين لم يسبق لهم أن تشرفوا بتسلمها من يد سيدنا الهمام. وإثر ذلك أقام جلالة الملك حفل استقبال على شرف الأكاديمية ألقى خلاله الأستاذ عبد اللطيف بربيش أمين السر الدائم الكلمة التالية أمام الحضرة السنية :

نعم سيدي أعزك الله

يمثل بين يدي جلالتكم في هذا اليوم المجيد، جمع من العلماء أعضاء أكاديمية مملكتكم في الذكرى العاشرة للتأسيس.

وكم يسعدني يا مولاي أن يتقدموا إلى مقامكم العالي بالله بتهنئتهم لكم بهذه المناسبة، وانهم ليعتزون أيّما اعتزاز بأن كانوا ممن اصطفتهم المشيئة الالاهية، ليسهموا، إلى جانبكم، بما آتاهم الله من علم وحكمة وتخصص، في إعلاء شأن البنيان الذي أسستموه على تقوى من الله واحسان، والحفاظ على تأصيل القيم المعنوية والخلقية للانسان.

لقد عقدت الأكاديمية، يا مولاي، منذ تأسيسها إلى اليوم، تسع عشرة دورة، ثلاث منها خارج التراب الوطني ، في كل من باريز ومدريد، بإذن سام من جلالتكم، وامتّد اشعاعها إلى العديد من المؤسسات العلمية في البلاد الصديقة والشقيقة، وهي

الآن عضو كامل-العضوية في الاتحاد الدولي للأكاديميات، وتتبادل مطبوعاتها، على حداثة عهدها، مع حوالي ثمانمائة مؤسسة علمية، من بينها مائة مؤسسة أجنبية جامعية أو أكاديمية. وقد بلغ عدد المطبوعات في التخصصات المختلفة أربعين عنوانا، يسعدني أن أتقدم بنماذج هدية سنية إلى سيدنا المنصور بالله.

مولاي صاحب الجلالة

لقد اعتاد أعضاء الأكاديمية والعلماء الخبراء المدعوون أن يشهدوا جلالتكم تتفضلون بتعيين موضوعات ندواتها، وهو تقليد حميد، واسهام ملكي سام في ترشيد خطواتها، تنويرا للرأي العام الوطني والدولي بحصيلة نتائج أعمالها. ولم يعد يخاف على أحد ممن يتتبع نشاطها مما أصبحت تتميز به من وحدة في أسلوب صياغة موضوعاتها، ودقة في تحديد أبعادها العلمية والأخلاقية النبيلة، حتى لتكاد تسبق بعض الأحداث العالمية أو تواكب تطوراتها.

وإن أحسن مثال على ذلك، موضوع الندوة الحالية عن «الانسان الاقتصادي وضرورته للاقلاع الاقتصادي لأوروبا الشرقية». فقد تناول هذا الموضوع، بمنتهى الدقة والعناية، فريق من العلماء والخبراء الاقتصاديين والمتخصصين في شؤونه. نذكر من بينهم، على الخصوص، شخصيات علمية، من الاتحاد السوفياتي، وهنغاريا، وبولونيا، ممن يعيشون في خضم الأحداث والتحولات التي تشهدها المنطقة المعنية، وكم كانت البحوث والدراسات المقدمة غنية، وكم كانت المناقشات الصريحة التي تلتها عميقة ومفيدة للباحثين، والدارسين، والمناقشين على حد سواء. وستنشر وقائع هذه الندوة في كتاب خاص في الأيام المقبلة بحول الله.

مولاي صاحب الجلالة

لقد سعد أعضاء الأكاديمية، ومعهم الخبراء، والصحافة الوطنية والدولية، التي تابعت أشغال ندوتنا الحالية، بالخطاب المولوي السامي إلى الأمة الذي أعلنتم فيه عن تأسيس المجلس الاستشاري لحقوق الانسان، فكان، لعباراته الحكيمة ومعانيه الانسانية، صداها المحمود، ووقعها الطيب، النافذ إلى أعماق الأفئدة والقلوب، دفاعا منكم، وأنتم رجل القانون، عن دولة القانون، في بلد، أحببتم أن تبقى أسس بنيانه، بعون الله ولطفه، قائمة على أساس من القانون.

وإني، يا مولاي، أصالة عن نفسي، ونيابة عن أعضاء الأكاديمية والعلماء من ضيوفها، لأحيي قيام هذه المؤسسة الحسنية الجديدة، من مؤسسات عهدكم السعيد.

حفظكم الله يامولاي، وأبقاكم للعلم موئلا وحاميا، وأمدكم بالعون والتأييد من عنده، وأعانكم على تحقيق ما تأملون وتخططون لشعبكم، من أهداف وغايات، وحفظكم في سمو ولي العهد الأمجد الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المولى الرشيد، والسلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله وبركاته.

وقائع الجلسة العمومية الرسمية
بمناسبة استقبال الأعضاء المشاركين الجدد

استقبال السيد كامل حسن المقهور

عضواً مشاركاً

بأكاديمية المملكة المغربية

الدورة الأولى لسنة 1990

فاس

12 شوال 1410 / 7 ماي 1990

خطاب الترحيب بالعضو المشارك الجديد

كامل حسن المقهور

باسم الله الرحمٰن الرحيم

العضو الجديد السيد كامل حسن المقهور عالم مشارك من الجماهيرية الليبية يزدان بوجوده بيننا عقد هذه الأكاديمية، أقول مشارك لأنه، رجل قانون، ورجل سياسة، وأديب قصصي، جمع الثقافة من مختلف أطرافها، يقدم إلى هذه الأكاديمية بعد إحرازه من جامعة القاهرة على الإجازة في الحقوق سنة 1967، ثم بعد أن استكمل دراسته العليا القانونية بكليتي باريز وكرنوبل الفرنسيتين. زاول المحاماة لمدة غير قصيرة، وكانت له أيضاً جولات في عالم الدبلوماسية : سفيراً لبلاده بفرنسا وبالصين الشعبية، ثم في عالم الاقتصاد عندما كان وزيراً للنفط، وأخيراً أميناً مساعداً للاتحاد العربي الأفريقي، ثم نجده في السياسة الخارجية أميناً للجنة الشعبية للمكتب الشعبي للاتصال الخارجي سنة 1986، ونجده يساهم في بلاده في إعداد قوانين ومشاريع الدساتير سواء على صعيد الجماهيرية الليبية، أو دساتير الوحدة أو الاتحاد على مستوى الأقطار العربية، نلقاه ممثلاً لبلاده في مؤتمرات عدم الانحياز، ورئيساً للمجلس الوزاري لمنظمة الدول المصدرة للنفط، وعضواً بمجلس إدارة البنوك. هذا إلى إنتاجه الأدبي والقانوني، وقد كنت أشرت في طليعة هذا الحديث إلى أن من بين هذا الانتاج تأليفه في القصة : له مؤلفان في القصة القصيرة، عنوان أحدهما «أربع عشرة قصة من مدينتي»، والآخر «الأمس المشنوق».

أيها الزميل العزيز، أرحب بك بيننا، وأومن بأنك ستضيف عطاءات جديدة من وحي ثقافتك وفكرك المبدع إلى إنتاجات هذه الأكاديمية، فالزملاء كلهم ينضمون إلي للترحيب بك، أهلاً وسهلاً بك في أكاديمية المملكة المغربية.

خطاب العضو المشارك الجديد

كامل حسن المقهور

أود في بداية حديثي إليكم أن أتوجه بالشكر والامتنان لصاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، على تشريفي أن أكون زميلا لكم، وأنتم على ما أنتم عليه من فضل وعلم، واسمحوا لي أن أوجه إليكم تحية بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس أكاديميتكم وتحية لفاس، مدينة العلم والتاريخ التي تحتضن جمعكم هذا.

ويقتضي الأمر أن أقدم إليكم نفسي، وهو أمر شاق ومحرج، ﴿وَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمَ﴾.

وان كان لي أن أقول بعضا من القول، فهو تمسكي بأن أصنف نفسي داخل إطار «القانون»، عاملا في سبيل أن يكون قوله الفصلَ بين الناس، فرادي أو جماعات، وعلمي بهذا القانون على تواضعه، أن شاءت إرادة والدي أن ادرسَه، في وقت كانت الدراسةُ مغلقة على «الأهالي»، اولئك الذين لم يكن لهم من شأن العلم إلا شذرات لا تغني، ولربما كان الاتجاه في النصف الأول من هذا القرن هو الاتجاه إلى دراسة العمليات، طبٍّ على وجه الخصوص، وهندسةٍ إن امكن، وربما كان السبيل إلى تلقي حرفةٍ مساعدةٍ للوافدين من وراء البحر.

فاتني أن أقول أَن منَّ الله عليَّ قبلَ أن أسعى إلى القاهرة حفظَ كتابه، وهو ماهو، أدب رفيع وشرع، وتأمل في خلق الله. وبين دفتيه حجمٌ من القصص المعجزِ يلهم من رغب ادبا أو توسم في نفسه رواية أو رأى قدرة على تتبع الشرع والقانون.

يمكنني القول دون حرج ان قاهرة المعز في الأربعينات وصحنَ الجامع الأزهر على وجه الخصوص، شكلت بالنسبة لي على الأقل اطارا ملائما لتحديد الطريق، وهناك تلقيت علما من أساتذة يتخذون من أعمدة الجامع مثاباتٍ للحوار والنقاش وتعليم

المريدين به، وكنت حينئذ مريدا، وفي جامعة القاهرة لقنني عظامُ المشرعين والفقهاء أصول القانون، وزودتني صحف ومكتبات القاهرة ودورياتُها بفيض من الأدب، وكان يومها طه حسين والعقاد وتيمور، وغيرهم يزرعون، وكنا نحصد حتى قبل أن يفيض الزرعُ،

ومن هنا أيها الزملاء كانت وجهتي أقولها دون تزكية الكتابةَ في الأدب، وممارسة القانون وكانت بدايتي من أواخر الخمسينات حتى اليوم، محاولاتٍ في مجال القصة والنقد، وتفرغاً ربما كان كاملا للقانون، ورحم الله الأستاذ عبد العزيز فهمي حيث كان يرى للقانون ادبا.

من يومها حاولت أن أشارك في التشريع والتطبيق، وربما منعني كثير من الحياء من أساتذةٍ عن التأليف عدا مذكراتٍ كان يملي تأليفَها ما عنيت به من مشاركة في التشريع أو ولوج في التطبيق.

علاقتي بالقانون الدولي أتت عن طريق ممارسة وظائفَ دبلوماسية، ودفاع في منازعات دولية، وعلاقتي بوطني العربي في مجال القانون أتت عن طريق المساهمة في دساتير واتفاقات للوحدة في المشرق والمغرب.

وعلاقتي بالقصة تأخذني لماما وإن لم يأخذني منها القانون على سبيل الدوام.

وإن كانت القصةُ هي الرفيقُ الدائم، فإن الرفيقَ الذي كان يمكنه أن يكون الصديقَ العابرَ طغى على رفيق العمر.

وإذ لم يكن في تخطيطي أن أكون بينكم، ولربما قادني القانون دُون أن اعي لأن أحظى بهذا الشرف، فإنني آمل في قبولي بينكم أيضا قصاصا، ولي مجموعتان من القصص.

ربما هناك أشياء أخرى لا تهم، ولكن المهم وقد حظيت بهذا الشرف، أن التزم بأن أعمل ما يمكنني من أن احقق ما توسمه جلالةُ الملك راعي الأكاديمية من تعييني عضوا فيها، وان أكون عند حسن ظنه، وأن يكون في مكنتي أن أحقق بعضا من أهدافها النبيلة.

تحية تقدير واحترام لراعي الأكاديمية، وتحية ومحبة لفاس، و تحية لكم.

استقبال السيد إدواردو دي أرانطيس أي أوليفيرا

عضواً مشاركاً

بأكاديمية المملكة المغربية

الدورة الأولى لسنة 1990

فاس

16 شوال 1410 / 7 ماي 1990

خطاب الترحيب بالعضو المشارك الجديد

دي أرانطيس إي أوليفيرا

نحن مع العضو السيد أوليفيرا في صميم مجال السياسة والعلوم والبحث العلمي لما تميز به العضو الذي يلتحق بنا وهو قادم من البرتغال من جولات في هذه الميادين، ميزته وألفتت إليه الأنظار، أريد أن أذكر هنا اسم الزميل السيد إدواردوا رمانودي أرانطيس أو أوليفيرا، الذي كم يسعدنا أن يكون من بين أعضاء هذه الأكاديمية لما تمثله بلاده من إشعاع امتد عبر القرون، ولما له من مؤهلات شخصية هي التي جعلت بالاضافة إلى العامل الأول جلالة الملك يرعاه ويلتفت إليه بتعيينه عضواً مشاركاً في هذه الأكاديمية.

كان يمازج طول حياته بين السياسة والعلم، كاتب الدولة في البحث العلمي، وكاتب الدولة في العلم والتكنولوجيا، وعضو بأكاديمية البحرية البرتغالية ؛ وبأكاديمية العلوم بلشبونة، وعضو بجمعية الرياضيات والمكانيكا، وعضو شرفي بجمعية الجغرافيا بالعاصمة البرتغالية، أكاديمي مجرَّب بحكم هذه الممارسات وهاته المسؤوليات التي تحملها. وهو بالاضافة إلى ذلك أستاذ بالمعهد العالي الثقني بالجامعة التقنية للشبونة، ومؤلف عدة دراسات وبحوث في مكانيكا البيئة وطرائق العناصر الكاملة. وله نشاط دائب داخل المنظمات العلمية البرتغالية والدولية، ومن ذلك مشاركته في بعض برامج اليونيسكو.

الأستاذ إدواردو رومانو دي أرانطيس أو أوليفيرا، مرحباً بك في أكاديمية المملكة المغربية بين زملائك الذين سيصبحون أصدقاء لك، وسيسعدون بوجودك، وهم لا يشكون في أن وجودك بينهم رافد جديد لهذه الأكاديمية.

استقبال السيد عبد المجيد مزيان

عضواً مشاركاً

بأكاديمية المملكة المغربية

الدورة الأولى لسنة 1990

فاس

12 شوال 1410 / 7 ماي 1990

خطاب الترحيب بالعضو المشارك الجديد

عبد المجيد مزيان

نحن في صميم الكفاح الوطني داخل المغرب العربي وبالذات في الثلاثينات أو في نهاية العشرينات عندما ازداد بتلمسان مولود اسمه عبد المجيد مزيان، ثم تدرج هذا المولود على مدرج تثبيت الهوية الجزائرية واستعادتها أو إعادة الذات للجزائر، فكان أول ما باشر دراسته أن حذق اللغة العربية وكرع ينابيع الدين الحنيف. خاصة بفضل الأساتذة الجزائريين الذين كانوا يحرصون على أن تبقى العربية مزدهرة في الجزائر والاسلام مستقرا بها.

هكذا حظي هذا المولود بالتتلمذ على أعضاء جمعية العلماء وكان يقرأ خاصة على الشيخ البشير الابراهيمي التفسير والسيرة وعلم الحديث، لكن تلمسان على مقربة من المغرب، وبين المغرب وتلمسان حدود وهمية، فالحدود الفكرية بين البلدين كانت دائما صلة وصل. ومن هنا فقد التحق السيد عبد المجيد مزيان بمعهد الدراسات العليا بالرباط ليحصل سنة **1949** على دبلوم الترجمة ودبلوم اللغة العربية. و لم يأت الاستقلال (وقد كان المغرب أسبق من الجزائر في هذا الباب) إلا ونجد السيد عبد المجيد مزيان يلتحق بجامعة محمد الخامس حيث يدرس الفلسفة المعاصرة على زميل موجود بيننا هنا يعتبره أستاذه، الزميل محمد عزيز الحبابي، في كرسي الفلسفة. ثم ليصبح بعد ذلك مساعدا للدكتور الحبابي في نفس الجامعة، وليدرس منهاجية العلوم الانسانية بالمدرسة العليا للأساتذة بالرباط. وكان إشعاعه الثقافي وسيلة فقط وظفها لنضاله السياسي. هكذا نجده يدخل إلى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، لكن يبقى مع ذلك وفيا لخلفياته العلمية وثقافته الانسانية. ويشاء القدر أن يتولى عن جدارة منصب وزير الثقافة سنة **1982** فيترك بصماته على هذه الوزارة بما حققه وأنجزه من مسارح ثقافية وعشرات المراكز

ودور الثقافة، ومدرسة عليا للفنون الجميلة، ومدرسة لتكوين الكتبيين، ومتاحف عديدة ومنها متحف الجهاد. كان يمازج أو يزاوج بين العلم وبين الثقافة وبين النضال السياسي.

هنيئا لك أيها الأخ العزيز بالتفات جلالة الملك إليك وإضافتك إلى هذه الصفوة المختارة من رجال الثقافة والفكر العالميين.

إنك قد أثريت المكتبة العربية الاسلامية ببحوثك ومن بينها ما كتبته عن الفكر الاسلامي الذي واكبت تطوره وأزلت عنه الشبهات فيما كتبت وما دبّجت، ومن ذلكم كتابكم الكبير عن الفكر الاقتصادي لابن خلدون الذي استهدفتم منه غرضين اثنين : أولهما إبراز دور الفكر الاسلامي من خلال خلق تطورات اقتصادية تعكس مثالية أخلاقية الاسلام، وثانيهما توضيح طبيعة المجتمع الاسلامي طبقا لحقيقته التاريخية بما حفل به من ابتكارات اقتصادية، هذه الجهود مشكورة هي التي جعلت جلالة الملك يلتفت إليكم لتنضموا إلى هذه الأسرة الكريمة، فمرحبا بكم، وباسم جميع الزملاء أهنئكم.

خطاب العضو المشارك الجديد

عبد المجيد مزيان

إني أمام هذا المجمع الحكيم الموقر لأحس بالعجز عن الوفاء بحق التكريم، ولا أستطيع تبليغ عبارات الشكر والاعتراف بالجميل إلى الشخصيات العلمية والثقافية التي منحتني عطفها ورضاها فرشحتني إلى هذه العضوية المشرفة. ومهما كانت كلمات امتناني، فإنها ستبقى دون حقيقة الشعور العميق الذي يغمرني وأنا أنتسب إلى هذا البيت المجيد من بيوت الحكمة العالمية. إنها لحظوة وسعادة حقا أن يكرّم المرء من صفوة الصفوة في أمته، وأن تزكى أعماله بشهادة خيار الناس الذين هم العلماء. وإن تمام السعادة في هذه المناسبة هو تحصيل الموافقة والرضا من الملك العالم وحامي العلم والعلماء وراعي هذا المجمع النير بسمو عطفه صاحب الجلالة الحسن الثاني أطال الله عمره وأدام عزه وفضائله.

ولا عجب أن يكون المغرب، تحت هذه الرعاية، سباقا إلى الانجازات الثقافية والعلمية، لأن المغرب يعد العمق الحضاري والطاقة البشرية الكبرى لكل الغرب الاسلامي الكبير، وهو أحسن وارث ومحافظ على الابداعات الماضية التي بلغت قمم المدنية الانسانية في الأندلس وفي عواصم هذا الشمال الافريقي الفياضة بالعطاءات.

وإنها لمناسبة يمن وابتهاج أن تعقد هذه الدورة في فاس عاصمة العلم والحضارة، بلد أول جامعة في العالم. ومحج الطلاب من مختلف البقاع، وملجأ الدارسين والمدرسين في شتى المعارف الاسلامية والانسانية، وملتقى الحضارات المشرقة، ففاس دار الأدب والفقه والتصوف والتاريخ والسياسة كما أنها انصهار حضاري بين افريقيا والمشرق والأندلس.

من أجل هذا الغنى الحضاري يشعُر المنتسب إلى هذه الأكاديمية الملكية في هذا المغرب الحي المتجدد بأنه سينال ثروة علمية وروحية أكبر وأغنى من أي نباهة وتكريم تقليدي في المجامع التي أنشئت من أجل تخليد المعارف والأسماء. لم تكن حديقة أفلاطون الالهي، ولا بيت الحكمة المامونية، ولا صفة أهل الذوق في فلورنسا ولا كراسي الخالدين في باريس بأحسن جمعاً لرجال العلم والحكمة من هذه المنشأة الثقافية الكبرى التي كرّمت أهل بيتها من المفكرين المسلمين وكرّمت نفسها بايواء رجال الفكر العالمي.

وانه لحصاد المجد الثقافي من جميع أطرافه، فهو مجد المعرفة العلمية الثابتة، ومجد الحكمة والأخلاق، ومجد إنارة المعارف الصحيحة بالروحيات ومنابع الوحي، وإنه اللقاء بين الشرق والغرب وبين الموروث والجديد وبين العقلانية والمحبة الانسانية.

واني لخجول مع كل ما أعرفه وأشاهده من خصال علمية وأخلاقية في هذه الأكاديمية المجيدة، وفيها الكثير من أساتذتي وشيوخي المبجلين، أن أقدم اهتماماتي الثقافية لأنها الشيء الضئيل الذي لا ترضى به الا عيون الرضا المغضة عن كل العيوب. واذا كان لي يسير عمل فهو من فضل شيوخي، أما نقائصي التي لا تحصى فهي من صميم نفسي، والتوفيق كله من الله.

إنه لمن الصدفة أن تكون هذه الدورة التي أتقدم فيها بين أيديكم السمحاء مخصصة للانسان الاقتصادي، وقد كان أهم اهتماماتي هو البحث في الفكر الاقتصادي الاسلامي انطلاقا من نظريات ابن خلدون، وفي اعتقادي أن فكر صاحب «المقدمة» يعد خير مدخل لفهم الحضارة الاسلامية في تطوراتها وتفاعلها مع الحضارات الأخرى وكان عليّ، سواء في أطروحتي هذه أو في مختلف المقالات الباحثة في الحضارة الاسلامية أن أثبت عالميتها وحيويتها في الماضي والحاضر وأن أبرز خصائصها في البناءات الاقتصادية المتشبعة بالأخلاق ونضالاتها من أجل عدالة عالمية منبثقة من صميم الفكر الاسلامي الأصيل.

وإذا كان الاسلام الناشيء ثورة للشعوب المستضعفة على الأمبرياليات التقليدية من فرعونيات وقيصريات وكسرويات فإنه في عالم المعارف الروحية يكرّم الأميين ذوي الثقافات المنسية ويلقنهم الحكمة ويزيل الفوارق بين الأمي والكتابي ويعلم الناس المساواة، فالبناء الاقتصادي المنبثق من هذه النظرة الأخلاقية لن يكون امبرياليا ولا استغلاليا إذا نظرنا إليه من جانب الكيان الاجتماعي، ولن يكون قوانين مادية آلية إذا نظرنا إليه من جانب المعارف العلمية، بل الاقتصاد بحسب هذه الفلسفة يعد علما وعملا انسانيا، وهدفه هو تحقيق العدل والكرامة الشاملة لجميع البشر.

غير أن الحضارة الاسلامية لم تكن وفاء كليا لمبادىء الاسلام شأنها في ذلك شأن العقائد والنظم التي سبقتها. وكان لحتميات التعايش والتصارع الداخلي والخارجي قوانين وجدليات خاصة للتطور السياسي والاجتماعي، وكان للبناء الاقتصادي دوره الأساسي في هذا التطور القوي الحركية الواسع التأثر والتأثير. ولم تكن التعديلات الفكرية والمراجعات الأخلاقية بأكثر فعالية من متطلبات الصراع من أجل الوجود والبقاء.

يقول القرآن الكريم : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. ولكن المجتمعات الاسلامية ورثت بطريقة سريعة ولا شعورية أنظمة الفرس والروم وجاهليات العرب في إبخاس المدينة للأرياف، والحضر للبدو، والتجارة للصناعة والزراعة، والقوة العسكرية للحياة المدنية، والحضارة المتغلبة للأمم المغلوبة المستضعفة واذا كان بعض فلاسفة التاريخ يرون بأن الجدليات الخلدونية لا يمكن أن تفسر التطور الاجتماعي إلا من خلال نموذج حضاري واحد ومحدود في الزمان والمكان، وهو زمن الدول المتتابعة في الغرب الاسلامي ما بين القرن العاشر والرابع عشر الميلادي، كما يرون مظاهر الصراع بين البدو والحضر في محدودية تنفي عن الخلدونية نظرتها الشمولية فإننا نرى بأن واقع «الجدلية الخلدونية» على حد تعبيرهم أوسع من ذلك، اذ يمكن الاستعانة به على فهم تناقضات المجتمعات الاسلامية في الصراع بين القوات السياسية المحافظة وحركات الشعوب المتطلعة إلى الحضارة، فليس الأمر محصوراً في الغرب الاسلامي ولا في نزعات البدو مع الحضر كما يظن.

وإننا لنرى أن قراءة التاريخ الاسلامي من جديد واثراء الخلدونية بمكتسبات العلوم الانسانية المعاصرة والانتباه إلى قوانين التطور السياسي العالمي لمما يلقي أضواء جديدة على مكانة الحضارة الاسلامية في بناء العالم المعاصر، ويبرز امكانات الفكر الاسلامي فلسفيا وأخلاقيا في تغيير الانحرافات.

لقد رأت بعض المذاهب المادية في سرعة تصنيفاتها أن الأنظمة الاقتصادية لما قبل رأس المال العالمي كانت كلها شبه بدائية ومحدودة التأثير في واجهة التاريخ. ومن أجل هذا صنّف الاقتصاد الاسلامي عندهم تحت عنوان الانتاج الأسيوي، بطريقة مختصرة، وذلك جهلا أو تجاهلا بأعماقه وحيويته وأبعاده العالمية. والواقع أن اقتصاد العالم الاسلامي كان سباقا، رغم نقائصه إلى تنويع الانتاج، وتوسيع التبادل عبر القارات الثلاث، وضبط قواعد حرية سيلان الأموال بضاعة ونقدا وقيما، وانتقال الرجال، واعطاء التجارة البحرية مكانتها الممتازة. وكان علينا أن نبرز أهمية الصراع على الطرق

البحرية للتجارة العالمية بين الحضارتين الاسلامية والغربية المسيحية، اذ أن تجارة البحر هي الاقتصاد الأكبر بينما طرق القوافل وتبادلاتها يعد نشاطا تقليديا شبه ثانوي محدود التقنيات والاختراع.

ولقد ظلت الحضارة الاسلامية حضارة بحرية تسيطر على المتوسط والمحيط الهندي طوال أربعة قرون، وقد نبه ابن خلدون إلى أنه «لم تسبح في هذا المتوسط للأمم النصرانية لوحة من الألواح» قبل القرن الثالث عشر الذي هو عصر بداية تراجع المسلمين عن الأندلس وكانت الافاقة الثانية إلى أهمية البحر ابتداء من القرن السادس عشر، وخصوصا بعد الاعتداءات على شواطيء افريقيا، فجاءت حروب الثلاثمائة سنة التي يسميها المسلمون جهادا في البحر ويسميها الغربيون قرصنة وكان انهيار الحضارة الاسلامية ابتداء من البحر كما هو معلوم، كما أن انتصار قوى الاستعمار العالمي كانت من البحر.

لكن هذا الانهيار الحضاري، كما اثبتناه في سلسلة من المقالات، لم يكن سببه محصورا في الصراع مع الحضارة الغربية التي لم تفتر هجوماتها منذ الحروب الصليبية إلى عهد الاستعمار، بل كانت الصراعات والتناقضات الداخلية من أهم أسباب الضعف والتشتيت في المجتمعات الاسلامية.

ولا يمكن لأي باحث اجتماعي أن يتناسى ذلك الانشطار العميق الذي عاشته ولازالت تعيشه الحضارة الاسلامية في التباين بين الفئات الحاكمة والجماعات، وبين المثالية الحية المحركة والواقع المحافظ القصير النفس.

لقد بث فقهاء المسلمين ومؤرخوهم في ضمير الشعوب مثالية العصر الراشدي، فيما سميناه بالسنة والسلفية المثالية وتيقنت الجماعات من انحراف كل الأنظمة اللاحقة لهذا العصر، وقد وقع في جل فترات التاريخ الاسلامي باستثناء عهود التجديد والمبادرات القصيرة الأمد، تناقض مؤلم بين الجماعات التي تحلم بالعدالة الراشدية في المساواة والعدل وبين القوى الاقتصادية والسياسية المحافظة التي تسخر الدولة لتوسيع الامتيازات، وتنحرف بالنظرة الاستراتيجية من النضال الحضاري إلى الدفاع الضيق عن الحكم المسخر لها، ومن ارضاء الشعوب وتجنيدها للبناء المدني الحي إلى قمعها وتحويل حيويتها إلى اليأس والتّقنية. وكثيرا ما أدى هذا التناقض إلى ظهور جماعات ما بعد الدولة، تنحصر حياتها وانجازاتها الاقتصادية والسياسية في الدفاع عن الذات وحفظ القدر الضروري من البناءات الاجتماعية تقليدا وتقليصا وانغلاقا. وكثيرا ما ظن بعض الاثنولوجيين أن هذه المجموعات المحلية نماذج للمجتمعات الراكدة لم تتغير منذ عشرات

القرون، وأصبحوا يقيسون بعض الحاضر ببعض الماضي تسرعا منهم في تطبيق المناهج الاثنوغرافية على المجتمعات الاسلامية وخصوصا منها مجتمعات الأرياف في المغرب العربي التي رأوا فيها شبه بدائية لما قبل الحياة المدنية.

وكان علينا أن نرد على هذه الملابسات وأن نثبت من خلال المنهج الاجتماعي الواسع وانطلاقا من مجتمع المغرب العربي أن أقل جماعة محلية وأنأى فئة عن الحواضر المعروفة إنما تحمل في صميم ذهنيتها وفي تكوينها المختصر إحساسا بالتاريخ وتطلعا قويا إلى الحضارة ووراثات ثقافية لها بعض الصفات العالمية مهما كان تقليصها. والسبب في ذلك راجع إلى أن مثقفي الجماعات، وان قلت بضاعتهم دائمي الاطلاع على التاريخ والعقيدة، ومواظبين على تبليغ معارفهم من خلال المؤسسات الشعبية الدائمة الوجود مثل المساجد والربّط والزوايا، ومن خلال تنقل الأشخاص عبر البلاد الاسلامية الواسعة حجا وتجارة وطلبا للعلم ونشرا للعقيدة وتصحيحها.

وقد أثبتنا في بعض ما كتبناه عن المدينة الاسلامية الجديدة أن ظاهرة الانسلاخ عن العقيدة الدينية قد اجتازت أشواطا بعيدة في العالم المسيحي، ولكن العالم الاسلامي رغم تأثره طواعية بالقوانين الوضعية، ورغم التفككات التي أحدثها فيه الاستعمار قهرا وعداء، لا يزال متشبثا بالاسلام قانوناً وروحا، ولا يزال يلم بسلفيته المثالية وحضارته التي تحركها الأخلاق.

وهذا واقع اجتماعي وسياسي ينظر إليه سواء من الداخل أو الخارج باعتبارات وتقييمات مختلفة، كثيرا ما تطغى عليها الذاتيات. من أجل هذا أصبح مفروضا على المفكرين المسلمين أن يوضحوا لأنفسهم وللعالم حقيقتهم الحضارية. إن الدراسات الفلسفية والاجتماعية لا يصغى إليها إلا في الدوائر العلمية المحدودة، ولكن الصور المشوهة عن الفكر الاسلامي لا زالت تسري في الرأي العام العالمي وفي كثير من الأحيان حتى في بعض الدوائر الثقافية.

من أجل هذا أصبح من المفروض علينا أن نضيف إلى الدراسات الفلسفية والاجتماعية عن الحضارة الاسلامية مجهودات لتوضيح المفاهيم وتفسير المبهمات. وان اهتماماتنا الثقافية اليوم ترجع إلى إبراز امكانات الفكر الاسلامي في تجديده لذاته وفي عطاءاته الإنسانية.

وإذا كانت الفلسفة الاجتماعية هي الجانب الأكثر حيوية في الفكر الاسلامي فلابد من تعميقها وإثرائها واعطائها الصلاحية العالمية.

ولا يكفي ما قرره الفقهاء من أصول وقوانين، إذ أن الأنظمة السياسية اعتبرتها مجرد مبادىء كثيرا ما يتحيل على تطبيقها. وإنه لمن قبيل السذاجة أن نقول للناس بأن الإسلام مبادىء مثالية وأن المسلمين في حياتهم وأنظمتهم مخالفون للإسلام. بل إن النضالات الفكرية والتطبيقية من أجل تجسيد المبادىء في مؤسسات واضحة البناء هي مسئولية كل المسلمين من علماء وشعوب وسياسيين.

والفلسفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا يمكن الدعوة إليها نظريا أي دون توضيح عملي يقتضي تغييرات أساسية في المجتمعات.

فإذا قلنا مثلا بأن الفكر الاسلامي يحارب الترف ويقرنه دائما بالفساد الاجتماعي والنفسي، فليظهر في تحليلنا لهذه الآفة أنها تجسيد للطبقية والكراهية بين الفئات، وأنها حبس للحاجيات الضرورية عن البعض من أجل المتعة المضرة والممقوتة عند البعض الآخر، كما أن التبذير فساد وإتلاف للأموال التي بها قيام حياة الناس، وكل استهلاك زائد عن الحاجة تبذير.

وما يمكن أن يقال عن الربا والاحتكار وحجز الأموال والغرر والمخاطر واستغلال الإنسان للإنسان يقتضي توضيحات مستقاة من العلوم الاقتصادية والاجتماعية تتعدى تقنيات المحظور واللامحظور، كما يقتضي نقدا وتحليلا في مختلف البنيات الموجودة داخل العالم الاسلامي وخارجه.

وإذا كان الفكر الاسلامي ينادي بأن الانسان خليفة الله في الأرض يبث الاصلاح فيها زراعة وصناعة وتجارة وحماية للبيئة ومنعا من أن يعاث فيها فسادا، فلابد أن ينبثق عن هذه النظرة الروحية توضيحات علمية وتطبيقية تبين لنا كيف يعوض الاستهلاك بالانتفاع العفيف، والابخاس بالعدل، والتبذير بالادخار، وذلك من أجل البناء الحضاري لا من أجل الترف الهدام.

ولا يمكن تعميم هذه النظرة الاجتماعية والاقتصادية المشبعة بالأخلاق الا بتحديدات جديدة لفلسفة حقوق الشعوب التي تعد من أهم مبادىء الفكر الاسلامي. فالحق في اكتساب وسائل الحضارة علما وتنظيما، ورفع الضغوط على المجتمعات المستضعفة، وان أصبح أهم مواضيع جهاد السلام بالنسبة لكثير من المفكرين المسلمين، لم تعمق فيه المفاهيم والخطط العلمية وبقي محتاجا إلى كثير من الاجتهاد والتوضيح.

ونعد أخيرا من أهم محاور الفكر الاسلامي التي تنتظر منا مجهود الدرس والتدقيق

حقوق الانسان في اكتساب المعرفة والعلوم والتقنيات فالتعاليم الروحية كلها تكريم للبشر دون استثناء، وترشيح لاستقبال بلاغ الحق الذي هو المعرفة المحررة. وكما أن حجر الأموال ووسائل الحضارة المادية بيد طبقة أو فئة يعد جناية على الانسانية، فإن كتمان العلوم والتقنيات وتسخيرها لنيل القوة والسيطرة والاستعلاء يعد إجراما وهتكا لحقوق الانسان والشعوب، إذ لا فضل لكتابي على أمي، ولا علم الا ما ينفع الناس دون تمييز بين الأمم والأجناس.

هذه بعض اهتماماتنا الثقافية الحاضرة، أشرنا إليها حسبما يقتضيه عرف التقديم الأولي، وان هذه الاهتمامات فيما نعلم همّ مشترك دعت إليه ضرورة الأوضاع الاجتماعية في بلادنا الاسلامية المعروفة بحيوية شعوبها، وسرعة تطورها، وإننا لا نعتبر هذا المجهود وقفا على المفكر المسلم، بل عمل إنساني يتطلب مشاركة المفكرين من جميع التخصصات، كما يتطلب الاجتهاد في حوار الثقافات وتبادلها.

ومن حسن الحظ أن الأغلبية من أعضاء هذا المجمع الكريم الذين ينيرون عقولنا بمعارفهم وتجاربهم منذ عشرات السنين يمارسون بكل حكمة هذا الحوار وهذا التعاون العالمي، وأملنا زيادة الانتفاع من معارف وحكمة هؤلاء العلماء الأجلاء الذين لا يزالون سباقين إلى كل إثراء ثقافي وتعاطف إنساني.



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

N° 7 Décembre 1990

Dépôt Légal : 29/1982

Académie du Royaume du Maroc
Avenue Al-Imam Malik B.P. 1380
Rabat (Royaume du Maroc)



Rabat 21 Rue Descartes - Les Orangers
Tel : 76-60-99 Fax : 76-77-05

MEMBRES
DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

MEMBRES CORRESPONDANTS

PUBLICATIONS DE L'ACADÉMIE

I. - Collection «Sessions»

- Al Qods : Histoire et civilisation», mars 1981.
- «Les crises spirituelles et intellectuelles dans le monde contemporain», novembre 1981.
- «Eau, nutrition et démographie», 1re partie, avril 1982.
- «Eau, nutrition et démographie», 2e partie, novembre 1982.
- «Potentialités économiques et souveraineté diplomatique». avril 1983.
- «De la déontologie de la conquête de l'espace», mars 1984.
- «Le droit des peuples à disposer d'eux-même», octobre 1984.
- «De la conciliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques» avril 1985.
- «Un trait d'union entre l'orient et l'occident : Al-Ghazzali et Ibn Maimoun» novembre 1985.
- «La piraterie au regard du droit des gens», avril 1986.
- «Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine», novembre 1986.
- «Mesures à décider et à mettre en œuvre en cas d'accident nucléaire», juin 1987.
- «Pénurie au sud, incertitude au Nord : constat et remèdes», avril 1988.
- «Catastrophes naturelles et péril acridien», novembre 1988.
- «Université, Recherche et Developpement», Juin 1989.
- «Des similitudes indisponsables entre pays voulant fonder des ensembles regionnaux», décembre 1989.

II. - Collection «Patrimoine»

- «Al-Dhail wa Al-Takmilah», d'Ibn Abd Al-Malik Al-Marrakushi, Vol. VIII, 2 tomes (biographies maroco-andalouses), édition critique par M. Bencharifa, 1984.
- «Al-Ma' wa ma warada fi chorbihi mine al-adab», (apologétique de l'eau), de M. Choukry Al Aloussi, édition critique de M. Bahjat Al-Athari, Rabat, mars 1985.
- «Maâlamat Al-Malhoune», 1re et 2ème parties du 1er volume, Mohamed Fasi, avril 1986, avril 1987.
- «Diwane Ibnou Fourkoune». recueil de poèmes, présenté et commenté par Mohamed Bencharifa, mai 1987.

- «Aïn Al Hayat Fi Ilm Istinbât Al Miyah» : (Source de la vie en science hydrogéologique) de A. Damnhouri, Présentation et Edition critique de Mohamed Bahjat Al-Athari. 1989.
- «Maâlamat Al-Malhoune» 3ème volume (Chefs d'œuvre d'Al-Malhoune), Mohamed FASI, 1990.

III. - Collection «Lexiques»

- «Lexique arabe-Berbère», Mohamed Chafik, 1990

IV. – Collection «Séminaires»

- «Falsafat Attachriâ Al Islami» 1er séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles 1987.
- «Actes des séances solennelles consacrées à la réception des nouveaux membres». (1980-1986). décembre 1987.
- «Conférences de l'Académie» (1983-1987). 1988.
- «Caractères arabes et technologie», 1re Séminaire de la commission de la langue arabe, février 1988.
- «Droit canonique, fiqh et législation», 2ème séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles 1987.
- «Fondements des relations internationales en Islam», 3ème séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles 1989.
- «Droits de l'homme en Islam» 3ème Séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles, 1990

IV. - Revue «Academia»

- «Academia, Revue de l'Académie, numéro inaugural relatant la cérémonie de l'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi Hassan II, le 21 avril 1980, la réception des académiciens, ainsi que les discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.
- «Academia», (Revue de l'Académie) N° 1, février 1984.
- «Academia», N° 2, Février 1985.
- «Academia», N° 3, novembre 1986.
- «Academia», N° 4, novembre 1987.
- «Academia», N° 5, décembre 1988;
- «Academia», N° 6, décembre 1988.

SOMMAIRE

1ère partie : Textes

2ème partie : Abstracts

1ère Partie

TEXTES

TRADE AND FINANCES : THE BITTER TRUTH

Anatoly GROMYKO

The situation in the seventies (70s) eighties (80s) appreciably changed the tone of the discussions as to the possibility of an effective solution to one of the most poignant global problems of today - that of underdevelopment of most Third World countries. The abrupt drop in the rates of growth throughout that world, which has particularly hit the least developed region, Africa, has brought with it more than just new disappointments. The 80s have simply continued the chain of years with negative growth rates for Africa. According to ECA estimates, the living standards of an Africa, say, in 1988 averaged just about 80 per cent of the 1980 level. Many scholars involved in international studies and public figures seem to be coming to the conclusion that for an overwhelming majority of the newly-free states the former dynamic rates of economic growth are no longer realistic.

Now, optimism or pessimism as regards the future of the Third World is, not least of all, a matter of faith. This faith has the unfortunate habit of getting entrenched in the minds of many people. Anyway, it must be admitted that the grave consequences of the protracted crisis throughout the Third World do not only threaten the economic security of many countries, mostly those on the middle and bottom floors of global development, but are also fraught with a serious destabilization of the whole spectrum of international relations. This was openly stated at the 13th special session of the UN, dealing with the critical position of Africa. All this makes it imperative to come up with new major international initiatives aimed at reinforcing the crative efforts of those countries themselves with truly tangible economic assistance on the basis of a balance of mutual interests and recognition of the dire needs of the underdeveloped countries. Without such initiatives the Third World as a system is condemned to stagnation and even a total collapse.

International Trade : A Change in the Pattern of Interdependence

The deterioration of the financial and economic situation in the developing countries since the early (80s) was governed by a series of facts. To a major extent, it was a consequence of a near-sighted and unbalanced economic policy, an impossible burden on non-productive expenses and a low and sometimes even negative payoff

from inverstments whose priority had been quite questionable from the very start. In my opinion, however, the entry by the developing countries into a period of crisis was also due to the considerable deterioration of their positions in world trade, the dramatic growth of their foreign debt and the substantial decline in the net inflow of external resources.

The most important among these three main factors, at least for the countries with a hypertrophied agricultural raw material structure of the economy, is probably their reduced participation in the new structure of the international division of labour, forming under the impact of the scientific and technological revolution.

It is beyond any doubt now that the decline in the rates of growth in big zones of the Third World was a reflection not only of the protracted drop in the market demand for their main export items after the cyclic global crisis of 1980-1982, but of some more fundamental changes, too. The latter have strongly affected the former pattern of assymetric interdependence of the two sub-systems of the world capitalist economy.

Specialization in raw materials has proved to be a shaky foundation. The predicted strength of the oil cartel has not lived up to its initial promise, not to mention the other associations of the raw materials producing countries. In contrast to this, the economy of the industrialized centres has demonstrated high adaptability to oil shocks. The trend which first appeared in the West and Japan still in the (70s) towards the material-saving policy, broad use of waste-free technologies and synthetic materials and the implementation of effective measures to strengthen their own raw-material and food base have helped substantially reduce the materials-output and the energy-output ratio in production there and have strongly contributed to the reduction of the global demand for traditonal mineral raw materials and fuel. All this has precipitated a chain of unprecedented drops of world prices on these commodities. I would describe this situation as a price slide. It has seriously affected the export of raw materials and food from Tropical countries, notably as a result of the reduced elasticity of the growth of their consumption against the growth of incomes in advanced countries.

All this has led to the following results. The unfavourable trends for the Third World have exacerbated, accompanied by the steady growth of prices on industrial goods (largely under the impact of transnational corporations). Most developing countries have been drained of their foreign-exchange reserves, with all the ensuing dire consequences for their internal accumulation and growth. This negative situation has been noticeably compounded by the narrowing - mostly due to large-scale automation in industrialized countries - of the sphere of application in the Third World of the relative advantages associated with lower labour costs there. This has also substantially undermined (together with other factors) the competitiveness of goods produced on the periphery of the world economy.

Nor should one ignore the following circumstance. The structural overhaul in the industrialized centres is accompanied by the build-up of protectionism there,

which is extremely painful for the Third World. According to the IMF/IBRD estimates, the developing countries' losses from all forms of protectionism are approximately twice higher than the entire inflow of funds through the official aid channels.

Finally, the developing countries's trade is negatively affected by the wide range of fluctuation of the key Western currencies. The paradox about the current stage of internationalization of the world economy consists in the fact that it is largely «working» to undermine the former pattern of interdependence of the two sub-systems (central and peripheral) of the world capitalist economy. In effect, vast Third World areas are being pushed off the thoroughfare of glabal development.

Of course, this negative trend manifests itself in different ways within the framework of economic differentiations which takes on different forms in the Third World. One cannot rule out the possibility of a closer involvement of particular sectors of the modern economy of developing countries in the current transformation of the international division of labour. Nevertheless, even in those Third World countries which are close to joining the group of the new industrialized nations, this adaptation is strongly complicated by the widening structural gap in the dynamics of the development of prodcuctive forces in the centres of the world economy (transition to a post-industrial economy) and on its periphery.

In the most vulnerable position of all are the countries at the foot of the peripheral pyramid. A graphic example here is Africa south of the Sahara which has suffered great damage from the catastrophic destabilisation of its trade with the surrounding world. For example, as a result of the worsening trade terms it annually lost in 1979/1981 to 1985/1987 about 3 billion dollars (excluding Nigeria). To this one must add the damage from the toughening in the (80s) of the tariff barriers and quotas with respect to the export of cotton, textiles, sugar, tobacco, vegetables, fish, cocoa and semi-finished mineral products.

The economic and social conditions in the African countries, even as in other underdeveloped parts of the Third World, are based on the conservalively traditional or hybrid forms of production. All this is naturally fraught with a real danger of a further constriction of the scope of participation of these countries in international trade and economic exchanges and, consequently, with a reduction of their development potential. Suffice it to cite the following indicative fact : the share of Africa (without South Africa) in world export dropped between 1980 and 1987 from 4.7 to 2.1 percent, while per capita import plummeted to the mark of twenty years ago.

The growing inability of a vast number of developing countries to adapt adequately to the fundamental changes in the structure of the international division of labour objectively raises the necessity of regulation of the mechanists of their steuctural adaptation to the prevailing trends in the world economy.

Today, this regulation is effected mostly through the so-called programs of structural rehabilitation of the econmy, worked out under the auspices of the

International Monetary Fund and the World Bank. These programs are essentially based on the canons of neo-liberal doctrines which aim to stimulate the export potential of the former colonies and semi-colonies. The stake is made on the priority use of price regulators : devaluations, rectification of interest rates and relaxation of customs regulations. There are also plans for raising the purchasing prices and reducing the subsidies to farms. Without going into the details of this issue, let us just note that in the long run the largely justified use of the market instruments of trade regulation cannot by itself, without more effective levers of foreign economic policy, appreciably influence for any long period the dynamics of structural changes in the world economy, which almost or totally does not depend on developing countries. By the way, judging by expert forecasts, Africa can hardly count on a restoration of the market situation of the (70s).

That is why it is so important to find new points of contact between the properly understood interests of all countries for laying a long-term foundation for a cooperation programme that would envisage better regard for the needs of the developing countries in the expansion of their trade. In my opinion, bold steps must be undertaken within the framework of this approach for a global revision in GATT of the entire spectrum of protectionist policies, including the abolition of quotas and restrictions on exports from African and other underveloped Third World countries (after the pattern of the Lome conventions), to give them a preferential status in the export of not only raw materials but also industrial goods.

Parallel with this, it is advisable to speed up the formalization of the procedure associated with the introduction of the UNCTAD Common Commodity Stock and to find new opportunities for replenishing the funds of compensational financing of currency losses from force-majeure drops in the market demand on the raw materials of the least developed and other newly-free countries worst affected by the crisis.

Equally important would be the development by joint efforts of special program to promote the diversification of the export structure of the countries with a marked single-commodity pattern and the adoption of comprehensive measures facilitating the adaptation of their trade to the prevailing trends in the world economy.

Finally, any such regulation must include stimulation of the mechanisms of trade, economic cooperation through the expansion of joint forms of business and cooperation in the sphere of private entreprise, including joint crediting of projects enhancing the mutual trade potential.

In other words, a well-considered, flexible approach to trade relations as the prime mover of development meets the interests of not only the Third World but also of the whole international community. Destabilization of the export of such vast regions as Africa undermines their solvency and seriously obstructs the marketing of goods from the industrialized part of the world, which holds back the development and rehabilitation of the world economy.

Debts and External Financing : A Sphere for Joint Efforts ?

The debt crisis has affected an overwhelming majority of developing countries. Sixty of them have already lost their solvency, and many others are balancing on the brink of financial abyss. The hardest hit has been Africa on which I will try to dwell in greater detail here. Africa's debt at the moment stands at 230 billion dollars which is equivalent to 70 per cent of the aggregate GDP of the African states. In all probability, its servicing payments for 1989 will surpass 30 billion dollars. Even with the rescheduling of debts, these payments claim about a quarter of the African countries' export earnings. Even the vigorous economic growth in the Western industrialized countries, which has been a subject of special pride and smugness of their political leaders in recent years, has failed to ease the African continent's debt burden in any appreciable way - for this growth has by-passed Africa a long way.

Just like all other problems arousing the concern of the international community, the hopes for the future here are associated with joint efforts of all countries, both the debtors and the creditors. As the debt crisis has exacerbated, the isolationist trends which were wide-spread in Africa during the previous decade have started to subside. However, without additional benefits to this continent from the creditors the growing difficulties cannot be possibly overcome. All the major economic initiatives of Africa underscore the importance of constructive cooperation among all groups of countries in the settlement of the continent's pressing problems. It is also obbious that the measures which the West has undertaken so far are absolutely insufficient for the settlement of the debt problem. It is clear that the situation in Africa has got out of control and that urgent measures are needed for overcoming the crisis. The main factors of the debt crisis are beyond any control of the debtor nations. For the least developed countries the only reasonable solution is a substantial reduction of the debt burden.

Two and a half years ago, a special session of the UN General Assembly adopted an emergency program for economic redemption of Africa. One of the most crucial principles of that program was the mutuality of the commitments undertaken by Africa and the international community. Sharing the responsibility means sharing the debt burden, too.

No specialist could possibly insist today that Africa is not making adequate efforts in this direction. The former economic policy of many African debtor nations was often unrealistic and ineffective. Over the past three years, however, resolute measures have been taken in most countries of the region to restore budget discipline, hundreds of unprofitable enterprises in the public sector have been closed down, and a number of bureaucratic structures which hamstrung people's economic initiative and enterprise have been dismantled. Currency regulations are being eased everywhere. The rates of African currencies are being adjusted to their real buying capacity. This means their substantial devaluation and promises a rebound of export. The whole system of domestic prices which held back economic activities for decades is being revamped. Among other things, it denied food producers incentives for working for the domestic market and resulted in Africa's dependence on the import of grain, sugar and other essential foodstuffs.

So why then should all the latest reviews of the state of the African economy be so alarming ? The point is that experts realize what should be clear to any «man in the street» : the financial and economic stabilization which inevitably entails «lightening of the belts» has its clear and, in the African context, fairly narrow limits. The efforts at stabilization undertaken by Africa are definitely needed, but their positive effect will not manifest itself at once : a lag of three to five or even more years is inevitable. As for the socio-political costs of the present reforms, everyone can already feel them through his own wallet. Structural stabilization is painful even in industrialized countries. Why, one can easily remember the sharp problems which it created, say, in Britain at the turn of the (70s) and (80s). But given the extremely low level of incomes in African societies, their social structures may simply let go under such a severe trial and collapse under the burden of the problems born of stabilization. This explains the growing alarm of those who are concerned over the general «tiredness with stabilization». That is why a recent UN report emphasizes that the measures undertaken by the international community are insufficient and that unless additional efforts are made, the stabilization campaign will grind to a halt and the vicious circle of economic morass will remain as it is.

The African continent needs a long-term alternative capable of laying a sound foundation for economic progress. The initiatives of Africa are aimed at the development of exactly this kind of alternative strategy.

It looks like the West, too, is moving towards the recognition of the inevitability of solutions on easy terms. The latest examples to this effect are the package of French proposals and the «Brady Plan» of the Americans. Despite the absence of details, this plan has been welcomed by a wide range of debtor countries from Brazil to Zambia. I think that this plan is meant for the states which are comparatively mature economically, while most African states will gain very little as a result. What is important, though, is the principle built into the plan : for the first time it recognizes that it is not enough to broaden external financing and that it is also necessary to reduce the already accumulated debts.

This shift towards realism in the policy of the Western creditor nations may have a tangible effect precisely on Tropical Africa. In the first five years of the debt crisis, a majority of the West's initiatives were addressed to the principal debtor nations whose problems threaten the stability of the international credit system. New, over the past two years, the industrialized Western nations have at last turned to the restoration of the solvency of the poorest African states.

It may also be noted here that all the latest initiatives of the West are consonant with the debt plans of the OAU and the ECA. The initial reaction of the West to these plans was cool, but today many of their elements are discernable in the decisions of the IMF, IBRD and other creditors. It looks like the OAU and ECA proposals are really working for Africa as instrument of collective influence on the creditors in the direction of realistic decisions.

For its own part, aware that the debt problem is the main obstacle today in the way of Africa's economic progress, the Soviet Union has intensified the search for solutions to this extremely poignant problem. In principle, the Soviet Union accounts for a small share of the African countries' debts : no more than 15 per cent. A majority of the credit agreements between the USSR and African countries provide for the possibility of repayment of debts not in hard currency but by easier methods for the debtors ' e.g. with their traditional export commodities. In the first years of the debt crisis this nourished unjustified optimism regarding the prospects of servicing the debt to the Soviet Union : it was hoped that the crisis would leave the African states out.

The reality, however, proved much more complicated. The crisis forced the African states to adopt all conceivable measures to increase foreign-exchange earnings. Some of them transferred to other market the part of the export which had been formerly used to repay debts to the Soviet Union. Besides, the traditional Soviet approach to the debt problem was based on the premise that since the Soviet Union was not a member of the main institutions regulating capital flows (IMF, IBRD, Paris Club), it could not bear any responsibility for the development of crisis phenomena. Being a non-member of the leading international financial institutions, the Soviet Union could not influence the processes which substantially affected the course of its cooperation with African states. It is indicative that some of the debtor nations asked the USSR to take part in the discussion of their debty problems within the framework of the Paris Club in the hope that this would help work out more flexible and easier terms of re-scheduling. Who knows, had it happened in the early (80s), the debt problems of Africa might have been not so poignant.

Over the past four years of perestroika in the USSR the debt problem has been steadly climbing up the scale of priorities of Soviet foreign economic policy. In its fullest form the Soviet approach was laid down in Mikhail Gorbachev's address to the 43rd session of the UN general Assembly.

The Sovied debt initiative is meant first of all for the least developed African nations. The confrontational moods which were evident in the debt sphere in the first years of the crisis did not benefit anyone. That is why the Soviet debt initiative proceeds from the desirability of reinforcement of the positive elements which have already taken shape in the course of the work to resolve the debt problems of developing countries and to cement the already existing international organizational structures.

Many things in today's world are interrelated, and state's economic decisions cannot be easily separated from their foreign policy and vice versa. This adds special importance to the Soviet drive to bring the discussion of the debt problem to the UN which has mechanisms for reaching consensus. Consensus in necessary here, for separate decisions are leading to a deadlock. The remarkable thing about global problems, in my opinion, is that all too often there are no direct culprits on whom the blame for crises cans be laid. This is precisely how it is with debts, too : if the debt crisis has taught us anything at all, it is the futility of mutual accusations. This

is precisely how it is with debts, too : if the debt crisis has taught us anything at all, it is the futility of mutual accusations. This explains the failure of the West's former strategy of resolving the crisis, based on the unquestionable explanation of the crisis with «mistakes and irresponsibility of the debtors». It imposed too harsh terms on the debtors, and this doomed it to failure.

I believe that the solution to the labyrinthine debt problem is in the rapid establishment of a system of international economic security and a vigorous restructuring of international economic relations. I would suggest the following priority moves here : limitation or a lengthy deferral of payments under external debts depending on economic growth figures, democratization of international trade and removal of protectionist barriers, renunciation of additionnal interest at deferring debt payments, reduction of bank loan interest rates, stabilization of currency rates and insurance of government support for the market mechanisms for the settlement of the Third World's debts, including the establishment of a special international agency for buying off debts at a big discount. As for the least developed nations, a long moratorium of up to a hundred years must be set on the repayment of their debts, some of which should be written off completely.

Since the measures to coordinate the international efforts aimed at stabilizing the solvency of African states may take quite a few years, the Soviet Union could unilaterally reschedule Africa's debts to it in a very near future. It is imperative to write off the official debts of the 18 least developed countries of the continent where per capita incomes are lower than 500 dollars per annum. It is also necessary to look for more flexible mechanisms of debt rescheduling for more developed countries, too.

Such an initiative would demonstrate foresight and a realistic approach which are so necessary in resolving global problems.

The elements of such a realistic approach which are growing stronger in the West's debt strategy and the active policy of the debtor nations themselves which have come up with a number of comprehensive, well-considered proposals inspire the hope that the collective search for solutions in this field will produce the desired effect.

* * *

In conclusion, I would like to stress the point that the effect of external factors on the dynamics of relations with the Third World countries cannot be possibly reduced to purely quantitative parameters. The increasing internationalization of economic affairs, the growing interdependence of national economies and their gradual involvement in the international division of labour raise the dependence of their development on structural changes in the world economy. Looking back today, one can speak of certain shortcomings of the program for the establishment of a new international economic order, and of its eclecticism or unaccountable maximalism. At the same time, one cannot overlook the fact that on the whole it

set proper and historically attainable goals. I am referring to the assertion in international relations of democratic principles based on unquestionable respect for the sovereign rights of all nations, to the removal from trade practices of discrimination, artificial barriers and group egotism, and to collective responsibility and solidarity in the face of the pressing global problems which hold back world progress.

The continuation of the disarmament policy and the development of rational principles of international security, notably in the economic sphere, may lay a firm foundation for the effective settlement of the problems of underdevelopment.

ETHIQUE ET CANCER

Mohamed Allal SINACEUR

Ce n'est pas pour sacrifier au rituel du discours sur l'éthique médicale que je commence par dire tout l'embarras du moraliste devant le médecin d'aujourd'hui. L'éthique est un ensemble d'impératifs. Ses formules générales nous laissent, dans les cas qui nous requièrent, sur toute notre soif. La réflexion éthique, destinée à l'action, invite à peser les raisons de l'acte et risque de le suspendre. L'acte médical est en revanche urgent. Et seul le médecin sait, en principe, répondre à cette urgence.

Qui plus est, la biologie contemporaine approfondit le fossé entre la maigre sagesse morale et les progrès scientifiques et techniques qui ont si puissamment éclairé les problèmes du cancer. L'essor de la génétique élargit la place du savoir. Celui de l'informatique renforce la capacité de rassembler les données, d'en obtenir rapidement une vision cohérente. L'éfficacité de l'art des médecins s'accroît. Avec lui se profile la tentation, sinon de tirer ses décisions de l'ordinateur, du moins de les étayer, par un calcul de probabilités plus ou moins subjectif. Or, l'erreur la plus humaine est dans l'évaluation des risques. L'homme peut mésestimer le risque médical comme il a mésestimé les risques de guerre. Il mésestime surtout la spécificité des décisions touchant les valeurs.

A force de savoir mieux et plus efficacement, le médecin est tenté d'agir comme un ingénieur, un savant, dont le laboratoire combine le lit du malade et les statistiques. Aussi fait-il volontiers sienne la réflexion de Poincaré : On doit s'en rapporter à sa conscience ; toute intervention légale (ou morale) serait importune et un peu ridicule. En écho à cette sagesse du XIXème siècle, Bernard Davis voit en 1978 dans la découverte du vrai le seul fondement réaliste à l'éthique. Parler d'éthique d'un autre point de vue que celui de la science, parler de l'éthique du point de vue de l'éthique serait donc irréaliste.

Pour ma part, j'ai accepté le risque de m'exposer à ce genre de ridicule propre aux béotiens. Ridicule atténué cependant du fait que je m'adresse à tous les médecins qui sont en premier lieu des hommes. Ce que Valery appelait leur inhumanité intellectuelle et technique ne se concilie plus aussi heureusement qu'il le voulait avec leur tendre et compatissante humanité. Disons : elle ne se concilie plus avec elle automatiquement. Reconnaissant leurs pouvoirs quant à l'exercice de leurs nouveaux devoirs, ils prennent conscience qu'ils sont des hommes.

C'est pourquoi l'exigence éthique n'est pas seulement une problématique à la mode. Elle s'inscrit dans le fait qu'entre technique et éthique la relation est aussi nécessaire qu'entre le moyen et la fin. C'est donc la vision techniciste du monde qui suscite la montée de l'interrogation éthique. Les savoirs engendrent des pouvoirs et les pouvoirs appellent des besoins de régulation. La question éthique signifie d'abord l'exigence que l'homme ne soit jamais l'enjeu d'une manipulation. Le vieil impératif de Kant s'énoncerait ainsi : Agis de telle façon que les conséquences de ton action soient compatibles avec la dignité de l'homme dans le soin, dans la souffrance, dans la mort.

Mais la mise en œuvre de ce principe se heurte à un certain nombre de difficultés. Ce sont autant de défis sur la voie de l'actualisation de l'éthique. La première est que le médecin n'est plus une personne seule face à un malade isolé. Certes, le médecin vaut, à lui seul plusieurs hommes, comme disait Homère. Aujourd'hui cette image est vraie littéralement. Le médecin est une personne morale et une instance oú se croisent plusieurs spécialités : la chirurgie, la radiothérapie, la chimiothérapie, l'hormonothérapie, etc... Cette combinaison concorde quelquefois et parfois discorde. A maladie multifactorielle, médecine multiple et plurielle. A science hyper-spécialisée, dialogue entre experts, et quelque protocole de raison. L'éthique ne peut plus être une éthique de la responsabilité individuelle seule. Elle est désormais aussi une éthique de la communication. Elle permet d'énoncer un principe qui enrichit les exigences classiques héritées d'Hippocrate. Les médecins, dit celui-ci dans les PRECEPTES, qui voient ensemble un malade, ne se querelleront jamais ni ne se couvriront de ridicule. L'impératif correspondant à cette formule et au rôle institutionnel de la communication dans la société post-moderne s'énoncerait alors : Agis de telle façon que les conséquences de ton action soient compatibles avec les exigences légitimes de ceux qui sont engagés dans la même action que toi et puissent être acceptées par toutes les prersonnes concernées.

On voit qu'Hippocrate garde la mérite d'avoir vieilli bien moins vite que des lois toutes récentes. La difficultés sérieuse réside, non pas dans l'inadaptation de la tradition à la modernité mais dans l'indifférence aux valeurs, caractéristique aggravée par une médecine vouée aux micro-savoirs hyper-spécialisés. Oubli de l'homme. Il ne suffit pas alors de favoriser le concours des approches et la convergence des appréciations, de prôner le dialogue pour remédier à la bureaucratisation de la profession. De créer des réseaux de coopération. Il faut assumer ma responsabilité devant autrui qui me convoque à l'assumer et sans lequel l'idée même de responsabilité n'existe pas. Celle-ci signifie, aujourd'hui, face aux problèmes délicats des essais thérapeutiques, la vérité à dire ou à taire, de la souffrance, de la mort digne,... etc, qu'autrui ne peut être instrumentalisé, ne doit jamais être traité seulement comme un moyen, mais aussi comme une fin. Si bien que l'impératif propre à l'institution médicale consistera toujours, à la différence de la recherche pure, à rassembler toutes les exigences en une seule, celle de considérer le malade dans les circonstances les plus délicates et les plus pressantes, comme un sujet capable d'autonomie. Comme une source de valeurs. Renversant une formule des PRECEPTES, je dirais, là où il y a amour des hommes, il y a amour de l'art.

Je hasarde la formule : Agis de telle façon que ton action soit reconnue par toute la communauté médicale comme une maxime de vie de praticien et d'homme.

Enfin, le caractère complexe du cancer qui révèle dans le déclenchement de la maladie, la solidarité de mécanismes moléculaires et de causes de nature épidémiologique, lie la responsabilité médicale à la très vaste question de l'environnement. Comme nous le savons, l'auteur de l'Ancienne Médecine réfute Empédocle, philosophe qui se voulait médecin, en lui rappelant la filiation du médecin au cuisinier plutôt qu'au philosophe. Il explique que les hommes sont passés du régime violent et brutal des sauvages au régime tempéré. En tout, ils tempèrent les aliments plus forts par les plus faibles. Platon, évoquant la médecine dans ses dialogues, compare Hippocrate aux plus grands sculpteurs de son temps. Le médecin d'aujourd'hui devrait se le rappeler bien que la vie soit courte, l'art long, l'occasion fugace, l'expérience glissante, le jugement difficile. Car le médecin est un connaisseur en genre de vie et un avertisseur pour les genres défavorables à la santé, néfastes à l'homme. Seule la connaissance du milieu social, des coutumes alimentaires et du milieu physique peut donner à notre civilisation la perspicacité qui lui manque. Les faits médicaux, dont la connaissance est décisive pour l'espèce, sont souvent associés à des faits géographiques, sans parler des faits météorologiques liés, non pas à ce que pensait Hippocrate, mais à l'alerte de ce qu'on appelle le changement global. De là suit un autre impératif : Agis de telle façon que la nature de tes actes contribue à la sauvegarde du patrimoine génétique de l'humanité et de sa perpétuelle survie sur cette terre.

Le médecin, disait Bacon, peut plus qu'il ne sait. Convenons cependant que l'homo éthicus est solidaire aujourd'hui de l'homo cognoscens. Mais dans l'asymétrie entre l'éthique et les sciences d'aujourd'hui, seule sauve l'exercice du jugement éthique une éducation médicale appropriée, élargie à la connaissance de la pensée éthique et de la tradition humaniste. Telles semblent les deux racines d'une culture éthique médicale réactivée.

Je constate que ces deux racines sont les mêmes pour les pays arabes et pour la France. Leur culture puise dans ce domaine aux mêmes sources, aux mêmes traditions. Permettez-moi d'évoquer tout d'abord une tradition médicale, à la fois empirique et sceptique. Le scepticisme antique était inspiré par l'empirisme médical. Pour Galien, l'empirisme est à la médecine ce que le scepticisme est à la vie. Il s'agit évidemment d'un scepticisme méthodique dont on trouve les traces chez Al-Ghazali, mais aussi chez Montaigne et Descartes. Déjà dans l'antiquité, le scepticisme du médecin donna des fruits : avec la critique des dogmes, le refus de la magie, le rejet des rationalités illusoires. Avec aussi l'ouverture à l'expérience, au verdict du fait, à la discussion rationnelle de l'observation.

Le monde arabe recueillit cette tradition humaniste médicale avant même l'organisation de la curiosité scientifique des Arabes par l'Islam triomphant. Al-Harith Ibn Caladah, du VIème siècle, étudia la médecine à l'Ecole de Jundishapur devenue, après la fermeture de l'école d'Athènes par Justinien, un centre intellectuel où se croisaient les traditions grecques, persanes, indiennes et syriaques.

Mais sous l'égide et l'impulsion des Abbassides, la politique de traduction et d'interprétation de la science grecque, et surtout de la médecine, passa toutes les bornes.

Progrès essentiel sur la Grèce où seuls les maîtres faisaient l'histoire, la médecine arabe, développée dans le cadre de la moralité exigeante du milieu islamique, donne à l'éthique une dimension universelle inédite. Le genre humain est convié à partager les bienfaits du savoir. Avicenne, dans le Poème de la Médecine, se réfère à l'homme, tout homme : Dieu, dit-il, a réparti entre tous les hommes également la raison, et les sens en même temps que la vie. Ailleurs, il lance la formule qui semble d'un de nos contemporains : coopérer pour le bien-être des corps et la survie de l'espèce humaine. Cette universalité trouvera une expression encore plus saisissante chez Averroès qui nous assure d'une humanité si nécessairement alliée à l'Intellect agent, c'est-à-dire à l'esprit scientifique, que la science ne mourra jamais. Manière de professer le progrès du savoir et sa mondialisation. Façon de lui reconnaître cette valeur et ce caractère international qui de nos jours semblent appartenir à l'essence des savoirs et des techniques.

L'accent éthique de la médecine arabe permit d'en faire, une fois transmise en Occident, le jalon de l'humanisme éthique et scientifique de la Renaissance. J'eusse été heureux si j'avais pu indiquer dans cet article la page du titre d'une édition tardive des œuvres médicales d'Avicenne, parue à Lyon, chez Jacob, en 1552. Cette édition rarissime présente un triptyque oú trône Galien, ayant à sa droite Hippocrate et à sa gauche Avicenne.

Peine perdue que d'évoquer tout cela si la médecine, à l'aube de son renouvellement, n'avait eu partie liée avec le nouvel essor de l'humanisme, c'est-à-dire la reprise de l'héritage grec et arabe après Hobbes et Locke, à la lumière du droit subjectif, et après Ibn al-Haïtham, Galilée et Descartes. La modernité, autre horizon, nouvelles exigences, morale renouvelée ! Désormais les droits du sujet et la connaissance de la vérité instaurent une nouvelle alliance du moral et du cognitif. En témoigne cette comparaison suggérée par Descartes à son correspondant Chanut : La connaissance de la vérité, dit-il, est comme la santé de l'âme : lorsqu'on la possède, on n'y pense plus.

Dans un contexte tout différent, les Lumières ont réaménagé cet humanisme. C'est la présence de l'homme, écrit Diderot à Sophie Volant, qui rend l'existence des êtres intéressante. Et que peut-on se proposer de mieux dans l'histoire de ces êtres, que de se soumettre à cette considération, sans laquelle l'homme s'isole de l'homme, crée le fanatisme et la discorde.

Or aujourd'hui, les difficultés de l'humanisme sans lequel l'éthique médicale n'a ni forme ni contenu tiennent plus au fait que, depuis le XIXème siècle, la pensée n'est plus théorie et la théorie n'a plus rien à voir avec la pratique de plus en plus technicisée de notre monde. Du coup, nous devenons, selon l'expression du Professeur Jean Bernard, les exécuteurs des sentiments d'une société. Les moeurs, ce que Hegel appelait Sittlichkeit, sont nécessaires mais non suffisantes. Il leur faut

l'éclairage d'une éthique rigoureuse. A son tour, celle-ci ne suffit pas non plus : il lui faut la détermination particulière des devoirs. Cette science des devoirs suppose, non seulement les moeurs, mais la connaissance de l'homme. Et pour cela Empédocle annonçait déjà la tâche qui reste à acomplir : Il est impossible de savoir la médecine, disait-il, quand on ne sait pas ce qu'est l'homme. Kant rappelle la même formule pour l'éthique : Il est impossible de savoir ce qu'est l'éthique, si on ne sait pas ce qu'est l'homme. Dans leur jonction s'insère l'exercice libre du jugement, la décision responsable qui est plus qu'un calcul des chances ou une supputation des risques. Ce qui est bon pour la médecine scientifique ne satisfait pas l'éthique médicale.

La science, dit-on, va plus vite que l'homme. Mais la science n'a pas de caractère. Ses produits non plus.

Nos discours sur l'éthique avertissent de la gravité, de la nocivité de la séparation entre les sciences qui fondent la médecine et celles qui ont vocation de nous informer sur nous-mêmes- Problème essentiel de notre temps : Comment arrêter cette étrange et mortelle toxicité ?.

LE RÔLE DE LA DÉFENSE MILITAIRE DANS LE DÉVELOPPEMENT DE LA SCIENCE ET DE LA TECHNOLOGIE*

Idriss KHALIL

1. AVANT-PROPOS

Un des faits majeurs du XXe siècle est le développement parallèle de la science et de la technologie. Cela est sensible au niveau de la vie moderne dans ses aspects les plus divers, matériels, intellectuels, voire spirituels. Car, si par le passé, la technologie était très décalée dans le temps par rapport à la science(1), dans la mesure où il fallait des décennies pour qu'une découverte fût suivie d'applications techniques ; si aussi la science ne bénéficiait de ses retombées technologiques que bien tardivement, de nos jours, l'une et l'autre s'impliquent et se fécondent en un laps de temps extrêmement court, si bien que leurs productions gagnent en efficacité, en rapidité et, traduites en savoir scientifique, en savoir-faire technique et en instrumentation, elles paraissent incommensurables avec celles des siècles passés. C'est ce que tout un chacun reconnaît plus ou moins clairement et que Jean Perrin, en bon connaisseur de l'évolution scientifique et technique, exprime d'une manière saisissante : « L'aventure merveilleuse où l'humanité se trouve engagée depuis une génération à peine, et qui sans doute marque l'aurore d'une civilisation nouvelle, n'a pu se dérouler, en son rythme qui va précipitant de plus en plus, que grâce à un progrès sans cesse accéléré de la science ». (Cf. [13]).

Les raisons de cette accélération sont désormais bien connues. Il s'agit de toutes sortes de besoins : besoins intellectuels traduits par la curiosité et la soif dévorante de connaissance et d'explication ; besoins psychologiques mûs par le désir de faire

---

* Ce rapport a été présenté devant la commission « Éducation, science et technologie » de l'Académie du Royaume du Maroc, le 8 mars 1990.

(1) Il suffit de penser au temps qui sépare les travaux de Faraday et d'Ampère (début du XIXe siècle) et leurs applications qui firent l'essor de l'industrie électrique (fin du XIXe siècle). De même en ce qui concerne les travaux d'Oersted (début du XIXe siècle) en électromagnétisme et leurs applications dans le domaine des télécommunications (télégraphie, téléphone, radio, télévision).

reculer la crainte devant des événements naturels redoutables allant de la simple foudre aux cataclysmes et épidémies ; besoins sociaux qui ne pouvaient plus être satisfaits convenablement par des moyens spontanés offerts par la nature ou même empiriques; besoins de prestige, de puissance et de domination que justifie l'art militaire. Enfin, il faut ajouter, peut-être exclusivement pour notre siècle, la primauté de la recherche scientifique et technologique, l'importance considérable des fonds qui lui sont alloués et du nombre de chercheurs, et, facteur sans doute décisif, le rôle d'incitation, d'orientation et de financement assumé par la défense militaire qui, depuis les années 40, semble avoir jeté son dévolu sur la science et la technologie.

S'il paraît maintenant clair que la conjugaison de tous ces facteurs est la base de l'accélération du progrès scientifique, ce qui l'est moins, croyons-nous, c'est leur part respective dans ce progrès, et plus particulièrement - car c'est un fait relativement récent - celle de la défense militaire.

Dans ce texte nous traitons de ce dernier aspect: rôle de la défense militaire dans le développement de la science et de la technologie. Nous nous sommes limités volontairement à deux questions qui font l'objet des paragraphes 2 et 3. Ce faisant, nous passons sous silence une troisième question essentielle au sujet, à savoir: les implications philosophico-éthiques du rapport entre la science et l'armée. Nous y reviendrons dans un autre texte. Nous avons parfois ici ou là dérogé à l'exigence de rigueur. Mais notre objet n'était pas tant de démontrer ou de justifier des faits, que de les signaler ; car, si le sujet se laisse formuler simplement, il n'en demeure pas moins fort complexe et extrêmement vaste, sur lequel existe déjà une bibliographie aussi abondante que disparate dont nous avons tiré les idées essentielles de ce texte. Nous avons bénéficié pour cela d'une documentation inédite qu'ont mise à notre disposition le Professeur Jacques-Louis lions, Président du Centre National d'Etudes Spatiales (Paris) et le Professeur Jean-Jacques Salomon, Directeur du Centre de Recherche «Science, Technologie et Société», du Conservatoire National des Arts et Métiers (Paris). Qu'ils veuillent bien trouver ici l'expression de mes cordiales remerciements.

2. Les rapports entre l'institution militaire et l'institution scientifique.

2.1. Les raisons de ces rapports

«Le pouvoir sur les choses et sur les hommes a toujours été un thème dominant». Cette assertion, énoncée par l'historien des sciences Everett Mendelsohn (cf. [7]), trouve sa justification dans les deux institutions scientifique et militaire: Maîtriser les conflits extérieurs et les désordres intérieurs graves, maintenir une situation établie ou instaurer un nouvel ordre favorable à la nation qu'elle sert, tels sont, grosso modo, la vocation originelle de l'armée.

Les hommes de science, quant à eux, ont depuis longtemps - en tout cas depuis le 17ème siècle pour ne pas remonter au temps d'Archimède - affiché l'ambition de rendre l'homme «maître et possesseur de la nature» selon l'expression de Descartes. Tout cela, bien sûr, à des fins humanitaires, mais aussi pour «l'honneur de l'esprit humain» comme le proclamait le mathématicien Jocobi.

«Finalité humanitaire», «honneur» sont - aux nuances prés - deux devises communes aux militaires et aux scientifiques. Pour les uns comme pour les autres, la science n'est pas seulement un vecteur de puissance; elle est assimilée à la puissance. Des formules inspirées de celle de Hobbes «Science is power» ont fleuri dans la communauté scientifique du 18ème siècle, et, plus près de nous, dans les milieux militaires et politiques. Cela explique sans doute la rencontre puis l'interpénétration de la science et de l'art militaire.

Tous ces liens, établis de façon épisodique avant la première guerre mondiale, n'ont pas cessé de s'intensifier au cours des dernières décades pour atteindre un niveau tel qu'ils sont devenus inévitables et vitaux. Inévitables, parce qu'aucune des deux parties n'est en mesure de se passer du concours de l'autre; et vitaux parce que leur avenir respectif est conditionné par leur coopération que justifient par ailleurs :

— le perfectionnement continuel des arsenaux militaires, la complexité des problèmes stratégiques et de dissuasion nucléaire,
— le développement de la science et de la technologie,
— et, en corollaire, l'extension des activités industrielles.

A la faveur donc des deux guerres mondiales, de la «guerre froide», et en raisons des coûts exorbitants de la recherche scientifique, et des multiples applications militaires de la science, les deux institutions se sont appuyées l'une sur l'autre en s'impliquant étroitement pour s'assurer la double «maîtrise des choses et des hommes»: l'armée a cherché - et obtenu - de la science et de la technologie les instruments et les idées indispensables à sa vocation; les hommes de science ont trouvé dans l'institution militaire :

- le financement qui leur était nécessaire pour l'aboutissement de leurs recherches,
- et, souvent, dans les préoccupations pratiques et stratégiques de l'armée, des sujets d'étude scientifique nouveaux.

A toutes ces raisons, il faut ajouter, sans doute dans une moindre mesure, des considérations d'ordre idéologique, voire même psychologique, notamment chez certains scientifiques[2] obsédés par la recherche à outrance de nouveaux «pouvoirs sur les choses», ou tout simplement par réalisme quelque peu cynique[3].

2.2. Rapports indirects.

Avant donc la première guerre mondiale, les rapports entre les deux institutions ne résultaient pas nécessairement d'une demande explicite de l'une ou l'autre. Indirectement, elles s'influençaient au travers, d'une part, du contenu scientifique des problèmes pratiques qui se posaient en matière de défense militaire, et, d'autre part, du système industriel, bien que cela fût relativement tardif. C'est ainsi que des questions telles que celles posées par la balistique sont parvenues à la communauté scientifique et ont vraisemblablement orienté ses travaux en mécanique, alors en gestation au 17ème siècle (cf. [6]). De nombreux mathématiciens et physiciens célèbres

---

(2) l'exemple type en est les physicien Edward Teller, l'un des concepteurs de la bombe à hydrogène (cf. [8]).

(3) cf. note 1.

des 17ème et 18ème siècle ont consacré une bonne partie de leurs recherches sur ces questions. K, Merton, dans [6], cite une pléiade d'illustres savants qui ont apporté leur contributions essentielles à la résolution de problèmes balistiques: Descartes, Toricelli, Leibniz, Newton, les frères Jean et Daniel Bernoulli, Euler, Maupertuis, Galillée, etc ...

D'autre part, le système industriel, en plein essor au 19ème siècle a, pour sa part, constitué un autre canal de rapports indirects entre la science et l'armée. Devenant un consommateur adapté à ce système, celle-ci s'appuya sur l'industrie des armements - donc sur ses cadres scientifiques et techniques - tant pour ses divers approvisionnements que pour l'amélioration du matériel de guerre (cf. [10]).

2.3 Rapports directs

C'est à la faveur des deux guerres mondiales que mathématiciens, physiciens et chimistes ont joué explicitement un rôle important comme conseilleurs militaires ou comme concepteurs de nouveaux instruments de guerre tels que : équipements radio, avions à réactions, gaz toxiques, fusées et surtout la bombe atomique qui fut le produit de l'inventivité des physiciens et du savoir-faire technique. Presque tous les grands savants de l'entre-deux guerres ont coopéré à des titres divers avec l'armée: Oppenehimer, Teller, Dyson ... aux Etats-Unis, Sakharov en URSS, Niel Bohr au Royaume Uni, Joliot Curie en France, etc ... De plus, chacun de ces savants avaient derrière lui une galerie de chercheurs opérant dans les universités ou dans l'industrie.

Incontestablement, la bombe atomique(4) allait annoncer le rôle déterminant de la science dans les guerres à venir (cf. [1]).

Inspirant les responsables politiques et militaires, la guerre froide allait rendre, pour ainsi dire, institutionnels, ces rapports tacites entre la science et l'armée. Cela allait de soi en URSS, puisque tous les scientifiques étaient des cadres du Parti, qu'ils fussent membres ou non de l'Académie des sciences. Aux Etats-Unis, tous les moyens furent mis en en œuvre tant pour conforter les scientifiques dits «conservateurs» ou réduire au silence les récalcitrants que pour attirer les autres, y compris les «cerveaux» étrangers. Citons, à cet effet, quelques exemples de mesures prises aux Etats-Unis (cf. [7]).

- postes clés confiés à l'aile conservatrice de la communauté scientifique;
- purges anti-communistes, consécutives à la guerre de Corée, qui affaiblirent ou supprimèrent toute opposition critique notable;
- le procés d'Oppenheimer et le renvoi d'éminents savants de leur poste de responsabilité;
- Obligation pour les universités de faire serment de loyauté, instaurée dans maintes universités et sur tout le territoire de certains Etats;
- attrait quant à la possibilité de financement presque illimité des recherches.

---

(4) Le physicien Oppenheimer disait à ce propos que «les physiciens ont connu le pêché».

C'est ainsi qu'au cours de la deuxième guerre mondiale ou immédiatement après, furent créés des organismes de recherche, rattachés pour la plupart à l'armée, aux fins de constituer des «usines à penser»: La Rand Corporation, l'Office of Scientific Research and Development, le National Research Council ... aux USA; le Centre National de la Recherche Scientique en France; et d'autres établissements similaires au Royaume-Uni. C'est ainsi que des fonds défiant toute comparaison sont mis à la disposition de la recherche, pour ne pas dire «constamment en quête d'utilisateurs»[5]. L'évolution des crédits de recherche et développement (R-D) militaire, entre 1940 et 1960 est stupéfiante, même comparée à celle des secteurs aussi vitaux que ceux de l'agriculture ou de la santé. Les tableaux 1 et 2 sont significatifs à cet égard (cf. [15] p. [63]).

	1940	1945	1960
R-D militaire / Budget Fédéral en %	0,8 %	1,6 %	10,1 %

Tableau 1 : Part du budget fédéral (USA) pour R-D entre 1940 et 1960.

	1940	1961
R-D militaire* / R-D Total	38 %	90,3 %
R-D agriculture / R-D Total	38,6 %	1,5 %
R-D santé / R-D Total	0,5 %	4,1 %

Tableau 2 : étude comparative. Financement par le gouvernement fédéral (USA).

* y compris NASA et Commission à l'énergie atomique.

Depuis lors, les scientifiques se sont comportés, bon gré mal gré, en pourvoyeurs de solutions aux questions militaires[6]. Mêmes ceux qui furent la proie de crise de conscience aiguës - tels Oppenheimer, Niel Bohr, Sakharov - n'en participèrent pas moins à la mise au point d'engins de terreur ou à fournir des solutions d'ordre stratégique. Leurs mise en garde, aux accents alarmistes, parfois pathétiques ou révoltés, adressées aux pouvoirs politiques furent souvent repoussées avec mépris. C'est le cas d'Oppenheimer avec Truman[7], de Niel Bohr avec Wiston Churchil[8] ou de Sakharov avec Khroutchev[9]. Par contre, d'autres savants, nullement soucieux de l'éthique scientifique, pesèrent sur les décisions politiques de tout le poids de leur science ou de leurs relations privilégiées avec les milieux militaires (cf. [3]). C'est sous la pression d'un groupe de scientifiques associés aux militaires et dirigé par

(5) cf. note 2.
(6) cf. note 3.
(7) cf. note 4.
(8) cf. note 5.
(9) cf. note 6.

le physicien Teller que Harry Truman prit la décision de lancer la fabrication de la bombe à hydrogène. C'est le même groupe qui prit à partie le Président Eisenhower lorsqu'il fut sur le point de conclure avec les soviétiques un accord sur l'interdiction des essais nucléaires (celui-ci capota en 1961). Dans son discours d'adieu à la nation, en janvier 1961, Eisenhower reconnut[(10)] :

— le rôle central assigné à la science et à la technologie dans le bouleversement qu'a connu la situation militaire aux Etats-Unis,

— et les dangers que fait courrir l'élite technico-scientifique à la politique des pouvoirs publics.

3. La part de la défense militaire dans le développement scientifique et technologique

Les guerres, la course aux armements, la dissuasion nucléaire, la conquête spatiale (initiée et soutenue de bout en bout par les départements de la défense) sans parler de la «guerre des étoiles» et autres programmes militaires spécifiques, tout cela eut et continue d'avoir un impact considérable sur la science et sur la technologie, et orienta la recherche dans la direction des découvertes les plus remarquables de notre temps. On peut distinguer trois niveaux d'impacts :

a) organisation de la recherche;
b) son financement;
c) promotion proprement dite de la science et de la technologie.

3.1. Organisation de la recherche

Sur la base de nombreuses études (cf. [7] et [14]) il apparaît que l'organisation en groupes de recherches; la division du travail dans les laboratoires, la spécialisation et la programmation thématique; la hiérarchie dans la conduite de la recherche, et les notions mêmes de «patrons» ou de «mandarins»; tout cela a été directement emprunté aux méthodes de gestion militaire, tantôt par le biais de la collaboration des scientifiques avec l'armée ou à travers leur insertion dans le système industriel. Celui-ci, à travers l'industrie des armements ou des unités industrielles sous-traitantes, et en raison de multiples contraintes - contrats de vente, approvisionnements planifiés, demandes accrues en temps de guerre .... - a été par la force des choses amené à adapter son organisation à celle de l'armée. Il en est de même par conséquent des laboratoires de recherche militaire, industrielle ou universitaire.

Il ne fait alors pas de doute que, par cette nouvelle structuration de la recherche, la science a fait d'énormes économies de temps et opéré des percées très fines dans le domaine de la créativité scientifique, ne fût-ce que sous l'effet d'entraînement que procure le travail en groupes pluridisciplinaires qui est incontestablement d'inspiration militaire (cf. [19]).

3.2 Financement

Dans les pays avancés, une part importante des crédits publics de recherche et développement (R-D) est affectée à la recherche à but militaire. Pour quelque pays, cette part est (cf. 15 pp. 151-152).

(10) cf. notre 7.

Etats-Unis	Royaume Uni	France	R.F.A.
70 %	50 %	30 %	15 %

Les tableaux suivants donnent la ventilation des crédits totaux de recherche et développement.

	1965	1981	1987
R-D militaire	22	20	32,7
R-D civil	21	20,4	15,1

Tableau 3 : Financement de R-D par le gouvernement fédéral (Etats-Unis) en milliards de dollars U.S.

	Total R-D / PNB	**R-D civil** / PNB	**R-D défense** / PNB	**R-D défense** / Total R-D
Etats-Unis	2,69	1,86	0,83	31
Royaume Uni	2,42	1,71	0,71	29
France	2,31	1,85	0,46	20
Japon	2,77	2,75	0,02	1
R.F.A	2,67	2,53	0,14	5

Tableau 4 : Dépenses militaires et civiles de R-D rapportées au PNB (1987).

Pour apprécier l'importance relative des dépenses de R-D militaire, il nous suffit de prendre l'exemple d'une moyenne puissance, la France. On estime que l'Etat français consacre à la recherche - développement militaire le tiers du coût des armements livrés aux forces nationales: soit 30 milliards de Francs pour 1987. De leur côté, les grandes sociétés d'armement, tous secteurs confondus, réservent à cette même recherche de l'ordre de 15 à 20 % de leur chiffre d'affaire, quand ce même taux est, en moyenne, inférieur à 3 % pour l'ensemble du potentiel industriel français (cf. [9]).

3.3. Promotion de la science.

Pour ce qui est de la promotion proprement dite de la science et de la technologie, il serait quasiment impossible de citer un domaine scientifique ou une innovation technologique qui n'ait été, de près ou de loin, redevable à la guerre, ou initié, développé et financé par le département de la défense, ou encore qui n'ait été sujet d'intérêt pour l'armée. Qu'il s'agisse :

— des sciences fondamentales relatives à la connaissance des milieux naturels: la terre, l'océan et l'espace. Tout est en fin de compte domaine stratégique.

— de l'étude des matériaux: supra-conductivité à haute température, isolants électriques, nouveaux réfractaires, pour garnir les engins balistiques, ou

nouveau matériel pouvant conférer aux avions une plus grande furtivité;

— de l'étude des particules élémentaires qui conduisent vers de nouvelles sources d'énergie (propulsion d'engins spatiaux);

— ou de la biologie associée à la sociologie: mécanisme du comportement et de l'intelligence; étude des maladies graves et / ou contagieuses (sida et autres, pour prévenir les épidemies au sein de l'armée) armes biologiques et chimiques etc ..

La liste serait longue et demanderait beaucoup de compétence. Citons simplement dans cette direction, un paragraphe significatif tiré d'un rapport rédigé par d'éminents scientifiques(11): «En partant de l'industrie du fer et de l'acier, et en passant par les découvertes des lois du mouvements et la thermo-dynamique, pour parvenir à l'âge de la particule atomique, des polymères synthétiques et de la capsule spatiale, il n'est pas de progrès scientifique important qui n'ait été, à tout le moins, indirectement provoqué par les nécessités implicites de l'armement. Des exemples plus prosaïques peuvent être trouvés dans la radio à transistor (résultat des nécessités militaires en matière de communication) la chaîne d'assemblage (qui provient des besoins en armes à feu au moment de la guerre civile) les immeubles à chassis d'acier (nés des navires cuirassés) les ecluses, etc ... Une de ces adaptations typiques peut être trouvée dans un instrument aussi modeste que la tondeuse à gazon: elle provient de la faux tournante inventée par Léonard de Vinci. Placée à l'avant d'un véhicule à chevaux, elle était destinée à pénétrer dans les rangs ennemis».

Il nous reste à signaler un dernier exemple qui revêt une importante capitale en raison de ses repercussions dans tous les domaines de la science et de la technologie. Il s'agit de la recherche opérationnelles (cf [5]). Elle concerne au premier degré les problèmes de stratégie, et met en œuvre plusieurs spécialités mathématiques: analyse statistique, théorie des probabilités, théorie des jeux (comme les jeux de Casino ou jeux de hasard) théorie de la décision, analyse des données, programmation linéaire ... La recherche opérationnelle est pour la conception des scénarios chers aux prospectivistes ce qu'est le microscope pour le biologiste expérimental. C'est dans le cadre d'un programme général(12) de la Rand Corporation que le mathématicien d'origine hongroise, John Von Neumann (recruté par cet organisme en 1945) inventa l'ordinateur baptisé alors «Mathematical Analyser Numerical Integrator and Computer» et participa à toutes les étapes de sa mise au point. Les sciences de l'informatique doivent beaucoup à ce savant, mais aussi à la Rand Corporation, ne fût-ce qu'à travers ses préoccupations formulées dans le programme sus-cité. Elles ont imprimé une accélération considérable à la recherche et révolutionné tous les domaines, jusques y compris notre vie quotidienne.

Observons au passage que le premier rapport établi par la Rand Corporation (c'était le 2 mai 1941) était intitulé: «Etude préliminaire d'un vaisseau expérimental placé sur orbite terrestre». Les soviétiques ont été les plus rapides en lançant le spoutnik en 1958; mais cela ne fut que le prélude à une compétition spatiale dont

(11) cf. [18]

(12) «Inventer tous les scénarios possibles de guerre, de vulnérabilité, de stratégie de défense et de dissuasion en temps de paix»

la science et la technologie en ont tiré de grands avantages. Et contrairement à ce qu'on pourrait penser, l'espace reste «la chasse gardée» de la défense nationale. La preuve en est que la plupart des satellites mis sur orbite, ont été lancés à différentes fins militaires (par exemple en 1987, les 75 % des satellites mis sur orbite avaient des objectifs militaires, soit 84 satellites du total).

Au terme de cette étude, nous signalons une question fondamentale que nous avons dû soustraire de ce texte, à savoir:

— La défense militaire était-elle nécessaire à la science et à la technologie pour atteindre un niveau de développement comparable à leur niveau actuel ?

Et, subsidiairement :

— Quel fut le sort de l'éthique de la science en tant qu'institution libre, désinteressée et universelle[(13)].

Quelles que soient les réponses qu'on pourrait leur apporter, et ne pouvant opposer à la réalité que des conjenctures, on est forcé de reconnaître que la «convolution» de l'art militaire et de la science a façonné celle-ci et déterminé les choix de la technologie moderne.

(13) cf. notes 10 et 11.

NOTES

1. Le physicien Philip Morisan, discple d'Oppenheimer dit à ce propos «Le physicien sait que la situation est fausse et dangereuse. Il est incité à aller de l'avant puisqu'il a réellement besoin de crédits ... pour mener à bien les travaux à venir. De fait ces besoins dépassent les possibilités de l'unversité. Si le bureau de recherche des forces Navales offre un contrat avantageux, un refus de sa part serait au-delà des possibilités humaines. Le résultat est nécessairement mauvaux» (c'était en 1946). (cf. 3p. 185).

2. «Il ne fait aucun doute, dit E. Mendelsohn dans [7], que les guerres ont été le principal facteur de développement scientifique. Des crédits pratiquement illimités ont été en permanence en quête d'utilisateurs».

3. Dean Acheson, Secrétaire d'Etat dans l'administration du président Truman rapporte qu'il accompagnait Oppenheimer dans le bureau de Truman: «Oppie tordait ses mains en disant : «J'ai du sang sur les mains», Plus tard, truman dit à Acheson: «Ne me ramenez plus jamais ce maudit crétin ... Ce n'est pas lui qui a lancé la bombe. C'est moi. Cette sorte de pleurnicherie me rend malade». (cf. [14]).

4. En 1951, aux U.S.A., 70 % du nombre total d'heures vouées à la recherche par les physiciens étaient consacrés aux travaux liés à des questions militaires. Ce pourcentage était encore plus élevé dans les 10 premières institutions de la recherche en science physiques puisqu'il dépassait 90 %. (cf. [13], p. 71).

5. Menant campagne, avant Hiroshima, contre l'utilisation des bombes nucléaires, Niels Bohr rencontre Churchill qui l'écoute sans mot dire pendant une demie heure, puis l'arrête dans son développement en se tournant vers son conseiller scientifique, Lord Cherwell: «de quoi a-t-il donc parlé? de politique ou de physique ?» (cf. [14]).

6. Sakharov rencontre Kbroutchev pour lui remettre une note où il recommandait de suspendre les essais nucléaires. Celui-ci lui répond: «La tâche des savants est de perfectionner l'armement. Quant à son usage éventuel, ce n'est pas à eux de s'en soucier, ce n'est pas leur affaire». (cf. [14]).

7. Dans son allocution d'adieu à la radio, le Président Eisenhower dit: «Ces bouleversements ont été liés à la révolution technologique des dernières décennies ... et au rôle central désormais assigné à la recherche; de plus, la recherche est devenue plus institutionnalisée, plus complexe et plus coûteuse. Aujourd'hui, l'inventeur solitaire, bricolant dans son atelier, a disparu, laissant la place aux task forces de scientifiques, aux laboratoires et aux installations d'essais. Dans le même veine, l'université indépendante, historiquement à l'origine des idées libres et des découvertes scientifiques, a connu une révolution dans la conduite des activités de recherche. En raison notamment de l'énormité des coûts en jeu, un contrat public devient rituellement un substitut à la curiosité

intellectuelle. Pour chaque tableau noir d'autrefois, on compte à présent des centaines d'ordinateurs ... En dépit de tout le respect que doit inspirer la recherche et la découverte scientifique, il nous faut également rester vigilants à l'égard du danger inverse et non moins grave de voir la politique des pouvoirs publics devenir captive d'une élite technico-scientifique» (cf. [12]).

8. «Hormis la créativité, dit Alex Roland dans [16], l'industrie à tout appris de la guerre: organisation, discipline, normalisation, coordination des transports et des approvisionnements, séparation des services fonctionnels et hiérarchie, division du travail ...»

9. Il s'agit de résultat du travail de recherche mené pendant deux ans et demi par un «groupe spécial» convoqué à l'initiative des plus hautes autorités des Etats Unis. Le groupe comptait quinze membres spécialistes de diverses disciplines: mathématiques, biologie, physique, éthnologie, psychiatrie, droit, économie etc ... Le rapport devait demeurer confidentiel, mais l'un des membres du groupe - Galbraith - «après plusieurs mois de tortures morales» décida de rompre le silence en le publiant sous le titre «La paix indésirable? Rapport sur l'utilité de la guerre» (cf. [15]).

10. On estime les dépenses militaires au niveau mondial à 1000 milliards de dollards U.S. par an. Elles augmentent tous les ans à raison d'un taux d'accroissement de 5 %, et représentent en moyenne 6 % du PIB mondial, soit plus de la moitié du PIB total des pays en développement. Elles sont également supérieures à la dette extérieure de ces pays (égale à 753 milliards de dollars en 1986, d'après les estimations de la banque mondiale) (cf. [13] p. 158).

11. Le physicien Kapitza déclare devant la Royal Society, le 17 mai 1966, en hommage au savant anglais Lord Rutherford: «L'année où Rutherford est mort disparurent à jamais les jours heureux du travail scientifique libre qui nous donna tant de joie dans notre jeunesse. La science a perdu sa liberté. La science est devenue une force productive. Elle est devenue riche, mais elle est devenue esclave». (cf. [18]).

BIBLIOGRAPHIE

1. P.M.S. Blackett, «Fear, war and the Bomb», New-York, Mc Graw, Hill, 1949.
2. Freeman Dyson, «les dérangeurs de l'Univers», Payot, 1986.
3. Paul Forman, «Behind Quantum Electronics National Security as Basis for Physical Research in the United States, 1940-1960», Historical Studies in the Physical and Biological Sciences, vol. 18, N°1, 1987; p. 229.
4. Paul A.C Koistinen, «The Military Industrial Complex, A Historical Perspective», New-York, 1980, pp. 40-50.
5. Jacques-Louis lions, «La planète Terre» Rôle des mathématiques et des super ordinateurs», publications du CNES, Janvier 1990. (sous presse)
6. Robert K. Merton, «Science, Technology and Society in Seventeenth-Century», New-York: Happer and Row, pp. 184-198.
7. E. Mendelsohn and al: «Science, Technology and Military» Sociology of the Science yearbook, vol. XII, 1988, p. 1-45.
8. C.W. Mills: «The Power Elite» New-York: Oxford Univ. Press, 1966.
9. «Le Monde», n° 13630, du 23 Novembre 1988: Innovation 88.
10. Lewis Mumford. «Technique et Civilisation», Seuil, 1950.
11. Lewis Mumford, «Gentelman: you are mad! «Saturday review of litterature, March 2, 1946, pp. 5 - 6.
12. Nature, vol. 210, London, pp. 782 - 783 Mai 1966.
13. J. Perrin, «les éléments de la physique», Albin Michel.
14. Alex Roland, «sciences and War», Osiris, 2and series, 1985, vol. 1.
15. J.-J. Salomon, «Science et politique» Economica, Paris, 1989.
16. J.-J. Salomon, «Science, Guerre et Paix», Economica, Paris, 1989.
17. J.-J. Salomon, la recherche, n° 216, decembre 1989.
18. La paix indésirable? Rapport sur l'utilité de la guerre, Calman-Levy, Paris, 1968.
19 حديث الخميس ــ منطق الاكتشاف في العلوم المعاصرة ــ أكاديمية المملكة المغربية 1989/11/9

2ème Partie

ABSTRACTS

Abbas AL-JIRARI

Abou Chou'aïb Ad-Doukkali, pionnier de la réforme intellectuelle du Maroc moderne

Cet exposé présente la personnalité de Abou Chou'aïb ad-Doukkali, les conditions générales qui le virent apparaître, sa position, son importance et il énonce quelques traits qui aident à comprendre son rôle de pionnier de la réforme, rôle culturel et intellectuel pour lequel il avait les capacités requises.

Abou Chou'aïb fit preuve très tôt de son talent, voyagea en Egypte où il reçut l'enseignement des Savants d'Al-Azhar, puis El-Hijaz où il fut l'élève de ceux du sanctuaire de la Mecque et où il réussit à se distinguer en tant que juriste et savant, raison pour laquelle le prince de la Ville Sainte le nomma conférencier du sanctuaire de la Kaâba et muphti des quatre tendances du «fiqh».

Après cela il revint au Maroc où Moulay Hafid le nomma Cadi de Marrakech, lui permettant aussi d'enseigner dans de nombreuses villes. Abou Chou'aïb conserva cette même position à l'époque de Moulay Youssef et durant les premières années du règne du regretté Mohamed V. Après avoir exercé la jurisprudence il fut ministre de la Justice et président des Tribunaux d'Appel canoniques, tout en continuant son métier d'enseignant.

Tous ces éléments accumulés, depuis sa prime enfance jusqu'au moment où il occupa le poste de ministre, firent de lui une personnalité pleinement capable de jouer le rôle d'un penseur réformiste et de participer à la prise de conscience des revendications nationalistes en vue de l'indépendance, laissant derrière lui une école de réformistes et nationalistes fervents.

* * *

Abou Chou'aib Ad-Doukkali Leader of the Intellectual Reform in Modern Morocco

This research introduces the person of «Abou Chou'aib Ad-Doukkali», and states the general background in which he appeared, his position, and his importance

as an intellectual figure. The paper also deals with some of the features which help to depict the cultural and intellectual role Abou Chou'aib was entitled to play as a leader of the intellectual reform.

Since childhood, Abou Chou'aib showed exceptional intellectual abilities. He went to Egypt, where he studied under the Tutorship of the Scholars of Al-Azhar ; and then to Al-hijaz seeking knowledge from the Scholars of Holy Mecca. Abou Chou'aib became one of the prominent Scholars and Faquihs of his time ; and was, therefore, appointed by the Prince of Mecca as preacher at the Holy Mosque and a Mufti of the four Islamic Groups of «fiqh».

When Abou Chou'aib returned to Morocco, he was appointed by Al-Maula Abd-El-Hafiz as a judge in Marrakesh, and was allowed to give lectures in various towns of the country. This distinguished position lasted during the whole reign of Al-Maula Yussef and the first part of Mohammed V reign. Then Abou Chou'aib held the Office of Minister of Justice and presided the Court of Appeal, in addition to his teaching activities.

All these factors had contributed to make Abou Chou'aib a prominent figure apt to play the important role of the intellectual reformer, and to participate in the national awakening for the achievement of independence. Abou Chou'aib left behind him a school of reformers and fervent patriots.

* * *

Abou Chou'aïb Ad-Doukkali pionero de la reforma intelectual en el Marrueccos moderno

Esta ponencia presenta el personaje de Abou Chou'aïb ad-Doukkali, las condiciones generales en las que apareció, su posición, su importancia, y plantea algunos rasgos que ayudan a imaginar su papel de pionero de la reforma, papel cultural e intelectual para el que estaba capacitado.

Abou Choaïb demostró tempranamente sus geniales aptitudes, viajó a Egipto donde estudió bajo la dirección de los sabios de al-Azhar, después a el-Hiyaz donde recibió las enseñanzas de los sabios del santuario de la Meca Y donde logró distinguirse como jurista y sabio, por lo que lo nombró el príncipe de la ciudad santa ponente en el santuario de la Kaâba Y mufti de las cuatro tendencias.

Más tarde volvió a Marruecos Y lo nombró Muley Hafid cadi de Marrakech, permitiéndole también dar lecciones en numerosas ciudades. Abou Chou'aïb conservó su misma posicion en época de Muley Youssef y en los primerísimos tiempos del rey Mohamed V, que Dios lo tenga en su gloria. Después de la jurisprudencia, pasó a ser ministro de justicia y presidente de tribunales canónicos, sin cesar de ejercer su profesorado.

Estos elementos acumulados desde su màs tierna infancia hasta que ocupó el ministerio hicieron de Abou Chou'aïb una personalidad capacitada para su papel de pensador reformista y para participar en la toma de conciencia de las reivindicaciones nacionalistas para la independencia, dejando tras de él una escuela de reformistas y nacionalistas fervientes.

Mohamed Allal SINACEUR

Taha Husseïn - littérature qui illumine

Le texte est un essai d'exalter le rôle éducatif de la littérature de Taha Husseïn, à partir de son contenu et de sa forme. Il apparaît, grâce à cet essai, que le mérite de Taha Husseïn ne réside pas dans la pensée qu'il nous a léguée, pas plus que dans sa méthode d'exposer les questions littéraires ou les travaux d'écrivains tant anciens que modernes. Ce qui nous reste du doyen de la littérature arabe c'est le secret de son style convaincant et plaisant : c'est un écrivain qui montre l'exemple et éduque les générations modernes.

En outre, Taha Husseïn a été à l'origine d'une modernisation satisfaisante de la langue arabe, en lui ouvrant de nouveaux horizons, en la raffinant, en virifiant par l'exemple ses aspirations et son art, en la séparant du destin pour l'attacher à la roue de l'histoire.

l'œuvre de Taha Husseïn ne s'est pas limitée à cela, elle a en plus utilisé des moyens d'information efficaces, à l'audience large, qui la mettaient en contact avec un vaste public de lecteurs. Grâce à tout ceci il a inventé une langue unifiée et unificatrice, mettant en place un cadre dans lequel les contradictions deviennent des phénomènes normaux susceptibles d'être toujours et sans cesse discutés.

* * *

Taha Hussein
The Enlightening literature

The text is an attempt to approach the enlightening role of Taha Hussein's Literary works, for form as well as content. This approach shows that the contribution of Taha Hussein is not limited to his ideas, nor to his methods of exposing literary controversy and the works of ancient and contemporary authors. The secret of Taha Hussein's immortality is his convincing and entertaining style. He is the leader and the teacher of the new generation.

In addition to all that, Taha Hussein modernized the Arabic language in a very acceptable manner. Thus, he opened new horizons for the language, enhancing its taste, art, and expectation. Moreover, he managed to free it from the past and link it to the dynamics of history.

The contribution of Taha Hussein was not limited to this,for he also used the media with its wide spread influence to get as many readers as possible ; consequently, Taha Hussein created a unique and unifying language which imposed a frame in which contradictions changed into normal phenomena opening the way for ever-lasting discussions.

* * *

Taha Hussein : literatura formadora

El texto es un intento de enaltecer el papel formador de la literatura de Taha Hussein a partir de su contenido y forma. Se pone de manifiesto, gracias a este intento, que el mérito de Taha Hussein no reside en el pensamiento que nos ha legado, ni en los métodos de exponer las cuestiones literarias, ni en su tratamiento de las obras de escritores tanto antiguos como modernos. Lo que nos queda del decano de la literatura árabe es el secreto de su estilo convincente y deleitable, es un escritor modelo y un educador de las generaciones modernas.

Además de todo esto Taha Hussein llevó a cabo una modernización aceptable de la lengua árabe, abriéndole nuevos horizontes, refinándola, aumentando con ejemplos sus aspiraciones y su arte, desatándola de la rueda de la fortuna pora atarla a la de la historia.

La obra de Taha Hussein no se paró en estos límites, sino que utilizó medios, de información eficaces, de larga audiencia, que la ponían en contacto con un amplio público de lectores. Gracias a todo lo cual inventó una lengua unificada y unificadora que impuso un cuadro en el que las contradicciones se transformaban en fénomenos normales, susceptibles de ser siempre y permanentemente discutidos.

Abdelwahab BENMANSOUR

Nouvelles et biographies marocaines dans le Dictionnaire «Assafar» de Al-Hafidh Abou Tahir As-Silafi

Le chercheur Ihsane Abbas a tiré du Dictionnaire «Assafar», de Abou Tahir As-Silafi, des nouvelles et biographies relatives à Al-Andalous, publiées dans un livre intitulé «Nouvelles et biographies d'Al-Andalous».

L'auteur du Dictionnaire «Assafar» est Ahmed Ben Mohamed, célèbre par son nom de Abou Tahir. Il naquit à Ispahan en 478 de l'Hégire et mourut en 576 de l'Hégire à Alexandrie.

Al-Hafid Abou Tahir rencontrait à Alexandrie les hommes qui y arrivaient par terre et par mer, conversait avec eux s'il s'agissait d'égaux, leur adressait la parole si leur position était inférieure à la sienne et n'oubliait pas d'annoter les idées profitables qu'il entendait chez eux sur des fragments qui ont constitué le Dictionnaire.

Il serait utile d'analyser sa méthode et d'étudier des exemples de son texte pour savoir le bénéfice que nous marocains pourrions tirer de cette œuvre insigne.

* * *

Moroccan News and Interpretations In «Mujam Assafar» By Hafid Abou Tahir As-Silafi

Ihssan Abass extracted from «Mujam Assafar», Which is written by Hafid Abou Tahir As-Silafi, informations and interpretations that concerned Andalusia, in a book named «Andalusian News and Interpretations».

«Mujam Assafar» is written by Ahmed Ben Mohammed, who is known by the name Abou Tahir. He was born in Ispahan in 478 'Hegria' and died in Alexandria in 576 'Hegria'

Al-Hafid Abou Tahir used to meet men who came to Alexandria by land or by sea. He discussed with the men who were his equal and instructed men who knew lesser informations. He recorded down all the interesting facts in his files, made up «Al Mujam».

It's very helpful to look at the way the «Mujam» is written and to study some of its verses. By doing that, we, Moroccans, can see what we can get from such a great work.

* * *

Noticias y biografias marroquíes en el Diccionario Assafar de Al-Hafidh Abou Tahir As-Silafi

Ihsane Abbas ha entresacado del Diccionario Assafar de Abou Tahir As-Silafi noticias y biografías relativas a El Andalus y publicadas en un libro titulado «Noticias y biografias del Andalus».

El autor del Diccionario Assafar es Ahmed ben Mohamed, célebre por su apellido de Abou Tahir. Nació en Ispahan el año 478 de la Hégira y murió en Alegandria el año 576 de la Hégira.

Al-Hafidh Abou Tahir se encontraba en Alegandria con los hombres que a ella llegaban por tierra y por mar, conversaba con ellos si eran sus iguales, les dirigía la palabra si no eran de la misma posición y no olividaba notar las ideas provechosas que de ellos escuchaba en fragmentos con los que formó el Diccionario.

Sería util analizar su método y estudiar modelos de su texto para conocer el beneficio que nosotros marroquíes podríamos sacar de esa obra eminente.

Mohamed Aziz LAHBABI

Méditations sur le roman marocain Une expérience personnelle

Le texte traite du roman en tant que genre créatif, grâce à la signification du roman lui-même et aux positions des critiques, mais à partir essentiellement de l'expérience personnelle du romancier Lahbabi.

L'expérience personnelle de Lahbabi s'oriente vers des tendances spécifiques, puisqu'il réunit l'œuvre du philosophe, penseur et chercheur, et celle du romancier, créateur et artiste. C'est ainsi que son texte romanesque commence en tant que méditation et devient rapidement en histoire, en événements, en personnages.

Quant au contenu, la plupart du temps il exprime une vision intuitive qui quelquefois respecte toutes les interactions de la réalité vécue et d'autres fois dépasse la réalité pour scruter le futur et être le premier à imaginer des choses que la science quelquefois confirme et beaucoup d'autres fois est incapable de concevoir.

La lecture et l'écriture, selon Lahbabi, aident à se découvrir soi-même et à découvrir la vie inter-sociale et, quelquefois, sont un motif de comportements et positions en accord avec la logique de notre temps.

* * *

Meditations on the Moroccan Novel A Personal Experience

The text deals with the Novel as a form of creation, in respect of the content of the novel and the critics stand with regard to it. The study was based on the personal experience of the novelist Lahbabi.

This personal experience has taken a new turn, combining the contemplation and searching of the philosopher with creative and artistic work of the novelist. Thus, Lahbabi's text always starts with meditations but move rapidly to relate a story with its events and characters.

As for the content, it often reflects a three sided view, moving from mere description of reality to an anticipation of future facts that may or may not be justified by science.

Reading and writing, for Lahbabi, are a means to identify one's personality and to understand social life. It may also be a stimulator for the establishment of new concepts and attitudes that fit our present time.

* * *

Meditaciones sobre la novela marroquí
Un experiencia personnal

El texto trata de la novela en tanto que género creativo, gracias a la significación de la propia novela y a las posiciones de los críticos, pero partiendo esencialemente de la experiencia personal del novelista Lahbabi.

La experiencia personnal de Lahbabi se orienta hacia tendencias distintivas, pues él une en todo la obra del filósofo pensador e investigador, y la del novelista creador y artista. Así su texto novelesco empieza como meditación y rápidamente se transforma en relato, en acontecimientos, en personajes.

En cuanto al contenido, las más de las veces expresa una visión que algunas veces respeta la realidad vivida con todas sus interacciones, y a menudo se adelanta a la realidad para vislumbrar el futuro y ser el primero en imaginar cosas que unas veces la ciencia confirma y numerosas otras es incapaz de representárselas.

La lectura y la escritura, en opinión de Lahbabi, ayudan a descubrirse a sí mismo y a descubrir la vida inter-social, y a veces son un aliciente para comportamientos y posiciones acordes con la lógica de nuestro tiempo.

Mohamed Farouk NEBHANE

Le Statut Personnel arabe unifié

Après avoir présenté l'étape historique antérieure, pendant laquelle se préparaient les causes de l'apparition du phénomène de légalisation des prescriptions de la Charia dans le domaine des comportements et de la famille, cette recherche expose les essais d'unifier le Statut arabe dans les domaines cités, au niveau des Etats et des organismes arabes spécialisés, en renforçant la démonstration avec des comparaisons et en finissant par faire des propositions susceptibles de réaliser l'unification en faveur de l'homme arabo-musulman et afin de dépasser les divergences et différences qui, souvent, s'éloignent du contenu du Code musulman, lequel se base sur ses deux sources principales : le Coran et la Sunna.

* * *

Arab Law Unifying Civil Laws

After exposing the previous historical stage, which prepared the emergence of codification of religious laws in the area of social relations and family rules, the research deals with efforts to unite Arabic laws in these areas on the level of nations and Specialized Arab Organization level through comparisons and suggestions leading to proposals to achieve unity.

This unity is for the benefit of Arab Moslem people. Also it is important for the sake of reducing the differences and discrepencies which exist between the Arabs. These differences exist due to the deviation of Muslims from the Islamic instructions which are based on the main Islamic sources which are «the koran and the Sunna».

* * *

El Estatuto Personal árabe unificado

Después de presentar la etapa histórica anterior en la que se fueron preparando las causas de la aparición del fénómeno de legalizar las prescripciones de la Charia en el ámbito de los comportamientos y de la familia, la investigación trata de los intentos de unificar el Estatuto árabe en los mismos ámbitos, a nivel de Estados y organismos árabes especializados, reforzando la demostración con comparaciones y terminando con proposiciones susceptibles de realizar la unificación en favor del hombre árabo-musulman y a fin de traspasar las divergencias y diferencias que a veces se alejan del contenido del código musulmán basado en sus principales fuentes : El corán y la sunna.

Abou Bakr KADIRI

La communauté musulmane face aux défis de la civilisation moderne

Le sujet traite des conceptions, idées et théories les plus éloignées des musulmans et qui ont comme cible la communauté musulmane. Celle-ci, à cause de ce phénomène, est en train de perdre ses caractéristiques spécifiques et de s'intégrer, volontairement ou avec résignation, dans des sociétés à l'esprit et aux constituants fondamentaux très différents.

La réalité démontre que la communauté musulmane subit puissamment l'influence des sociétés matérialistes d'Occident, que l'éducation religieuse perd de sa force dans le mode de vie, que l'on considère la religion comme un simple culte dont les enseignements ne doivent pas nécessairement être appliqués dans les comportements de la vie.

Cette situation représente le défi le plus important de ceux qui menacent aujourd'hui la communauté musulmane, ce qui appelle à lui faire face avec la volonté, la fermeté et la décision nécessaires, sans refuser totalement les innovations de l'Occident européen dans les domaines de la vie, de l'esprit, de la science, car les Musulmans désirent organiser de façon moderne leurs sociétés, sans dévier des principes et dogmes de la foi.

* * *

The Islamic society faces the new civilization challenges

This subject deals with the intrusion of the foreign beliefs, ideas and theories into the Islamic society. These beliefs, ideas and theories are so different that the

Islamic society is losing its distinctive characteristics. Moreover, it has to integrate, willingly or unwillingly into societies that are so different from its spirit and basic components.

The facts prove that the Islamic society began to be tremendously influenced by the western materialistic societies. Thus the Islamic teaching lost its effect in real life. furthermore, religion is regarded, now, as a worshipping ceremony without following its instructions in everyday life.

This situation is considered to be the most serious challenge faced by the Islamic society today. Therefore, Muslims must face the situation with a strong determination and sincere resolution. Yet, they must not reject all the Western European inventions, philosophy, thought, and education, for muslims are eager to have a modernized system, but without deviating from their principles and fundamental beliefs.

* * *

La comunidad musulmana frente a los desafíos de la civilización moderna

El tema aborda las concepciones, ideas y teorías enteramente alejadas de las muslumanas y que tienen como blanco la comunidad musulmana, fenómeno cuyo resultado es que tal comunidad está perdiendo sus características específicas, integrándose voluntaria o resignadamente en sociedades de espíritu y constituyentes fundamentales muy diferentes. La realidad demuestra que la comunidad musulmana está siendo influenciada mucho por las sociedades materialistas de Occidente, que la educación religiosa pierde de su fuerza en el modo de vivir y que se está considerando la religión como un simple culto cuyas enseñanzas no han de ser necesariamente aplicadas en los comportamientos de la vida.

Esta situacíon representa el desafío más importante de los que amenazan hoy a la comunidad musulmana, cosa que exige hacerle frente con la voluntad, firmeza y decisión necesarias, sin rechazar totalmente las innovaciones del Occidente europeo en los ámbitos de la vida, el pensamiento, la ciencia, porque los musulmanes desean organizar sus sociedades de manera moderna, sin desviarse de los principios y dogmas de la fe.

Abdelhadi BOUTALEB

Le Congrés mondial sur l'éducation pour tous

Rapport détaillé des travaux du Congrès souhaité par quatre organismes qui sont la Banque Mondiale, l'UNICEF, le Programme des Nations-Unies pour le développement et l'UNESCO. Le Congrès eut lieu en Thaïlande, du 6 au 9 mars 1990, sous le thème : «l'éducation pour tous». Il analyse la détérioration de l'enseignement primaire dans le monde et la faiblesse des efforts tendant à extirper le fléau de l'analphabétisme, particulièrement dans les pays du Tiers-Monde.

Le Congrès se basa sur un document de travail qui contenait quelques solutions susceptibles de concrétiser les objectifs mondiaux dans les deux domaines cités. Et l'on peut considérer comme un acquis important l'incorporation aux quatre organismes cités, afin de participer au Congrès, de l'Organisation Islamique pour l'Education, la Science et la Culture (ISESCO), dont la délégation put ajouter aux documents étudiés le Programme Islamique Spécial, qui fut approuvé comme document régional exemplaire.

* * *

The International Conference that intends to provide education for all

This is a detailed report about a Conference that was attended by four organizations : the International Bank, The UNICEF, The United Nations Developing Program, and the UNESCO. The Conference was held in THAILAND from the 6th to the 9th of March 1990 under the slogan "Education for all". The Conference studied the deterioration of primary education in the world and the small efforts made to overcome illiteracy, especially in the Third World Countries.

Abdelaziz BENABDELLAH

La Perestroïka et les prolongements asiatiques de l'Union Soviétique

L'expansion vers l'Asie de l'influence des transformations en Europe de l'Est, à partir de la Perestroïka de Gorbatchev, touche avant tout le problème des minorités nationales et religieuses, dont il nous suffit d'analyser les situations, les aspirations et les mouvements revendiquant l'indépendance pour connaître la gravité de leurs situations, surtout les musulmans.

Le président Gorbatchev, sans aucun doute, se trouve dans une position délicate, parce qu'il affronte des mouvements séparatistes qu'il refuse de reconnaître, les considérant illégaux, puisque, selon lui, se séparer de l'Union Soviétique n'est pas l'affaire de telles minorités. Mieux encore, au début il avait refusé l'idée même de négociations, que l'on ne pouvait imaginer qu'avec des Etats étrangers.

Quelle que soit en ce moment le calme apparent dans les Républiques de l'Union Soviétique, un avenir obscur menace de cerner la région, qui transférerait très rapidement sa flamme révolutionnaire dans les différentes parties malgré leur éloignement.

L'Union soviétique essaiera d'avoir recours à certaines initiatives pour rehausser son image en Occident, surtout dans le domaine des Droits de l'Homme et, plus précisément, en ouvrant ses portes à l'émigration juive, raison pour laquelle l'Occident tend à minimiser l'importance des activités séparatistes en Union Soviétique, et particulièrement les mouvements des musulmans : Quels plans ont donc mis au point les musulmans pour faire face à cette situation ?

* * *

Perestroika and the Soviet Expansion in Asia

The impact of changes that occured in Eastern Europe by Gorbatchove's Perstroika on Asia was, above of all, related to the problem of patriotic and religious

minorities. It is enough to analyse the situation of these minorities, their expectations, and their efforts to achieve independence to recognize the dangerous situations from which they are suffering, especially the Muslims.

Undoubtedly President Gorbatchove is in a very embarrassing situation. He is facing separatist movements and is obliged to reject them as illegal movements. As far as he is concerned, the separation from the USSR is not their concern. At the beginning, he refused even the idea of negociations which is conceivable only with foreign countries.

Although the situation seems quiet, now, in the USSR, a dark future threatens the area, where revolutions will spred at an amazing speed despite the great distance.

The USSR will try to seek some policies to improve their image in the West, especially in what concerns human rights and Jewish immigration. Therefore, the importance of separatists movements, especially the Muslims, will be reduced in the West ; what have the Muslims, then, prepared to face this situation ?

* * *

La Perestroika y las prolongaciones asiáticas de la Unión Soviética

La expansión hacia Asia de la influencia de las transformaciones que han tenido lugar en Europa del Este, a partir de la Perestroika de Gorbatchev, atañe ante todo al problema de las minorías nacionales y religiosas, y nos basta con analizar sus situaciones, aspiraciones y movimientos reivindicando la independencia para conocer la gravedad de las situationes en que se debaten, sobre todo las musulmanas.

El presidente Gorbatchev, sin lugar a dudas, está en una posición delicada porque está haciendo frente a movimientos separatistas, y se ve obligado a rechazarlos para considerarlos movimientos ilegales, pues separarse de la Unión Soviética, en su opinión, no es de la incumbencia de tales minorías, es más, en un principio rehusó la idea misma de negociaciones, que no se podían imaginar más que con Estados extranjeros.

Cualquiera que sea actualemente la calma aparente en las repúblicas de la Unión Soviética, un futuro obscuro amenaza con explotar en la región, trasladando su revolución con gran rapidez, a pesar de las distancias, entre las diferentes partes.

La Unión soviética intentará recurrir a algunas iniciativas para realizar su imagen en Occidente, sobre todo en el ámbito de los Derechos Humanos y, más precisamente, abriendo sus puertas a la emigración judía, con lo que Occidente tiende a disminuir la importancia de las actividades separatistas en la Unión Soviética, y particularmente de las actividades de los musulmanes. ¿ Qué planes pues han preparado los musulmanes para hacer frente a esta situación ?.

Abdellatif BERBICH

Nutrition et développement général au cours de la vie intra-utérine et de la première enfance

La médecine considère que la malnutrition est l'un des fléaux les plus étendus dans le monde d'aujourd'hui, particulièrement dans les pays en voie de développement. Souvent les cas de malnutrition apparaissent sous forme de manque de protéines, calories, vitamines et sels minéraux. Une évolution extraordinaire s'est faite dans les moyens de guérir ces cas.

La malnutirition précoce a des conséquences sur le développement de l'intellect et l'acquisition des connaissances, puisque le cerveau est l'organisme du corps le plus exposé aux dommages résultant de cette malnutrition, dans la mesure où l'activité fonctionnelle du cerveau humain ne dépend pas seulement de son poids mais aussi de la richesse de ses structures essentielles.

Pour éclairer ce point il nous suffit de savoir que le cerveau humain, pour atteindre son développement maximum, a besoin d'un long temps qui commence pendant la grossesse et s'étend depuis la naissance jusqu'à la maturité. Développement qui n'est pas linéaire mais qui traverse deux étapes dites de «développement rapide». La première étape comprend les trois premiers mois de grossesse et il semble que la malnutrition à laquelle s'expose la mère est la cause des accidents du fœtus ; la deuxième étape commence à la moitié de la période de grossesse jusqu'à l'âge de deux ans ou deux ans et demi du bébé. Durant cette seconde étape de développement rapide les besoins du cerveau en éléments nutritifs grandissent de façon étonnante et, quand il sont insuffisants, ils peuvent provoquer des accidents, aussi bien dans le poids du cerveau que dans son volume ou dans sa structure nerveuse.

Et l'on observe que lorsque la malnutrition ne touche pas l'enfant à l'étape fragile de son développement, il est possible de guérir les altérations, à condition de s'y prendre vite et fort, aussi bien en matière d'alimentation que pour ce qui est du milieu environnant.

* * *

The Effect of Nourishment in the Growth of the Brain Throughout the Infant's life in the First years of Human life

Medical science considers malnutrition as one of the worst problems that is spreading in our world today, especially in Third World Countries. Malnutrition

is mainly due to the diminution of proteins, calories, vitamins, and mineral salts. Today, we find a surprising progress in developing methods to treat these cases.

An early malnutrition has bad effects on mental growth and intellectual learning. Because the brain system is the most sensitive in the human body, it faces most of the afflictions that result from malnutrition. The active function of the human's brain does not depend on its weight only, for it also depends on the richness of the basic structures.

To explain this point, it's enough to know that full growth of the brain occurs in many years. These years start with the pregnancy period, and then it extends from birth to maturity. This growth of the brain does not go through a fixed procedure, but it passes through two specific stages : the first stage is called «quick growth» It starts during the first three months of pregnancy. Apparantly the unhealthy diet of the mother, during this stage, causes problems for the featus. The second stage is called the «Acceleration of growth» begins from the middle of pregnancy till the infant reaches two or two years and a half. During this stage of quick growth, the brain's needs for nourishing elements will double in a very dramatic way. In the case of low nourishment, there will be banes that will affect the brain's weight, size and nervous system.

If malnutrition does not occur during the sensitive period of the brain's growth, then it is possible to treat these damages. This is possible, with quick and intensive medical treatment, both on the nourishment level and the surrounding environment level.

* * *

La influencia de la alimentación en el crecimiento del cerébro durante la vida del feto en el útero y durante los primeros años de la vida humana

La medicina considera que la desnutrición es una de las plagas más extendidas en el mundo de hoy, particularmente en los países en vías de desarrollo. A menudo los casos de desnutrición aparecen en forma de falta de proteínas, calorías, vitaminas y sales minerales. Una evolución extraordinaria ha tenido lugar en los medios de curar estos casos.

La desnutrición precoz tiene consecuencias sobre el desarrollo del intelecto y la adquisición de conocimientos, ya que el cerébro es el organismo del cuerpo más expuesto a los daños resultantes de la desnutrición, en la medida en que la actividad funcional del cerebro humano no depende únicamente de su peso sino también de la riqueza de sus estructuras esenciales.

Para esclarecer este punto nos basta con saber que el cerébro humano, para alcanzar su desarrollo óptimo, necesita un tiempo muy largo, empezando durante

el período de embarazo y extendiéndose desde el nacimiento hasta la madurez, no siendo este desarrollo ordenadamente lineál sino caracterizándose por atravesar dos etapas llamadas de «desarrollo rápido» La primera cubre los tres primeros meses del embarazo y parece que la desnutrición a la que se expone la madre es la causa de accidentes aparecidos en el feto. La segunda empieza a la mitad del período de embarazo hasta alcanzar el bebé los dos años y medio. Durante esta etapa de dezarrollo rápido se multiplican de manera asombrosa las necesidades del cerébro en elementos nutritivos y, en caso de ser insuficientes, pueden provocar accidentes en el peso del cerébro, en su volumen, en su estructura nerviosa.

Y se observa que cuando la desnutrición no lesiona al niño durante la etapa frágil de su desarrollo, es posible curar las alteraciones, a condición de que la cura sea rápida y fuerte, tanto en materia de nutrición como en materia de entorno.

3ème Partie

ACTIVITÉS DE L'ACADEMIE

DIX ANS D'ACTIVITES DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

RAPPORT DE MONSIEUR ABDELLATIF BERBICH SECRETAIRE PERPETUEL

L'Académie du Royaume du Maroc célébre cette année son 10ème anniversaire. En cette heureuse occasion, j'ai le grand honneur d'adresser à Son Auguste Roi, Sa Majesté Hassan II, Fondateur et Protecteur de cette Institution, en mon nom et au nom de toux ceux d'entre vous qui êtes ici présents mes sincères félicitations et mon sentiment profond de gratitude pour la grâcieuse sollicitude de Sa Majesté ainsi que sa protection, priant Dieu le Tout Puissant de la protéger et de l'assister et de couronner ses espoirs de succès.

* * *

Le potentiel culturel et scientifique de l'Académie du Royaume du Maroc est enrichi chaque année par l'admission de nouveaux membres dont la renommée, la sagesse et la contribution à la défense des valeurs intellectuelles et spriritūelles sont les dénominateurs communs. La présence de cette élite de penseurs et d'érudits au sein de l'Académie constitue la meilleure garantie pour l'accomplissement de la noble mission de l'Académie qui lui est assignée par Sa Majesté Hassan II dans son discours inaugural à cette illustre Institution.

«Si Dieu fait que cette Académie prenne part au cortège de la civilisation, et qu'elle aide à répandre la confiance, alors, vous, tous ici réunis, avec votre pensée noble et votre cœur généreux, éclairez en ces temps incertains, la voie qui mène à des temps nouveaux, et porterez votre part de la mission que Dieu assigne à l'homme».

Sa Majesté peut avoir été inspiré ici du verset coranique : ﴿ oui le dépôt que nous avions proposé aux cieux et à la terre et aux montagnes, ils ont refusé de le porter, et en on eu peur, alors l'homme le porta... ﴾ (S. 33. V. 72). Les colloques organisés par l'Académie du Royaume du Maroc ont fourni le cadre pour un dialogue ininterrompu et fructueux entre les membres distingués de cette Académie et les experts internationaux et nationaux représentant toutes les nationalités, toutes croyances et toutes les tendances intellectuelles.

En fait, cette liberté de pensée, le libre échange de savoir et de la critique objective sont devenus l'approche intellectuelle qui distingue les travaux de cette Académie.

Je ne peux prétendre que l'Académie du Royaume du Maroc ait été capable de maîtriser ces aptitudes durant les dix dernières années, mais elle a bel et bien réussi, grâce à Dieu, à poser les fondations de ces principes, c'est, cependant avec un grand plaisir et beaucoup de fierté que je ferai devant vous un exposé rapide des activités de l'Académie du Royaume du Maroc durant la première décennie de son existence :

Des hommes éminents de toutes nationalités et écoles de pensée ont continué de rejoindre cette Académie, consolidant ainsi ses efforts pour la promotion de la culture et de la science. C'est également par la volonté de Dieu que quelques uns de ces académiciens nous quittent, mais seulement physiquement, car leur travail maintient leur esprit à jamais vivant parmi nous, tout d'abord parmi ces regrettés collègues est notre Secrétaire perpetuel, Monsieur Ahmed Taïbi BENHIMA. Avec la ferveur et la confiance en Dieu je prie pour la bénédiction de Dieu pour les âmes de tous nos regrettés confrères dont l'existence exemplaire continue d'inspirer et de guider notre action.

* * *

Durant la première décennie de son existence, l'Académie du Royaume du Maroc a complété son adhésion statutaire, avec 30 membres résidents marocains et 30 membres associés provenant d'autres nations d'Europe, d'Amérique, d'Afrique et d'Asie. Sa Majesté le Roi a exceptionnellement conféré la dignité de membre associé à plusieurs autres personnalités qui ont fait une contribution marquante à l'édification de la civilisation humaine. Nous sommes ravis de voir le nombre de ces confrères augmenter.

l'Académie du Royaume du Maroc comprent aussi parmi ses membres des correspondants choisis parmi les érudits étrangers et des hommes de pensée. Avec l'active participation de ces éminents académiciens ainsi que des experts internationaux ou nationaux, l'Académie du Royaume du Maroc a été capable de discuter un grand nombre de sujets d'ordre scientifique, juridique, moral et économique et d'intérêt pour l'humanité que Sa Majesté le Roi a choisi de soumettre à sa réflexion. En fait ces colloques annuels ont constitué l'un des moyens par lesquels Sa Majesté le Roi, Protecteur des Sciences et des Arts, a choisi de diriger le travail de l'Académie, de consulter ses membres et en même temps d'éclairer l'opinion publique internationale du fruit de son débat.

Un examen minutieux des thèmes d'études débattus au sein de l'Académie durant les dix dernières années révèle une unité remarquable dans leur timing, leur formulation et leur contenu. Le lieu entre ces divers sujets de discussion est la déontologie du problème en jeu. C'est avec cette approche spéciale que l'Académie a affronté son premier thème d'étude, la déontologie de la télématique. Ceci a été suivi de la discussion d'un sujet opportun qui pourrait bien déterminer l'avenir de la civilisation humaine, en l'occurrence Al-Qods.

L'Académie a alors considéré «Les crises de valeurs spirituelles et intellectuelles dans notre monde contemporain», «De la déontologie de la conquête de l'espace» et a examiné le problème «De la conciliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques». Des problèmes qui ont trait au développement ont été aussi débattus, tels que celui de «L'eau, nutrition et démographie», de la «Piraterie au regard du droit des gens», de la «Pénurie au Sud, Incertitude au Nord : constat et remèdes», «Mesures à décider et à mettre en œuvre en cas d'accident nucléaire», «Université, Recherche et Développement» et finalement «De la nécessité de l'Homo-Economicus pour le décollage économique de l'Europe de l'Est».

Jusqu'à présent, l'Académie a tenu dix neuf sessions plénières, cinq d'entre elles étaient tenues à Rabat, trois hors du territoire national (deux fois à Paris et une fois à Madrid), quatre à Fès, trois à Marrakech, deux à Agadir, une à Casablanca et une à Tanger.

Il est utile de mentionner également le fait que l'Académie du Royaume du Maroc fut de manière solennelle reçue par l'Académie Française à Paris en Juin 1987. Sur le plan national les villes marocaines qui ont été les hôtes des sessions de l'Académie ont fait d'une telle occasion un événement culturel et intellectuel.

Le nombre total d'experts qui ont pris part aux activités de l'Académie a atteint le nombre de 100, dont la moitié étaient des marocains et l'autre moitié constituée d'institutions scienctifiques étrangères, d'agences gouvernementales ou d'organisations internationales.

Cet important groupe d'intellectuels et d'experts de plusieurs nationalités, races, croyances, religions et idéologies se sont rencontrés au sein de l'Académie du Royaume du Maroc oú ils ont exposé et débattu des idées entre eux, acceptant la critique de l'un et de l'autre avec humilité. Dans cette atmosphère-ci de dialogue, ouvert, l'Académie a élaboré son approche intellectuelle spécifique caractérisée par la tolérance, la sympathie et la critique courtoise acceptée de bonne grâce.

La renommée de l'Académie du Royaume du Maroc a atteint un nombre d'institutions scientifiques dans des pays étrangers et arabes par :

* L'échange de publications (la liste du courrier de l'Académie compte 800 institutions scientifiques).

* La participation de l'Académie dans les activités de l'Union Académique Internationale dont elle est membre à part entière.

* L'affiliation au réseau d'organisations scientifiques du Tiers-Monde établi par l'Académie des sciences du Tiers-Monde.

L'échange de visites avec les divers milieux journalistiques et diplomatiiques, scientifiques, académiques qui s'intéressent aux activités de l'Académie, telles que l'Académie de la langue Arabe du Caire, ou l'Académie Africaine des Sciences...

Une autre facette de l'action de l'Académie consiste en séances ordinaires bi-mensuelles auxquelles sont convoqués les académiciens résidents. L'Académie se réunit aussi régulièrement et sur l'invitation du Secrétaire Perpétuel dans ses commissions spécialisées qui comprennent :

* La Commission du patrimoine.

* La Commission des valeurs intellectuelles et spirituelles.

* La Commission de la langue Arabe et

* La Commission des Sciences, de la technologie et de l'éducation.

L'Académie compte aussi trois commissions permanentes qui se réunissent à la demande du Secrétaire Perpétuel :

* La Commission des travaux.

* La Commission administrative et

* La Commission des Publications et de la Revue.

Les activités scienctifiques de l'Académie du Royaume du Maroc durant cette dernière décennie furent mises en vedettes par la sortie de 40 publications.

* La revue «Academia» dans les quatres langues vivantes officielles.

* Les comptes-rendus des colloques de l'Académie suivis de résumés en des langues officielles de l'Académie.

* Les conférences organisées par l'Académie.

* Les actes des séminaires organisés par les commissions spécialisées de l'Académie.

* Et finalement l'édition de travaux manuscrits de référence en littérature, études Islamiques et Sciences.

* * *

En signe d'estime pour ses membres et d'encouragement envers eux dans l'accomplissement de leur mission, Sa Majesté le Roi a honoré l'Académie de sa Grâcieuse Protection. Cette sollicitude royale fut symbolisée au cours de l'audience solennelle accordée à l'Académie le Vendredi 20 Novembre 1982 durant laquelle Sa Majesté a décoré les membres de l'Académie.

* * *

J'ai essayé de donner un aperçu dans ce rapport des résultats des dix années d'efforts inlassables et discrets de la part de l'Académie. A l'époque où ces efforts étaient entrepris, ils semblaient plutôt limités et incomplets. Cependant, vus dans une perspective historique, ils constituent en effet un accomplissement important.

Regardons plus en avant vers un lendemain plus riche et plus prometteur comme cela a été le désir de son Auguste Majesté tel qu'il l'a exprimé dans son discours inaugural.

«Nous sommes certains que les efforts de l'Académie contribueront beaucoup au rayonnement de la vie spirituelle, au progrès de la science, au renforcement des liens entre les individus et les nations, et celui de l'entente mutuelle qui forge le bonheur de l'humanité».

* * *

Progress Report
Ten Years of the Academy's Activities

Abdellatif BERBICH

The Academy of the Kingdom of Morocco is celebrating today its 10th anniversary. On this felecitous occasion, I have the signal honour to address to His August Majesty King Hassan II, founder and protector of this company, in my name and on behalf of all of you here present, my sincere congratulations and my deeply felt gratitude for His Majesty's gracious solicitude and protection, praying God Almighty to protect and assist Him and crown His hopes with success.

The scientific and cultural potential of the Academy of the Kingdom of Morocco is enriched each year by the admission therein of new members whose personal renown, wisdom, and contribution to the defence of the spiritual and intellectual values are the common denominators. The presence of this elite of thinkers and scholars in the Academy constitutes the best guarantee for the fulfitment of the Academy's noble mission assigned to it by His Majesty Hassan II in his inaugural address to this illustrious institution :

«If it is God's will that this Academy shares in the establishment of peace and the renewal of hope in this time of change and convulsion, the men of culture and good will assembled in this institution will have to lead the way to the new era, making it easier for man to carry out the divine mission he has been entrusted with».

His Majesty may have been inspired here by the Qur'anic verse :

«We offered the Trust to the Heavens and the Earth and the Mountains ; but they refused to undertake it, being afraid thereof ; But man undertook it ; He was indeed unjust and foolish» (S. 33, v. 72).

The symposiums organized by the Academy of the Kingdom of Morocco have provided the framework for a fruitful and an uninterrupted dialogue between the distinguished members of this Academy and the national and international experts who represent all nationalities, creeds and intellectual tendencies. In fact this freedom

of thought, the free exchange of knowledge and objective criticism became the intellectual approach which distinguishes the works of this Academy.

I cannot pretend that the Academy of the Kingdom of Morocco was able to master these aptitudes during the last years, but it did succeed - God willing - in laying the foundations for these principles.

It is, therefore, with great pleasure and pride that I shall rapidly review before you, honourable colleagues, the activities of the Academy of the Kingdom of Morocco during the first decade of its life.

Eminent men of all nationalities and schools of thought continued to join this Academy, thus consolidating its efforts for the promotion of culture and science. It is also God's will that some of these academicians leave us, but only physically, for their work maintains their spirit ever alive among us.

First among these regretted colleagues is our first Permanent Secretary, Mr. Ahmed Taïbi Benhima. With fervour and trust in God I pray for the blessing of his soul. I also implore the benediction of God on the souls of all our regretted colleagues whose examplary life continues to inspire and guide our action.

During the first decade of its life, the Academy of the Kingdom of Morocco completed its statutory membership, with 30 Moroccan resident members and 30 associate members from other nations of Europe, America, Africa and Asia. His Majesty the King has exceptionally confered the dignity of associate member to several other personalities who have made outstanding contributions to the edification of human civilization. We are delighted to see the number of these fellows increase.

The Academy of the Kingdom of Morocco also includes among its members a number of corresponding academicians chosen among foreign scholars and men of thought.

With the active participation of the these eminent academicians, as well as the national and international experts, the Academy of the Kingdom of Morocco has been able to discuss a great number of scientific, juridical, moral, economic and topics of interest to humanity which His Majesty the King chose to submit to its reflection. In fact these annual symposiums constituted one of the means by which His Majesty the King, protector of the sciences and the arts, chose to direct the work of the Academy, consult its members and at the same time enlighten international public opinion with the fruit of its debate.

A close examination of the study themes debated in the Academy during the last ten years reveals a remarkable unity in their timing, their formulation and their content. The binding link between these various topics is the deontology of the issue at stake.

It is with this special approach that the Academy takled its first study theme, the Deontology of Telematics. This was followed by the discussion of a timely topic which might well determine the future of human civilization, that is al-Qods.

The Academy then looked into the Crisis of the Spiritual and Intellectual Values in our Contemporan World, reflected on the Deontology of the Conquest of Space, and examined the issue of Political Continuity in the Presidential Democratic, Systems. Issues related to development were also discussed, such as Water, Nutrition and Demography, Piracy and the Law of Nations, Scarcity in the South and Uncertainty in the North, Measures to be taken in case of a Nuclear Accident, University, Scientific Research, and Development, Necessary Conditions for the Establishement of Regional Groupings, and finally the Necessity of the Homo-Oeconomicus for Eastern Europe's Economic Take-off.

Until now, the Academy has held nineteen plenary sessions, five of which were held in Rabat, Three outside the national territory (twice in Paris and once in Madrid), four in Fes, three in Marrakech, two in Agadir, one in casablanca and one in Tangier.

It is worth mentioning also that the Academy of the Kingdom of the Morocco was solemnly received by the Academie Fançaise in Paris in June 1987. On the national level, the Moroccan cities which hosted the Academy's sessions have made of such occasion a major intellectual and cultural event.

The total number of experts who have taken part in the Academy's activities has reached 100, half of which were Moroccans and the other half belonging to foreign scientific institutions, governmental agencies or international organizations.

This important group of intellectuals and experts of various nationalities, races, creeds, religions and ideologies have met within the Academy of Kingdom of Morocco where they exposed and discussed each other's ideas, accepting one another's criticism with humility. In this atmophere of open dialogue the Academy elaborated its specific intellectual approach characterized by toterance, fellow-feeling and curteous criticism accepted with good grace.

The renown of the Academy of the Kingdom of Morocco has reached a number of scientific institutions in Arab and foreign countries through :

– the exchange of publications (the Academy's mailing list counts 800 scientific institutions.) ;

– the participation of the Academy in the activities of the International Academy Union of which it is a full member ;

– the affiliations with the Network of Scientific Organizations of the Third World established by the Third World Academy of Sciences ;

– the exchange of visits with the various academic, scientific, diplomatic and journalistic milieux interested in the Academy's activities, such as the Arabic language Academy of Cairo, or the African Academy of Sciences.

Another facet of the Academy's action are the bi-monthly ordinary sessions to which are convened the resident academicians. The Academy also meets regularly and on the invitation of the Permanent Secretary in its specialized committees which include :

– the Heritage Commitee ;

– the Spiritual and Intellectual Values Committee ;

– the Arabic Language Commitee and

– the Education, Sciences and Technology Commitee.

The Academy also counts three permanent committees which meet on the demand of the Permanent Secretary :

– the Working Committee ;

– The Administrative Committee ; and

– the Review and Publication Committee.

The scientific activities of the Academy of the Kingdom of Morocco during this past decade were highlighted by the issuing of 40 publications :

– the review ACADEMIA in the four official working languages ;

– the proceedings of the Academy's symposiums followed by abstracts in the Academy's working languages ;

– the conferences organized by the Academy ;

– the proceedings of the seminars organized by the Academy's specialized committee ;

– and finally the editing of manuscript reference works in literature, Islamic studies and sciences.

Honourable Colleagues,
Ladies and Gentlemen,

As a token of esteem for its members and as an encouragement to them in the accomplishment of their mission, His Majesty the King has honoured the Academy with His gracious protection. This royal solicitude was symbolized in the solemn andience accorded to the Academy on Friday November 20, 1982 during which His Majesty decorated the Academy members.

I have attempted to outline in this report the results of ten years of discreet but untiring efforts on the part of this Academy. At the time these efforts were undertaken, they seemed rather limited and incomplete. However, seen from a historical perspective, they constitute indeed an important accomplishment.

Let us look forward to a richer and more promising tomorrow as is the desire of His August Majesty which He expressed in the inaugural address :

«We trust that this Academy's efforts will greatly contribute to the radiance of spiritual life, the advancement of science, the strengthening of bonds between individuals and nations, and that of mutual understanding which makes of human happiness».

Discours prononcé
à l'occasion du Dixième anniversaire
de l'Académie du Royaume du Maroc

par M. Maurice DRUON au nom des membres associés

Messieurs,

C'était hier. C'était hier, ici, à Fès, ville de lumière, de savoir et de mémoire. C'était hier que nous pénétrions dans cette même salle, accueillis par Si Taïbi Benhima, - Dieu l'ait en sa garde -, avec cette diplomatie vivace et affectueuse qui est restée un des traits de notre Compagnie. C'était hier que, prenant nos places, nous ouvrions les yeux sur notre diversité, que l'«alem» s'installait à côté du savant, l'homme d'Etat à côté de l'astronaute, le philosophe à côté du juriste, l'économiste à côté de l'historien, et que sur nos costumes et nos visages se reflétaient les quatre horizons du monde.

C'était hier que Sa Majesté le Roi Hassan II nous adressait les nobles paroles par lesquelles il appelait la bénédiction divine sur cette nouvelle Académie et, par les espoirs et la confinace qu'il mettait en elle, lui dictait ses devoirs.

Trois ans et demi plus tôt, il avait conçu le projet d'une institution intellectuelle correspondant aux vocations géographiques et historiques du Maroc comme aux ambitions lélgitimes qu'un grand souverain moderne pouvait avoir pour un pays de telle qualité que le sien. Il avait voulu que cette institution fût classique dans sa forme, ses règles et ses structures, mais nouvelle dans sa composition et ses activités, qu'elle alliât prestige et labeur, qu'elle fût une place d'échange entre les cultures et de synthèse des disciplines de l'esprit, qu'elle pût offrir aux autres nations le meilleur de l'intelligence marocaine et au Maroc le meilleur du savoir universel contemporain, qu'elle conduisît des études et prononcât des avis sur les grands problèmes de civilisation, et qu'elle constituât enfin, par l'excellence des ses membres et leur souci de référence aux valeurs spirituelles, un de ces magistères moraux dont la planète semble avoir grand besoin.

Pour réaliser ce projet, Sa Majesté avait réuni quelques uns de ses conseillers les plus intimes et des ses plus anciens amis ; Elle avait Elle-même participé à toutes les étapes de l'étude, et s'était souciée de la rédaction de chaque article du Dahir qu'Elle promulgua le 8 octobre 1977.

Conception, gestation, naissance : le 22 avril 1980, l'Académie du Royaume du Maroc manifestait ici, pour la première fois, dans la lumière du printemps, sa toute nouvelle existence.

Dix ans, c'est un éclair dans la marche du cosmos, un soupir dans le déroulement de l'Histoire ; mais c'est un grand morceau de notre durée propre. Et pourtant c'était hier, tant l'événement s'est gravé dans notre mémoire, tant il est resté présent à notre conscience. Aussi éprouvons-nous quelque surprise à célébrer cet annicersaire. Oui, dix ans seulement et dix ans déjà.

Le sentiment de l'écoulement du temps, dans les académies, nous est donné, hélas, par les disparitions. Les institutions pérennes y sont vouées, et si jeune que soit la nôtre, déjà, derrière certains fauteuils, nous voyons se profiler l'ombre d'un frère qui nous a été repris.

J'ai déjà évoqué, premier enlevé à notre amitié, Taïbi Benhima diplomate d'exception. Mais je vois, après lui, l'ombre impressionnante du grand théologien et écrivain Rahali Farouki, celle du poète et aumônier des armées Abderrahman Doukkali à la voix incantatoire, comme je vois le sourire d'infinie bonté, sous la blancheur immaculée de son «selham», du sage Abdellah Guennoun, et celui, plus ironique mais aussi affable, de Hadj M'hamed Bahnini, le premier nommé, le premier choisi à la fondation de la Compagnie, ce parfait érudit de double culture, universitaire, homme de lettres et ministre, grand serviteur du Roi à travers tout le règne.

Dans les rangs de ceux que l'on veut bien appeler les frères associés, la maladie nous a privés de Monseigneur Norbert Calmels, qui avait joué un rôle incomparable dans les rapports entre le Maroc et le Vatican, et préparé l'inoubliable visite de Jean-Paul II à Casablanca ; la maladie ou l'âge nous ont privés du silence attentif du Huan Xiang, qui portait avec lui le mystère de la Chine immense, comme de l'élégant Abdelmounim Kaïssouni le plus Londonien des Egyptiens et le plus humaniste des économistes ; ils nous ont privés de trois hommes d'Etat qui furent au sommet des responsabilités, chacun dans son pays : le Président Amadou Ahidjo, qui passait dans nos travées revêtu de ses tenues aux couleurs de l'Afrique profonde ; le Président Constantin Tsatsos, juriste et philosophe, incarnation de la Grèce éternelle, et qui disait volontiers que de toutes les Académies auxquelles il appartenait, l'Académie du Maroc était celle oú il se trouvait le plus heureux ; le Présidents Edgar Faure, juriste lui aussi, et historien, qui avait joué un rôle décisif dans l'indépendance du Maroc et permis qu'entre le Maroc et la France les lumières demeurassent toujours plus fortes que les ombres. Et l'éloquent Sobhi Saleh nous a été enlevé par la violence et la haine qui ensanglantent un Proche-Orient déchiré.

Puisse l'au-delà. en lequel tous avaient foi, leur réserver un séjour de paix.

Mais les maisons comme la nôtre je veux dire les Académies, offrent aux peines que nous envoie la destinée une compensation qu'on a rarement ailleurs ; à chaque deuil répond l'arrivée d'une nouvelle amitié en puissance, d'une nouvelle promesse

d'amitié enrichissante dont il nous appartient de faire une réalité. Ainsi en a-t-il été ici au fil des années.

A présent, il convient de nous demander si nous avons répondu, au long de ces dix ans, aux espoirs placés en nous, et si nous avons rempli les missions qui sont notre raison d'être.

A relire le Dahir d'institution, les objectifs y sont placés si haut que le Souverain, dans Sa Sagesse, nous a gardés de pouvoir être jamais complètement satisfaits de nous-mêmes.

Il est bon d'avoir un idéal tracé vers lequel on tend, mais qu'on ne peut vraiment atteindre. C'est la condition de l'effort.

Je n'ai pas qualité ni compétence, je le regrette, pour parler les travaux conduits, quinzaine après quinzaine, par les académiciens résidents et qui touchent la linguistique, l'étude des textes, l'histoire, la philosophie, le droit, la littérature, la théologie. Ce serait grande présomption de ma part que de m'aventurer, non pas même à les commenter, mais seulement à les détailler. Je sais seulement que ces travaux sont nombreux, qu'ils sont persévérants, et que leur haute valeur témoigne avec éclat de la place du Maroc dans la civilisation et la culture arabe.

Qu'il me soit permis de limiter mon regard aux sessions plénières de la Compagnie.

Oú, quand, dans quel pays, a-t-on vu une assemblée d'hommes venus de tant de points de la planète, experts en de si diverses disciplines, et confessant toutes les grandes religions, débattre avec conscience et sérénité de tels sujets que «l'Eau, la Nutrition, la Démographie», «la Déontologie de la conquête de l'Espace», les relations entre «Potentialités économiques et Souveraineté diplomatique», les problèmes posés par «les Nouvelles Maîtrises de la procréation humaine», «la Pénurie du Sud et les Incertitudes du Nord», les liens entre «Université, Recherche et Développement». les formes modernes de la «Piraterie», et - mon énumération n'est pas exhaustive - jusqu'au «Péril acridien», tous thèmes soumis à notre réflexion par le Roi Hassan II, et qui manifestent bien l'ordre et la variété des préoccupations d'un Chef d'Etat dont la pensée couvre, si je puis dire, tout le champ des questions qui se posent à l'humanité en notre fin de siècle, ou de cycle ?

Certes, nos réponses n'ont pas été unanimes, et nous n'avons pas toujours réussi à formuler des avis qu'on pût tenir pour définitifs. Mais le seul fait que nous ayons pu tenir nos assises sur de tels sujets est en soi exceptionnel et exemplaire.

Une autre originalité de cette Académie est d'être itinérante et de pouvoir se réunir, non seulement en toute ville du royaume chérifien, allant de Fès à Marrakech, à Rabat à Agadir, à Tanger, à Casablanca, mais même de tenir session hors du territoire national, faculté dont son Protecteur l'a invitée à bénéficier trois fois durant ces dix ans, en France à deux reprises et une fois en Espagne.

Et c'est ainsi que l'académie française a eu l'honneur d'accueillir une autre académie entière et de tenir solennellement séance commune, ce qui ne s'était jamais vu, ni sous la Coupole, ni ailleurs, en trois siècles et demi.

Tout cela ne va pas sans une organisation administrative et matérielle considérable, une logistique efficace, et mille difficultés générales ou particulières qu'il faut résoudre.

Comment ne rendrions-nous pas hommage en cet instant à celui qui est le maître d'œuvre de nos assemblées et de nos migrations, cet homme apparemment infatigable, à l'esprit toujours dispos, à l'oreille toujours disponible, et qui semble avoir inventé le métier relativement rare de Secrétaire perpétuel. Le médecin est, par vocation, oublieux de soi-même. C'est là sans doute le secret d'Abdellatif Berbich.

Une Académie est et doit être une place d'amitié. Autrement elle n'est qu'«académique», au sens froid, convenu et compassé du terme, et elle manque d'agrément et d'invention.

L'Académie du Royaume du Maroc s'est révélée une place d'amitié internationale. Il n'est que de constater le plaisir avec lequel, semestre après semestre, nous nous retrouvons.

C'est une grande force que l'amitié, et je ne pense pas que l'on ait assez étudié son importance et ses effets dans la politique, la diplomatie et même la stratégie. Parmi les «lobbies» auxquels on attribue tant d'influence et de puissance, il en est un qu'on oublie toujours : le lobby du cœur. «J'ai assisté à la naissance de la méta-diplomatie» écrivait un journaliste qui avait suivi l'une de nos premières réunions.

Notre Compagnie constitue à travers le monde un réseau d'amitiés qui dans les occasions les plus diverses, et parfois les plus inattendues peut servir les causes auxquelles nous sommes attachés, la cause marocaine en tout premier, mais d'autres aussi qui intéressent le pays ou les entreprises de chacun de nous.

Je n'en veux qu'un exemple. Si l'Université internationale de langue française au service du développement africain, qui, à la suggestion des Egyptiens s'appelle Université Senghor, et qui doit s'ouvrir prochainement à Alexandrie afin de fournir à l'Afrique ce dont elle a le plus besoin, des cadres de haute formation dans les domaines de la gestion des affaires publiques et privées, de la nutrition et de la santé, si cette université nouvelle, dont les programmes comporteront des cours de civilisation générale et des cours d'arabe, peut être en mesure d'ouvrir ses portes deux ans et demi seulement après que sa création ait été décidée, c'est grâce en bonne partie au réseau d'amitiés ici constitué, et aux membres de cette Compagnie qui ont apporté leur aide à sa préparation.

Au long de ces dix ans, nous aurons été témoins de l'essor du Maroc, avec l'agréable sentiment d'avoir sinon appuyé, ce qui serait bien exagéré et très immodeste, mais seulement accompagné cet essor.

Ne constatons nous pas, à chacun de nos voyages, combien sont plus propres les villes et combien plus verts les champs que nous traversons ? Des quartiers entiers, et de belle architecture, se construisent d'une année sur l'autre, des mosquées s'édifient et des bâtiments publics. Dans les plaines tournent ces grands arroseurs qu'on appelle centres-pivots ; chaque année, un nouveau barrage crée une nouvelle réserve de vie et de prospérité, les lacs collinaires se multiplient, comme se multiplient les écoles. Les produits sont abondants, non seulement les produits locaux qui font ruisseler de couleurs les marchés et les souks, mais les produits d'Europe, d'Amérique et d'ailleurs.

Dénombrons toutes les conférences, tous les colloques internationaux, médicaux, universitaires, scientifiques, juridiques qui se tiennent au Maroc comme s'il était le lieu idéal de ces rencontres.

Les mesures prises pour la privatisation et le développement des entreprises, y compris demain l'ouverture de zônes franches, stimulent l'économie. Dans un monde oú tous les Etats sont peu ou prou endettés, le Maroc a pris place parmi les nations auxquelles les grands organismes financiers internationaux font confiance. Et l'on a pu lire récemment dans un quotidien français ce titre : «Le Maroc, nouveau «tigre» économique de l'Afrique». Et je n'ai rien dit de l'extraordinaire mouvement diplomatique qui s'opère ici à longueur d'année.

Nous sommes nombreux Messieurs, qui, par profession ou par goût, fréquentons l'Histoire. Imaginons comment les historiens dans cent ans verront et décriront cette période prestigieuse du Maroc, et tout ce qui s'y sera accompli !

Gardons-nous toutefois de visions irénistes, et restons lucides dans notre enthousiasme. Les mesures incitatrices n'ont pu encore produire leurs effets sur toutes les parties de la population. Mais ce ne sont pas les infiltrations sournoises d'un intégrisme intolérant, toujours porteur de misère, qui pourront contribuer à réduire le paupérisme dans un Etat tolérant.

Le succès dérange toujours les envieux et les grincheux. A comparer les succès obtenus par une monarchie libérale et les insuccès enregistrés par des régimes marxistes à parti unique, il y a en effet de quoi déranger certains. Mais plutôt que de maintenir des foyers d'hostilité pour affaiblir celui qui réussit, ne serait-il pas plus sage et plus productif de se demander pourquoi il réussit, et de s'inspirer de ses méthodes ?

Quant anx grincheux, il existe certaines organisations dont le fonds de commerce est de rechercher les torts qu'elles pourraient dénoncer.

Certes il n'est pas de société humaine, quelle que soit l'organisation de l'Etat, qui soit exempte de «bavures» comme on les appelle, et où des fonctionnaires par excès de zèle ou dispositions de caractère n'abusent de leur parcelle de pouvoir et ne se livrent à des excès.

Mais pourquoi les dites oragnisations déploient-elles pour l'heure, au nom des droits de l'homme, toute leur activité à l'encontre du Maroc, oú les opinions peuvent

s'exprimer par voix parlementaire et voix journalistique, où les lois protègent la personne humaine et où des sanctions de justice sont prononcées contre les fonctionnaires sortis de leur devoir, alors que ces mêmes organisations se sont montrées si singulièrement discrètes pendant tant d'années, sur la Roumanie de Ceaucescu, ou sur le khomeinysme iranien ? Ce serait dérisoire si ce n'était irritant.

Il y a peut-être une explication, Messieurs.

Le mot de monarchie écorche l'oreille des grincheux qui en sont encore, avec deux cents ans de retard, à assimiler monarchie et tyrannie.

Or regardons le grand axe libéral qui forme le front occidental du vieux monde. La Grande Bretagne a une Reine, qui ne gouverne pas, mais garantit la durée de la plus vieille et la plus stable démocratie du monde.

La France a été dotée par le Générale de Gaulle d'une Constitution, à certains égards monarchique, qui permet, à travers les successifs Présidents, une permanente conduite notamment de la politique étrangère, de la stratégie, et qui confère de la stabilité à l'Etat. L'Espagne a un roi qui ne gouverne pas, mais qui arbitre, et qui lui aussi garantit la stabilité constitutionnelle de la nation. Le Maroc a un roi qui gouverne, mais avec une constitution, un parlement, et des institutions qui d'année en année s'affermissent.

Parmi les quelques cent soixante Etats qui composent aujourd'hui les Nations Unies, et à Considérer tous les craquements, tous les affrontements et toutes les pénuries qui agitent ou accablent l'humanité, ces quatre pays là ne comptent-ils pas, les choses étant ce qu'elles sont, parmi les plus honorables, les plus estimables de la planètes et les plus prospères ou en voie de le devenir.

Nous pouvons, Messieurs, remercier le Roi Hassan II d'avoir créé il y a dix ans l'Académie du Maroc, comme le peuple marocain peut le remercier de l'œuvre immense qu'il a accomplie pour lui. Et nous devons prier Dieu qu'il accorde à ce grand Souverain humaniste, généreux, novateur, de poursuivre longtemps son œuvre.

Récéption de M. Eduardo R. de Arantes e Oliveira

membre associé

de l'Académie du Royaume du Maroc

1re session de l'année 1990

Fès

7 mai 1990

Discours de M. Eduardo R. de Arantes e Oliveira

«Reflections on Structural Mechanics»

Although Geometry, not Mechanics, was the first science applied to building, it was Mechanics, not Geometry, that allowed Structural Engineering to develop as a field of scientific activity.

In order to better appreciate *the role of Mechanics in Structural Engineering*, let us remark first that, under a strictly scientific point of view, Mechanics would, in principle, not be indispensable to predict the behaviour of a given structure.

A method which has namely been used for predicting the behaviour of certain types of structures is based on *the observation of the prototype*. Admitting that the structure remains unchanging or, more precisely, that its properties do not change significantly beyond the observation period, mathematical models of behaviour can easily be established resorting to the data collected and, therefore, future responses easily be predicted.

The annoying point about this method, which keeps its interest for safety control, is that it provides no way for predicting the behaviour of a structure before it has been built.

Another possibility would consist in *studying the behaviour of an equal or identical structure*.

The difficulty associated with this method is that no two objects are really equal or identical in Nature.

Therefore, when we state that two objects are equal, we do not mean that they really are but that they have some properties in common, or, more precisely, that, within certain limits of tolerance, the values of some measurable magnitudes can be said to coincide in both.

Such statement supposes *a theory*, therefore, *which declares such magnitudes to be the significant ones*.

In other words, any object has to be identified with a set of measurable magnitudes to which correspond, in the real world, not exclusively that object but an infinite number of objects characterized by the same values for such magnitudes.

What is true for Structural Engineering is also true for any other kind of Engineering or Science and is typical of the way in which the human mind knows the real world.

The universe of knowledge is indeed not a copy of the real universe but a construction of the mind based on sensible data provided by experience.

A correspondence has to be established, thus, between the beings of the real world and the elements of the ideal one, which we call *idealizations* of such beings.

The so-called laws of Nature are not, for a modern scientist, laws of the real world but of a space of idealizations.

Basic elements of a given theory are such space and the transfer function which associates to each object its idealization. Two objects are declared equal, within the frame of a given theory, if they have the same image in the space of idealizations.

It is important to recognize that a given definition of equality is sub-ordinated to a given end. For other ends, other properties and magnitudes would be relevant.

For instance, the macroscopic properties, which are quite satisfactory for a structural engineer, are not at all sufficient for a metallurgist or a chemist.

Now, identity is a particular case of equivalence.

A first step for solving a problem associated to a real world object, which we call a prototype, may consist in resorting to a concept of equivalence, testing other real objects, called *physical models*, which, under the frame of an adequate theory, may be declared equivalent or analogous to the first.

If the equivalence criterion is the identity criterion, predictions can be made with high accuracy, but the procedure is usually not an economical one.

One way of obtaining more economical predictions consists in using models with different dimensions and different materials under different actions. The model is then called a *scaled model*.

Using scale, a new transfer function is necessary which is provided by the so-called *similarity theory*.

Such transfer function, from which identity is a particular case, is a first example of an analogy, actually the only kind of analogy which can be established without resorting to a mathematical model, i.e. to a system of equations acceptable for describing the idealization's behaviour.

A scaled model is thus the simplest possible example of an *analog computer*.

If we wish to predict the strength of the prototype from the data provided by scaled models built with different materials the intervention of Mechanics becomes indispensable.

The continuity of matter must first be postulated. This postulate is, of course, rejected by physicists, chemists or metallurgists, who see bodies as system of particles, but is extremely fruitful for civil and mechanical engineers.

Other postulates are added to the postulate of continuity which make possible the application of the principles of Mechanics to continue and, therefore, to Structural Engineering.

Assimilating the actions between different parts of a body to forces distributed on the surfaces of contact, these postulates involve basic concepts of Mechanics, such as those of force and traction.

Using these concepts and the first Euler's law of Mechanics, it is then possible to demonstrate the stress principle of Cauchy, according to which a second-order tensor exists (the stress tensor) which transforms, at each point of any surface cutting the boby, the external unit vector normal to the surface into traction vector. The second Euler's law allows us to go further and to demonstrate that such tensor is symetric.

Strength criteria, which are naturally expressed in terms of the components of the stress tensor, can then be formulated and a new step is given in the way of theorization.

Next to the definition of stength criteria comes in *the construction of mathematical models*.

Physical models allow us to measure magnitudes which make it possible to predict the strength and deformation of structures, i.e., the stresses and displacements associated to the different possible actions.

Mathematical models allow us to compute them.

Solid Machanics comprehends different models deviced for the equilibrium and deformation analysis of solids, namely three-dimensional models, two-dimensional models, one-dimensional models and discrete models.

All bodies being three-dimensional, the fact that 3-dimensional analysis is so often impossible to achieve, explains why other models, which are to be regarded as approximations to the 3-dimensional one, are used as a rule, indeed as often as the shape of the body allows them to be.

Thus :

– the generation of approximate models from more accurate ones becomes a central problem within Structural Mechanics ;

– discretization, i.e. the generation of a discrete model, is just a particular case of such a general problem ;

– the 3-dimensional model must be seen as the model which, directly or indirectly, generates all the others.

The methods of solution of particular problems whithin the frame of each model do not fall within the scope of the Theory of Structures but of other theories like :

– the three - and two - dimensional Theory of Elasticity,

– the Theory of Shells,

– the Theory of Rods.

The formal analogies between models, together with the generation of models from other models, fall however within the scope of what may be called *the Theory or the Mecanics of Structures*, which therefore should be formulated as consisting of three parts :

– a generic model ;

– rules for generating models (approximate models) from other models ;

– a justification for such rules.

The generic model consists of three groups of equations - force-stress, strain-displacement and stress-strain equations - involving four kinds of magnitudes - stresses, strains, forces and displacements. Such equations are supplemented by force and displacement boundary conditions.

The operators that transform stresses into forces and displacements into strains are such that the work principle holds. By virtue of such principle and of the stability postulate, the minimum potential and the minimum complementary energy theorems become true.

In what concerns the rules for generating approximate models, the procedures used are essentially two dual ones : the potential energy and the complementary energy methods.

In what concerns the justification of such rules, let us remark that the recent evolution of the theory of Structures was deeply influenced by the finite element method. It was namely in connexion whith the finite element method that the role of convergence was fully appreciated.

The capacity for generating sequences of approximate solutions tending to the exact solution being the main theoretical reason for a given type of element being accepted, it is natural that convergence considerations be used as as basis also for the generation of continuous models like the theory of shells.

This explains how the modern Mechanics of Structures can give answers to problems, like the one of the foundations of the Teory of Shells, which have been, until quite recently, exclusively from other points of view.

It is important to remark that the idea of determining the exact solution to a continuous problem as the limit of a convergent sequence of approximate solutions is far from being new.

Such idea is put into practice, for instance, when *the solution* is presented *under the form of a series*.

In the case of a series, howver, each new term of the sequence is obtained just by adding an increment to the precedent one, while, when using techniques like the finite element or the finite difference methods, the computation of each new term of the sequence implies a complete loss of the precedent computational effort and a progressive increase of such effort.

For this reason, whereas the solution presented under the form of a series can be manually dealt with, finite elements had to wait the development of computers.

For the computers of the first generations, the time and price associated to the numerical solutions of even trivial problems were usually so high that studying the response of the structure for different actions, or examining the effects of the variation of certain parameters, or solving non - linear problems (by reducing their solution to the solution of a sequence of linear problems, became quite impracticable.

The quick advances in computer technology radically changed the situation and a most remarkable outcome of such change was that it became possible to state that solutions provided by mathematical models are both cheaper and more accurate than those provided by scaled models.

Prototypes, idealizations, models, analysis - such has been *the chain engineers have to face.*

Progress in Engineering means the strengthening of the weakest link in the chain. Before the computer revolution occurred, such link was analysis. The primary accent in research was thus put on analysis.

However, computational methods are now powerful enough for predicting the behaviour of the available idealizations. The time arrived therefore when further progresses in analysis are not always needed.

The results of analysis have indeed to be confronted with the behaviour of the prototypes themselves, which implies that the prototypes have to be observed both under normal operation and for extreme conditions.

Safety evaluation for the main hazard scenarios demand indeed full information, related both to properties and actions, collected from the direct observation of extreme situations as well as a deeper knowlege of the physical/mechanical properties of structures. In case of dams, for instance, this means a careful investigation of sites which allows the dam-foundation whole to be adequately idealized.

Gathering and assembling information on all kinds of accidents and incidents for each type of structure, as well as the analysis, for those scenarios, of individual structures, are becoming major research topics, nowadays.

However, although making such analyses possible represent one of the frontiers to be crossed in the way of progress of structural engineering, there will be no point in making new major steps in structural analysis if not enough data are available for structural idealization.